
يصدرها
حلمي مراد
مطبوعات كتابي
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
المسبحة!
(قربان الحب)
THE ROSARY
القصة التي صنعت مجد
الروائية الانجليزية
فلورنس باركلي

فلورنس باركلى

المسبحة



THE ROSARY
BY
FLORENCE BARCLAY

٢٠٠ صفحة – ١٠ قروش

مطبـــوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع والثلاثون

المسبحة

(قربان الحب)

الجزء الاول

ترجمة : نجيب ميخائيل بشارة

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالميه)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ، قصص من الصين ، نزالى بلزاك ، الالياذة قصص من روما . وثمن النسخة عشرة قروش فيما عدا الاعداد : ١ و٤ و٧ و١٩ و٢٢ فثمن النسخة عشرون قرشا ، والاعداد : ١٢ ، ٢٨ ـ ٣٢ اثنى عشر قرشا ، و ٣ و ٥ و ٦ ثمانية قروش ، ويضاف الى هذا السعر قرشان مقابل أجر البريد المسجل .

هذه القصة .. وقصتها معى !

عزيزى القارىء ..

هل تحب ان تعرف كيف وصلت هذه القصة الى يدك ، فى هذه الطبعة العربية ؟

ان لذلك قصة طريفة ، تعطيك فكرة عن الاثر البعيد الذى قد يترتب على كتاب يهديه قارىء معجب ، الى صديق ..

ففى صيف عام ١٩٤٠ ، لمحت فى يد صديقى الكاتب القصصى « يوسف جوهر » كتابا انجليزيا ، سألته عنه ، فقال أنه لم يقرأه بعد ، وانما أهدته اياه سيدة سورية — على ما أذكر — بعد أن بالغت فى اطرائه والثناء عليه ، فكرة وموضوعا واسلوبا ..

واستهوانى غلاف الكتاب ، وعنوانه الغامض ، The Rosary ، الذى يحتمل أكثر من معنى .. واذ علمت أنه لا ينوى قراءته فى أمد قريب ، أخذته منه لاقرأه ثم أرده اليه ..

لكنى شغلت عنه زمنا ، بل ونسيته .. حتى وقع فى يدى مرة أخرى وانا « أنبش » مكتبتى قبيل سفرى الى مدينة (الاقصر) فى شتاء عام ١٩٤٢ ، فأخذته معى ..

وفى شرفة (ونتر بالاس) المطلة على النيل — ذات أصيل — بدأت أطالع الصفحات الاولى منه ، فى غير حماس يذكر ، بل وفى شىء من الشعور بخيبة الامل ! .. فقد بدا لى الفصلان الاولان منه باعثين على الملل ، والانصراف عن القراءة ! .. غير انى تذكرت ما قالته السيدة مهدية الكتاب ، من ثناء بالغ عليه ، فواصلت القراءة ..

وبدأت تتكشف لى روعة القصة .. وشيئا فشيئا استأثر سياقها بلبى .. فمضيت أنهب صفحاتها نهبا .. وكلما

توغلت فيها ، ازداد نهمى وشغفى المحموم بها .. حتى أتيت عليها فى أيام معدودة ، وقد بلغ اعجابى بها اقصاه !

ومنذ ذلك التاريخ ، دفعنى شعور غير مفهوم الى الحرص على تلك النسخة الانجليزية من القصة ، حرصى على كنزثمين يعز على التفريط فيه !

ماذا كنت أبغى من الحرص على تلك النسخة ؟
وفيم كنت ــ يومئذ ــ أنوى استخدامها ؟

أغلب الظن أن هذا الحرص ، وذلك الشعور غير المفهـوم ، كان هدفهما ــ فى عقلى الباطن ــ هو تحين الفرصة لتقديم هذه القصة الرائعة الى قراء العربية .. (رغم بعد الشقة بينى وبين امكانيات تحقيق هذا الامل ، يومئذ ، قبل أن أخرج مشروع « مطبوعات كتابى » ــ بل و « كتابى » ذاته ــ الى عالم النور .)

وفى تلك الاثناء صارحت صديقى « يوسف جوهر » بنبأ « استيلائى » على كتابه ، وأعدا اياه بأن « أعيره » اياه ــ مجرد اعارة ! ــ يوم يفكر جديا فى قراءته ..

★ ★ ★

ومرت الأعوام ..

ولم افرط فى نسخة القصة ، خلال هذه الاعوام « السبعة عشر » ــ حتى على سبيل الإعارة ــ الا مرة واحدة ، يوم كنت أزور النائب السابق « نجيب ميخائيل بشارة » فى معتقل الزيتون ــ **على أثر اعتقاله مع الاستاذ الكبير « مكرم عبيد » أثناء أزمة (الكتاب الاسود) المشـهورة ــ** فطلب منى كتابا يستعين بقراءته على تبديد وحدته فى المعتقل .. فلم أجد امتع من هذا الكتاب الشائق مؤنسا له ومعينا على تبديد أوقات فراغه الطويلة ، ونسيان وحدته ..

وحين رد الكتاب الى بعد خروجه من المعتقل ، حدثنى عن الاثر الهائل الذى أحدثه فى نفســـــه ، وكيف أمدته فكرته وسياقه الرائعين بمزيد من الطاقة النفسية والقوة على احتمال محنته ، والصبر فى مواجهة الشدائد ! .. **بل روى لى كيف أنه أعاد قراءة الكتاب مرتين ، وكيف تناقلته بعد ذلك أيدى ســـــواه من المعتقلين ـ وكان منهم الزميل « جلال الدين الحمامصى » ـ فأجمعوا كلهم على الاعجاب به والتحمس له ،** وصارت أحداث المأساة العنيفة التى يرويها الكتاب ، موضع أحاديثهم ومناقشاتهم المتكررة فى لياليهم الموحشة ..

★ ★ ★

وازداد حرصى على نسخة الكتاب ، حرص البخيل على ماله ! .. ومضت الاعوام ، وأصـدرت « كتابى » ثم « مطبوعات كتابى » ، **دون أن يبرح خيالى الامل فى ان أجد فراغا يتيح لى فرصة ترجمة هذا الكتاب بنفسى .. ذات يوم !**

.. حتى جمعتنى بالنائب السابق جلسة على حافة حوض السباحة بنادى (سبورتنج) بمصر الجديدة ، فى أحد أيام الصيف الماضى .. وتطرق بنا الحديث الى الادب والقصص ، والمكتبة الضخمة التى اقتناها وقرأ أكثر كتبها فى شبابه .. وكيف أولع زمنا بالترجمة ، وترجم بالفعل بضـــع روايات طويلة ومسرحيات ، شـــاءت الظروف أن يفقد مخطوطاتها جميعا قبل أن تنشر ..

وجاء ذكر هذه القصة ، وتأثيرها العميق فى كلينا ، وحلمى القديم بترجمتها الى العربية ، وعجزى حتى الآن عن اقتناص الفراغ الكافى للقيام بهذه المهمة ـ (بحكم استئثار « كتابى »

و « المطبوعات » بكل وقتى) ـ ثم احتياج القصة ـ أية قصة ، فى نظرى ـ الى مترجم «مؤمن بها» ، أى معجب بفكرتها وأسلوبها الى درجة الشغف والتحمس ..
وكان أن رحبت بأن يتولى عنى ترجمة هذه القصة .

ظروف تفكير المؤلفة فى وضع هذه القصة

وقد يطيب لك ، بعد هذا ، ان تعرف شيئا عن ظروف وضع هذه القصة ، وعن مؤلفتها :

تقول ابنة المؤلفة فى الكتاب الذى نشرته عن حياة أمها ، واسمه **« حياة فلورنس باركلى ، بقلم احدى بناتها »** ان النواة الاولى لقصة « المسبحة » هذه كانت قصة « قصيرة طويلة » كتبتها المؤلفة فى عام ١٩٠٥ بعنوان « عجلات الزمن » ، دون أى تفكير فى نشرها . لكنها عادت فأحست ـ بعد كتابتها ـ بميل الى أن لا تقطع صلتها بشخصية جذابة مثل شخصية « جين شامبيون » ، بطلتها .. **عندئذ تطورت فكرة القصة فى ذهن « فلورنس » الى فكرة مطولة اختمرت فيه بالتدريج، فراحت ـ دون أن تمسك قلما أو قرطاسا ـ ترسم خيوطها وخطوطها الرئيسية والتفصيلية ، حتى أتمت فى ذهنها قصة « المسبحة » بكل زخرفها ورونقها الحاضرين** . وكانت هذه هى طريقتها دائما ، أن تضع قصصا كاملة ، بأحداثها وحوارها، ثم تتركها دفينة فى أركان ذاكرتها ، ربما لسنوات طويلة ، حتى تطفو يوما فتكتب ، كما تطبع اسطوانة سجل عليها نغم أو حديث !

وهكذا ظلت « المسبحة » غارقة فى سبات عميق لاكثر من

عام .. وفى أحد الايام ، كانت المؤلفة تستقل القطار عائدة من لندن الى (هيرتفورد) ، **فاذا بها تمسك بالقلم والورق فتكتب الفصل العاشر من القصة ، كاملا ، وهو الفصل الذي يعلن فيه «جارث» حبه لـ «جين» ، فى شرفة قصر (شنستون) ! . وقد يبدو غريبا أن يكتب الفصل العاشر من رواية ، قبل الفصول التسعة الاولى !** .. ولكن ، تلك كانت طريقة « فلورنس باركلى » وموهبتها الفذة ، أن تكتب خاتمة القصة احيانا قبل بدايتها ، من فرط ما كان الكتاب كله « يعيش » مطبوعا بحذافيره فى ذاكرتها ، بحيث يصبح فى مقدورها أن تكتب أى موقف منه فى أى وقت تشاء !

كتبت هذه القصة وهى طريحة الفراش !

بيد أن التفرغ المنشود لكتابة بقية فصول «المسبحة» لم يتهيأ المؤلفة الا فى أغرب الظروف وأقساها ، حين قدر لها أن تلازم الفراش شهورا طويلة — لاصابة قلبها باجهاد نتج عن افراط فى ركوب الدراجة — واذ ذاك راح قلمها يجرى على القرطاس دون توقف ، وهى راقدة فى فراشها .. وبعد ثمانية أشهر من المتاعب والآلام التى احتملتها — رغم طبيعتها الحارة النشطة — بصبر واستسلام تام ، تسنى لها أن تستعيد صحتها ونشاطها .. وكانت قد أتمت أكبر عمل فنى فى حياتها ، وهو «المسبحة» !

ومع ذلك فربما لم يكن يقدر للقصتين — المتوسطة والطويلة — أن تنشرا ، لولا أن أرسلت المؤلفة اولاهما ، (عجلات الزمن) ، الى شقيقتها المقيمة فى نيويورك ، فأصرت على نشرها وطلبت ملحة أن تطلع على القصة الاخرى الطويلة ، (المسبحة) .

وعندئذ أرسلت اليها « فلورنس » مخطوط هـــذه القصة ، فوضعته الشقيقة بين يدى أصحاب دار النشر المعروفة « بوتنام » ، الذين وافقوا على نشرها ــ **(وان لم يجل بخاطرهم يومئذ انه لن يمضى سوى وقت قصير حتى يبلغ عدد النسخ المبيعة منها مليون نسخة ، وحتى تترجم القصة الى تسع لغات عالمية !)** .. ولو أدركوا ذلك فى حينه لما اشترطوا عند قبول القصة أن تختصر ، فتحذف منها عشرة آلاف كلمة ! .. والواقع أن ذلك الاختصار كان امتحانا قاسيا للمؤلفة ، فقد كانت القصة وحدة كاملة ، ومن شأن أى اختصار فيها أن يخل بتماسكها . (وقد انتقد أديب من أصدقاء المؤلفة بالفعل ــ وهو يجهل قصة ذلك الاختصار ــ « خلخلة » لاحظها فى بعض مواضع القصة ، وكانت تلك المواضـــع هى التى اجترأ عليها القلم الاحمر بالحـــذف والتشويه !) ــ على أن جميع الاجزاء والكلمات المحذوفة لم تلبث أن اعيدت الى مكانها فى الطبعات التالية ، ومنها الطبعـــة التى أخذت منها هذه الترجمة « الكاملة » للقصة ..

الدستور الخلقى الذى تلتزمه المؤلفة فى قصصها

وقد نشرت « المسبحة » فى وقت واحد فى انجلترا وأمريكا فى عام ١٩٠٩ .. وأخذ الاقبال عليها يزداد ، والطبعات تتوالى تبعا لذلك ، حتى بلغ مابيع منها فى نهاية السنة الاولى ١٥٠٫٠٠٠ نسخة ! .. وكم برحت بفلورنس الفرحة العظمى حين تلقت آلافا عديدة من رسائل القراء ــ من جميع أقطـار العالم ــ وكلها تشيد بالعون الكبير والاثر البالغ الذى تركته القصـــة فى نفوسهم .. كما كان مصدر غبطة كبرى للمؤلفة أن تقرأ الثناء العاطر الذى أمطرها به نقاد الادب فى كبريات الصحف العالمية . وكان من بين النواحي ــ غير المألوفة ــ التي امتدحـــوها من

أجلها ، أنها تكتب « **برغبة حارة فى ادخال البهجة والعزاء الى حياة ذوى القلوب الحزينة !** » ، ومن هنا كان الحماس البالغ الذى قرىء به الكتاب فى جميع الاوساط والطبقات !

وهذا يقودنا الى الحديث عن الهدف الذى تتوخاه المؤلفة فى قصصها . وفى هذا تقول فلورنس : « **ان هدفى هو : ان لا أكتب قط سطرا يمكن ان يدخل شائبة من الخطيئة أو ظلا من ظلال الخجل الى أى بيت !** .. وان لا ارسم قط شخصية تنزع الى الانحدار بالمثل العليا للقراء الذين ـ عن طريق قلمى ـ ربطتهم ألفة وثيقة برجل او امرأة من مخلوقات قصصى ! .. **ان فى العالم قدرا وافرا من الخطايا ، بحيث لا يحوجه الامر الى أن يستخدم المؤلفون قوة خيالهم كى يضيفوا خطايا أخرى وهمية الى ما فى جعبة البشرية منها !** .. فأينما أدرت بصرك على ظهر هذا الكون تجد زرافات من الاشخاص الاشرار ، الوضيعين ، والخبثاء ، يدبون على أرضنا .. فلماذا يضيف المؤلفون مزيدا الى عدد هؤلاء الاشرار ، ويخاطرون بتقديمهم الى بيوت هانئة وادعة ، لاتحتمل وجودهم ـ فى الحياة الواقعية ـ دقيقة واحدة !

وقديما قال عالم وكاتب فرنسى عظيم : « **ان المبرر الوحيد للقصص الخيالية ، هو أن تكون ابهى جمالا من الواقع !** »

عنوان القصة .. واللبس الذى يثيره !

بقى ايضاح أخير ، يتصل بعنوان هذه القصة .. فلقد أطلقت عليها مؤلفتها : «المسبحة» ، والعنوان (سواء بالانجليزية The Rosary أو بالفرنسية Le Rosaire) مشتق من الكلمة اللاتينية Rosarium ، التى منها : Rosa و Rose بمعنى الوردة !

وقد تقول : وما علاقة الوردة بالمسبحة ؟ .

لكن هذه العلاقة تبدو بوضوح اذا عرفنا ان الحبات الكبرى للمسبحة كانت تسمى فى الازمنة القديمة Roses ، وكانت المسبحة تصنع يومئذ من طاقة أو اكليل من الازهار ، يرمز الى اكليل أو طاقة روحية من الصلوات ، (التى يتلوها المتدينون كما يتلون الادعية وهم يتابعون دحرجة حبات المسبحة بين أناملهم ..)

وترمز المؤلفة باطلاق هذا العنوان على القصة الى أن البطلة حين تغنى أغنية ((المسبحة)) ـ وهى تعزفها على البيانو ـ انما كانت تتأمل الاحداث الرئيسية لغرامها ، وذكريات هذا الغرام ، كما يتأمل حامل المسبحة الاحداث الهامة المتصلة بمعتقداته الدينية ، وهو يتلو الادعية والصلوات ، ويدير بين يديه حبات المسبحة !

وفى هذا القدر الكفاية .. فتعال نطالع الآن فصول القصة ذاتها ، بعد أن عرفنا قصة القصة !

حلمى مراد

المسبحة

(قربان الحبّ)

للروائيّة الانجليزية "فلورنس باركلى"



الفصل الأول



خيم سكون وادع — فى ظهيرة يوم من ايام الصيف بانجلترا — على مروج وحدائق (أوفردين) ، فسادها صمت زحفت فيه خيوط الشمس الآفلة والظلال المتطاولة على المرج السندسى ، وبدت فى الجو بوادر رطوبة عليلة ، جعلت ظل شجرة الارز الباسقة مكانا محببا .

وكان القصر الحجرى القديم متينا ، ضخما ، خاليا من الزخرف ، يوحى برحابة وراحة — لا حد لهما — فى داخله ، وقد خفت من خشونة مظهره الخارجى ، فروع اللبلاب الرفيعة ، وأشجار المانوليا وغيرها من النباتات التى كانت تنمو منذ سنين طويلة ، متسلقة واجهة القصر البسيطة ، حتى أصبحت تكسوها بدثار من الخضرة الناعمة ، والزهور البيضاء اليانعة ، وفيض من الزهور الارجوانية الصغيرة .

وكانت ثمة شرفة تمتد بطول واجهة القصر ، ويحدها — من أحد طرفيها — مستودع فسيح ، ومن الطرف الآخر مكان لتربية الطيور .. وكانت تتخلل الشرفة — على مسافات متفاوتة — درجات واسعة من الحجر ، تفضى منها الى حشيش المرج الناعم الطرى ، الذى امتد بعده متنزه واسع الارجاء ،

تناثرت فيه قرم من الاشجار الشائخة ، تجوس خلالها ــ فى خفر ــ غزلان سمراء اللون .. وبين الاشجار كانت مياه النهر تلمع ، كشريط فضى ضيق ينساب ملتويا فى رشاقة ــ بين صعود وهبوط ــ وسط الحشائش الطويلة والبراعم الذهبية .

وكانت الساعة الشمسية ــ المزولة ــ تشير الى الرابعة .. وقد ركنت الطيور الى الصمت فترة . فبدأ السكون ثقيل الوطأة ، يكاد يزهق الإنفاس ، اذا لم تتخلله هزة من غصن ، أو شقشقة من عصفور .. وكانت البقعة الوحيدة من اللون الزاهى ــ فى هذا المنظر ــ تتمثل فى ببغاء كبير الحجم ، ذات لون أحمر قان ، وقد نامت على أرجوحتها تحت شجرة الارز

وأخيرا .. وبعد صمت طويل ، سمع صوت باب يفتح ، وظهر شخص مسن أنيق فى الشرفة ، فسار يمينا الى نهايتها ، ثم مرق واختفى فى بستان الورود . وما كان ذلك الشخص سوى الدوقة « ميلدرام » ، وقد أقبلت لتقطف الورد . وكانت تضع على راسها قبعة قديمة من القش من طراز عرف ــ فى أوائل عهد الملكة فيكتوريا ــ باسم « عش الغراب » ، وقد ربطت بأشرطة سوداء تحت ذقنها المهيب . وكانت ترتدى معطفا فضفاضا ، داكن اللون ، وثوبا قصيرا من الصوف الخشن ، وقد غيبت يديها فى قفاز عتيق ، وحملت سلة من الخشب ومقصا ضخما .

ولقد قال أحد الظرفاء مرة : « اذا قدر لك أن تقابل فخامة الدوقة ميلدرام ، وهى عائدة من حديقتها أو من اطعام طيورها ، وكنت منبسط المزاج ، فقد يبلغ بك السخاء أن تنفحها بنصف شلن ! » .. غير أنه اذا قدر لك أن تسترعى انتباهها ــ بهذه الطريقة ــ فلن يكون لك من مخرج سوى أن تستسلم للثورات الدوقية ، التى تصبها عليك الدوقة وكأنها منن تتعطف بها عليك ! .. ثم لا تلبث ــ بعد ذلك ــ أن تتقبل

اعتذارك بطيب خاطر ، ولكنها تحتفظ بقطعة النقود لتعرضها كلما روت القصة !

* * *

• **وكانت** الدوقة تقيم بمفردها فى هذه الدار العتيقة .. وبمعنى آخر ، أنها لم تكن تميل الى استبقاء رفقة أحد من الاقارب بصفة مستديمة ، ولا الى الابتسامات المصطنعة والرياء الذى يبديه أى أنيس مأجور . وكانت ابنتها الشاحبة اللون — والتى كانت لا تنفك تزجرها فى كل مناسبة — قد تزوجت .. اما ابنها الجميل الذى أحبته حب العبادة ودللته حتى أفسدته ، فقد مات فى سن مبكرة ، قبل سنوات قليلة من وفاة زوجها « توماس » الدوق الخامس من سلالة « ميلدرام » .. الوفاة التى حلت بغتة ، فكانت — كما اعتادت الدوقة أن تصفها — نهاية طيبة تليق به ..

ذلك لانه امتطى فرسه ، فى عيد ميلاده الثانى والستين ، وقد ارتدى أفخر سترات الصيد الارجوانية ، مع القبعة العالية ، والسروال المصنوع من جلد البقر المتين .. وفجأة ، أبت الفرس أن تتخطى سياجا عاليا ، كانت تساق الى تجاوزه فى غير رحمة ، فاذا توماس — دوق ميلدرام — يطير فى الهواء ، ويهوى على أم رأسه فى حقل لفت .. فصمت الى الابد !

وأدت هذه النهاية المباغتة لحياة الدوق المليئة بالصخب والغضب ، الى تبدل تام فى الوسط الذى كان يحيط بالدوقة . فقد كان عليها — حتى ذاك الحين — أن تحتمل رفاقه الذين كان يختارهم والذين كان يرتاح الى صخبهم وهرجهم .. أو ليملأوا داره ، أن تدعو من صديقاتها من يقبلن أهواءه وميوله وأعماله بسرور ابقاء على صداقتها ، واستمراء للاقامة فى (أوفردين) البديعة .. ومع ذلك فان الدوقة لم تكن تجد مسرة فى تلك الحفلات ، اذ كان يجرى فى عروقها — رغم

ما اتسمت به من خشونة المظهر — دم من أشد أنواع الدم الازرق زرقة ! .. ومع ما كان فى اخلاقها من غلظة وحدة وعدم اعتبار لمشاعر الناس — وهى صفات ليست نادرة لدى المسنات من سيدات طبقتها — الا أنها كانت فى أعماقها سيدة كريمة مهذبة ، يطمئن الى مقدرتها على أن تقول وتفعل ما ينبغي أن يقال ويفعل فى المناسبات الهامة . ولقد كان الدوق (المرحوم) ذا لهجة نارية ، وسلوك عنيف ، حتى اذا ما أودع — على غير ما كان يشتهى — داخل القبو الذى ضم أجداث أجداده فى وحشة وسكون ، قالت الدوقة : « ما أبعد هذا عن مزاج العزيز المسكين ، حتى أننى لاجد راحة فى أن أتمنى لو أنه لم يكن هنا ! » .. وتلفتت حولها ، ثم بدأت تتبين محاسن وامكانيات (أوفردين) !

ولقد قنعت الدوقة — فى بداية حياتها الجديدة — بهواية تنسيق حديقتها والعناية بها ، وانشاء أماكن لتربية الطيور والدواجن ، جلبت لها أنواعا مختلفة من الطيور الغريبة والبرية ، التى أغدقت عليها كثيرا من الحنان الذى لم يكن يجد انسانا ينساب اليه ، فى السنوات الاخيرة . **ولكن ميلها الفطرى الى استضافة الناس ، والى الاستمتاع بتفقد عيوب الغير — مع ميل عجيب الى عرض ما لديها من عيوب — أدى الى سلسلة متتابعة من الحفلات والولائم فى (أوفردين) ، حتى عرف القصر باسم : « بهو الحرية » ، لما كان يشهده من صنوف اللهو والمرح .** فكنت تلتقى فيه دائما بكل ما يروق لهم رؤياهم من الناس ، وكنت تجد كل التسهيلات التى تتيح لك قضاء أطيب أوقات الفراغ ، وتحظى بأكمل غذاء واقامة ، وتقضى فترة من أجمل أيام الصيف ، أو من أبهج ايام الشتاء .. فلا ملل ولا ضجر ، بل أنك كنت تنعم بحرية الذهاب والمجىء ، كما يحلو لك ..

وكان كل شيء مباحا لكل فرد ، مع « المشهيات المثيرة »

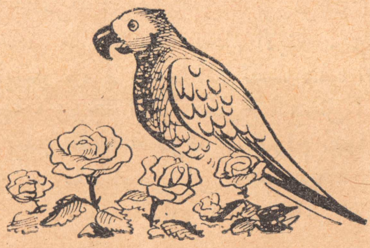
التى كانت تتمثل فى أنك ما كنت لتستطيع أن تجزم بما كان يدور برأس الدوقة من أقوال أو أفعال تفاجىء بها ضيوفها .
ولقد قسمت الدوقة حفلاتها ــ فى ذهنها ــ الى ثلاثة أنواع : « حفلات متزمتة » ، و « حفلات عامة » ، و «أفضل الحفلات» .. وكانت ثمة حفلة من « أفضل الحفلات » ، فى ذلك اليوم البديع من ايام شهر يونيو ، الذى ارتدت فيه الدوقة ما كانت تسميه « عدة الحديقة » ــ بعد أن نعمتَ بقيلولة طويلة ، على غير عادتها ــ وذهبت لتقطف زهورها .

* * *

• **واذ** عبرت الشرفة ، واجتازت الباب الحــديدى الذى يؤدى الى حديقة الزهور .. استيقظ الببغاء « تومى » من غفوته ، وفتح احدى عينيه واخذ يرقبها ، حتى اذا ما اختفت عن ناظــره ووصلت الى حديقة الزهور ، ارسـل لها قبلة ــ بصوت مرتفع ــ وأردفها بقهقهة لنفسه ، ثم عاد الى غفوته .. ومن بين كل الطيور والحيوانات المدللة ، كانت لتومى الحظوة الكبرى فكان ــ هو المنفث الوحيد لما لدى الدوقة من عواطف هزيلة ــ اذ انها وجدت ــ بعد أن انتقل الدوق الى مثواه ــ ان من بواعث الضيق ان ينطلق كل صوت كان يطرق أذنيهــا ــ من أصوات الرجال ــ بالملق والزلفى ، حتى لقد بات من المحتمل ان تشعر باغتبــاط لو اســتطاع خادمها ان يرسل شخيرا أمامها ، أو اقدم قس القرية على مواجهتها بعبــارات خشنة ! .. ذلك لان حزنا راسخا ثابتا ران على روحها ، حتى رأت يوما ــ اعلانا عن ببغاء يمتاز بلبــاقة فى الــكلام ، وبأنه يجيد النطق بحوالى خمسمائة كلمة . فسارعت الى المدينة ، وزارت البائع ، واستمعت الى بضع كلمات من الببغاء ، والى اللهجة التى كان ينطق بها ، ثم اشــترته لفورها ، وعادت به الي دارها فى أوفردين .

وقضى الببغاء ليلته الاولى جاثما على حافة أرجوحته ، راغبا عن أن ينطق بكلمة من الخمسمائة كلمة التى كان يتقنها ، رغم ان الدوقة قضت ليلتها فى البهو ، متنقلة بين جميع مقاعده .. فكانت فى البداية على مقربة من الببغاء ، ثم ابتعدت الى ركن ناء ، ثم جلست فى مقعد وضع خلف ستار ، منصرفة الى القراءة وظهرها متجه اليه ، وكأنها لا تعبأ به ولا تهتم بأمره .. ثم تعمدت ان تجلس امامه ، موجهة كل اهتمامها اليه ، ولكن « تومى » لم يحفل بأكثر من ان يطقطق بلسانه فى كل مرة كانت تبرز فيها من وراء مخبأ .. فاذا اجتاز البهو أحد السقاة ـ او احد صغار الخدم ـ وهو واجف ، ارسل « تومى » وابلا من القبلات تتلوها نوبات من الضحك الذى كان يطلقه من بطنه لا من حلقه ! .. **وحاولت الدوقة ـ وقد كاد يغلبها اليأس ـ ان تذكره همسا بما ابداه من ملح فى متجر صاحبه فلم يأبه لها ، بل كان يغمز لها بعينه ، ويضع مخلبه فوق منقاره .. ومع ذلك فان « الدوقة » ابتهجت بلونه القانى ، وذهبت الى مخدعها وكلها أمل ، دون أن يساورها ندم ما على صفقتها !**

وفى صباح اليوم التالى ، ظهر جليا للخادمة التى نظفت البهو ، وللخادم الذى فرز الرسائل ، ولرئيس الخدم الذى قرع ناقوس الطعام ، ان الراحة التى نعم بها « تومى » بالليل ،



قد ردت اليه لباقته . حتى اذا هبطت الدوقة درجات السلم منتفخة ـ بعد ان سمعت دقات ناقوس الطعام ـ حرك «تومى» جناحيه وصاح بها غاضبا : « والآن ايتها الفتاة العجوز .. هلمى ! » . فأقبلت على الفطور بابتهاج لم تعهده منذ شهور !

الفصل الثانى



• **كانت** « النبيلة جين شامبيون » ـ ابنة أخ الدوقة ـ هى الوحيدة بين أقاربها ، التى يحق لها ان تتخذ من قصر الدوقة مقاما لها .. وما كان ذلك إلا لانها كانت الوحيدة التى يحق لها ان تدعو نفسها الى (اوفردين) ـ او الى قصر (بورتلاند) ـ فتفد عندما يحلو لها ، وتقيم ما طاب لها ، وتبرح حين يروق لها الرحيل .. ذلك لانها عند وفاة ابيها ـ وانتهاء اقامتها المنعزلة الموحشة فى (نورفولك) ، كانت على استعداد لان تحل من الدوقة محل الابنة . **ولكن الدوقة لم تكن راغبة فى ابنته .. لا سيما اذا كانت هذه الابنة ذات آراء خاصة تجهر بها ، ووجه ليس صارخ الجمال ! .. فقد كانت هذه الصفات تبدو لفخامة دوقة ميلدرام نعما غير مرغوب فيها ! ..** ومن ثم فقد اوحى الى « جين » بأن لها ان تأتى حينما تشاء ، وان تقيم بالدار ما رغبت ان تقيم ، ولكن ..

على قدم المساواة مع الآخرين . وكان ذلك يعنى حريتها فى الحضور والرحيل فى أى وقت ، وعدم التزامها بأية مسؤولية نحو ضيوف عمتها .. فقد كانت الدوقة تؤثر ان تتصرف فى حفلاتها - ومع ضيوفها - على الوجه الذى ترتضيه !

وكانت جين شامبيون - عند بدء هذه القصة - فى الثلاثين من عمرها ، وقد وصفها - مرة - شخص ممن ينفذون الى ما وراء المظهر السطحى ، فقال انها كانت **امرأة كاملة الجمال ، فى صدفة بسيطة المظهر ، وانه لم يقدر بعد لرجل ان يطلع على ما بداخل الصدفة ، ليرى المرأة فى كمالها !** .. كان بوسعها ان تحيل الارض الى نعيم مقيم ، لاى محب اعمى ، لا تنظر عيناه الى خلو وجهها من الجمال ، وامتلاء جسمها ، وانما يهتم بأن يقترب منها ليدرك اعجب ما فيها كامراة اوتيت ثروة من الحنان كانت تعرف كيف تسيطر عليها ، وليلمس الراحة الناعمة فى ظل حبها ، وليتبين ما لديها من عطف مثالى دافق ، وليكشف مدى البهجة الرائعة التى تترتب على اكتساب قلبها والزواج منها .. ولكن الرجل المغمض العينين عن المظاهر الخارجية ، البعيد النظر الى خفاياها ، لم يكن قد اعترض سبيلها بعد . وكان نصيبها دائما البقاء فى الصف الثانى فى المناسبات التى كانت خليقة بأن تشغل فيها المكان الاول على أكمل وجه .. فكانت وصيفة الشرف فى حفلات زفاف لم تؤت العرائس الفاتنات فيها - رغم الحسن الفياض - شيئا يذكر من مؤهلات الزوجة ، التى وهبت جين ثروة منها ! .. وكانت عرابة لاطفال صديقاتها ، وهى التى كانت مواهب الامومة لديها خليقة بأن تحير الالباب وتملك الاعجاب ! ..

كانت ذات صوت رائع ، حال دون الانتباه الى وجوده أن وجهها لم يكن يضاهيه فى الجمال .. ولما كانت تجيد العزف أكمل أداء ، فانها كانت تستدعى لتعزف ، بينما يغنى سواها !

وخلاصة القول ان جين كانت دائما فى المكان الثانى ، فكانت

تملأه وهى راضية أتم الرضى . ولم يقدر لها قط ان تحظى بأن تكون ذات المكانة الاولى لدى أى شخص . ولقد ماتت أمها وهى طفلة ، فلم تحتفظ بأتفه ذكرى لحب الامومة وحنانها .. الغريزة التى اعتادت – فى بعض الاوقات – أن تصورها لنفسها فى الخيال دون ان تمارسها !

* * *

• **وكانت** لامها وصيفة مخلصة وفية ، فصلت عن الخدمة أثر وفاة سيدتها . وقد تصادف انها كانت على مقربة من دار « جين » – بعد مضى نحو اثنتى عشرة سنة من ذلك – فعرجت على دار الضيعة مؤملة أن تجد من يذكرها من الخدم .. واذ كانت مربية الآنسة « جين » ووصيفتها ، قد بارحتا الدار – بعد موعد تناول الشاى – فقد تسللت الوصيفة الى حجرة دراسة الآنسة ، وقد امتلأ قلبها بالذكريات عن « الطفلة الحلوة » ، التى كانت تشارك سيدتها العزيزة فى اغراقها بالحب والرعاية .. ووجدت فى انتظارها فتاة طويلة القامة ، بسيطة القسمات ، ذات مسلك صريح فيه طابع الفتيان ، وشىء من شرود الفكر ، وصفته المرأة فيما بعد بقولها : « انصراف الى تأمل جسم محدثها ، دون انصات الى كلامه » ! .. الامر الذى كبح الذكريات التى كانت قد تدفقت فى ذهن « ساره » – وهو اسم الوصيفة – أثناء وجودها فى غرفة مديرة الدار ، فاكتفت بأن راحت تجول بعينيها الدامعتين فى حجرة الآنسة ، متذكرة انها هى التى انتقت ورق الجدران الجميل مع سيدتها العزيزة الراحلة ، التى كانت فرحتها بالغة يوم تفتح وعى الطفلة العزيزة فمدت يدها الى الورود .. وأردفت الوصيفة قائلة : « بوسعى يا آنسة ان اريك – اذا شئت – أى نوع من الورد كنت تقتطفين ! »

وقبل أن تنتهى زيارة « سارة » ، كانت « جين » قد

سمعت منها أمورا كثيرة لم تكن تحلم بها .. من ذلك أن أمها كانت تقبل يديها الصغيرتين .. « آه ، ما أكثر ما كانت تفعل ذلك يا آنستى العزيزة .. كانت تسمى يديك « ورقتى الورد » ، وتغمرهما بقبلاتها ! »

ونظرت الصغيرة ـ التى لم تألف قط أى مظهر للحنان ـ الى يديها السمراوين ، غير الجميتلين ، ثم ضحكت .. لمجرد التغلب على الخجل الذى اعتراها اذ شعرت بغصة فى حلقها ، وبلذعات غريبة لدموع تجمعت خلف اجفانها ! .. وهكذا انصرفت « سارة » وفى روعها ان الآنسة جين قد أصبحت ـ اذ كبرت ـ شابة بلا قلب تقريبا ! .. ولكن « فراولين » و «جيبى» ـ مربية الآنسة ووصيفتها ـ لم تدركا سر النظافة الدقيقة التى لازمت اليدين ـ اللتين طالما كانتا مصدر شكواهما ـ منذ ذلك اليوم !

وفى ليلة عيد ميلادها ، راحت الصغيرة ـ وقد تجردت فى الظلام من خجلها ـ تقبل يديها تحت أغطية الفراش ، محاولة بذلك ان تستشعر حنان شفتى أمها المتوفاة !

وعندما تولت أمر نفسها وشؤونها ـ بعد سنوات ـ كان أول ما فعلته ، هو أن نشرت اعلانا دعت فيه « ساره ماثيوس » الى الاتصال بها ، ثم عينتها وصيفة خاصة لها ، بمرتب مكن المرأة الطيبة من ان تبتاع لنفسها ما يكفل لها دخلا سنويا كريما .

ولم تكن جين ترى والدها الا لماما ، اذ كان من العسير على نفسه ان يصفح عنها : أولا ، لانها قد جاءت بنتا ، بينما كان هو راغبا فى ابن ذكر .. وثانيا ، لانها وقد جاءت بنتا ، خلت سماتها من الجمال ، بدلا من أن ترث الجمال عن امها ! .. والآباء لا يرون ـ عادة ـ أى غبن فى أن يغضبوا على ذريتهم ، اذا هي أوتيت بعض الصفات التي خلعوها هم انفسهم عليها ،

سواء أكان ذلك فى الاخلاق او فى المظهر !

★ ★ ★

• **وكان** بطل طفولة « جين » ، ورفيق صباها ، والصديق المقرب اليها فى شبابها ، هو « دريك براند » .. الابن الوحيد لقس القرية . وقد كان يكبرها بنحو عشر سنوات .. بيد أنها لم تشعر قط بأنها كانت صاحبة المكانة الاولى فى نفسه ، حتى فى سنوات صداقتهما المتينة المتصلة وعندما كان يفد على دار أبويه لقضاء العطلات المدرسية ـ وهو يدرس الطب ـ كان لوالدته ولمهنته الاولوية ـ فى تفكيره ـ على الصغيرة الوحيدة ، التى كان يسر لوفائها ، والتى كانت قوة خلقها ، وروعة تقدمها الفكرى يثيران اهتمامه .. **ولقد تزوج ـ فيما بعد ـ من فتاة بديعة الجمال ، على طرفى نقيض مع « جين » . ولكن صداقتهما استمرت ـ رغم ذلك ـ وازدادت عمقا .. ولقد أصبح تقديرها لاعمالها ، وادراكها الملىء بالعطف لاهدافه وجهوده ـ بعد أن اصبح يرقى سريعا الى مقدمة الصف الاول فى مهنته ـ قيمة فاقت لديه كل تقدير .. بل فاقت ما ظفر به اخيرا من اشارة كريمة نمت عن رضى ملكى !**

ولم يكن لجين شامبيون صديقات مخلصات من لداتها وطبقتها ، اذ ان عزلتها ـ فى صباها ـ ولدت فى طباعها صراحة بالغة نحو نفسها ونحو الآخرين ، مما أبعد الشقة بينها وبين ادراك ـ أو احتمال ـ المجاملات البسيطة التى يتطلبها الرياء الاجتماعى ، وتلك الهنات الصغيرة التى كانت من شيم بنات جنسها . أما النساء اللاتى حبتهن برقتها وعطفها ـ وكن كثيرات ـ فقد كن يبدين فى محضرها اعجابا ينم عن عرفان وتقدير ، ولكنهن كن يصمتن فى جبن اذا ما انتقدت فى غيبتها ! على أن أصدقاءها من الرجال كانوا كثرة ، لا سيما من الشبان الذين كانوا يدرسون فى الجامعة ، والذين اتخذتهم زملاء مقربين ..

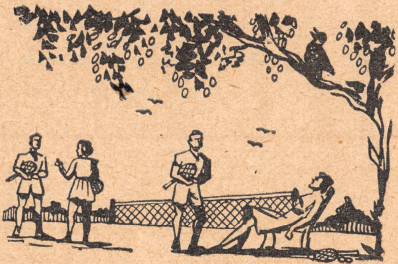
وكانوا فتية ظرفاء ، اعتادوا ان يكتبوا لها عن نوادر دراستهم ومرحهم فى أوقات فراغهم ما لم يكونوا يحلمون بأن يكتبوه الى أمهاتهم أنفسهن ! .. ولقد كانت تعلم ـ تمام العلم ـ انهم كانوا يطلقون عليها ، فيما بينهم : « جين العجوز » ، و « جين الحسناء » ، و « جين الحبيبة » ، ولكنها كانت توقن من خلو مزاحهم من الخبث ، وكانت تؤمن بصدق عواطفهم وقد بادلتهم ذلك ، صاعا بصاع !

ولقد تصادف ـ عند بدء حوادث هذه القصة ـ أن كانت « جين شامبيون » فى احدى زياراتها الطويلة لاوفردين ، وكانت تلعب الجولف مع شاب ـ ممن حبتهم بودها من زمن بعيد ـ عندما ذهبت الدوقة لتقتطف ورود حديقتها ، بعد ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف .. وكانت جين تعتقد ان الذى يقبل على لعب الجولف بشغف ، لا يمكن ان يعنى بانتقاد أو لوم .. وان اللعب مع شخص يعادلك فى الشغف ، لا يكون ممتعا اذا هو انصرف ـ طيلة الطريق الى الملعب ـ الى شرح كل دقيقة فى الطريقة التى أحرز بها كل هدف فى المباراة السابقة معك ، ثم انصرف ـ فى عودتكما ـ الى الحديث فى تفاخر عن الطريقة التى أحرز بها كل منكما كل هدف فى هذه المرة !

لذلك أحست « جين » بأن أصيل ذلك اليوم انقضى فى غير توفيق . غير أن الفتى « كاتكارات » ـ وهو الذى شاركها اللعب ـ عاد الى الحديث عن المباراة مرة أخرى ، الى نفر من خيرة الحضور ـ عندما اجتمع القوم فى غرفة التدخين ، فى ذلك المساء ـ ثم قال : « لقد كانت جين العجوز رائعة ! .. تصوروا طريقتها فى اللعب ، وتمكنها من ان تضع الكرة رقم ٧ فى الحفرة رقم ٣ ، دون ان تزهو بذلك ! .. لقد قررت ـ فى تصميم ـ ان لا أبعث بعد اليوم بباقات الزهور الى «توتو» .. ولست أتصور كيف يمكن ان نقضى ليالينا فى سهرات مع

الراقصات ، بعد ان قضيت تلك الفترة الجميلة فى اللعب مع الآنسة جين .. انها ترسل الكرات مثل الطلقات ، فاذا سددت ضربات عالية ، خيل اليك أن الكرة عصفور ينطلق فى الفضاء .. ولقد غلبتني فى ثلاث دورات ، دون ان تشير الى ذلك بشيء .. يا الهي ، ان المرء لا يجرؤ على أن يصافحها ان لم يكن طاهر الذيل .. أبيض الصفحات ! »

الفصل الثالث



• **أشارت** المزولة الى الرابعة والنصف ، فبدا ان ساعة السكينة قد انتهت ، وبدأت العصافير تشقشق ، وسمع صوت وقوق يتردد ـ بين حين وآخر ـ فى الغابة المجاورة .

ودبت الحركة فى الدار ، فانبعثت أصوات فتح الابواب وغلقها ، واسرع خادمان فى الزى الخاص بخدم آل «ميلدرام» ـ وكان يجمع بين لونى التوت والفضة ـ فاجتازا الشرفة وهما يحملان موائد الشاى التى راحا يضعانها امام المقاعد الخشبية المثبتة تحت شجرة الارز . ثم بادر احدهما بالعودة للدار ، وبقى الآخر ليكسو الموائد بأغطيتها البيضاء الناصعة . ومع هذه الحركة استيقظ الببغاء ، فبسط جناحيه وصفق بهما مرتين ، ثم اخذ يتهادى على أرجوحته فى صعود وهبوط ،

مسددا نظره نحو الخادم .. **وفجأة صاح به مقلدا صوت رئيس الخدم : « انتبه ! » . فقد رأى غطاء احدى الموائد يسقط فوق الحشائش . فصاح به الخادم : « أقفل فمك ! » .. ثم طوح بالغطاء نحوه – وهو ثائر – وارتد ينظر فى خوف الى حديقة الزهور ، حيث كانت الدوقة .. وصرخ الببغاء متحاشيا الغطاء : « ان تومى يريد قليلا من عنب الديب ! » .** ثم التوى على نفسه ، وتدلى الى اسفل ارجوحته . فأجابه الخادم فى خبث : « الا تحب أن تحصل على بغيتك ؟ » . ورد الببغاء مقلدا صوت الدوقة : « ليعطه احدكم ما يريد ! » . وبهت الخادم ، ثم التفت وراءه – الى حيث كانت الدوقة – وأخذ يمطر الببغاء بسرعة وابلا من اللعنات ، ثم صفعه وأسرع الى الدار ، تتبعه قهقهة « تومى » ، ممتزجة بوابل من الزجر والسباب ، الذى انطلق من الببغاء غضبا مما لحقه من اهانة ، وقد راح يرتفع ويهبط على ارجوحته ، حتى غاب الخادم عن نظره .

وبعد مضى دقائق ، زخرت موائد الشاى بشتى أصناف الحلوى والفطائر وغيرها من المأكولات التى تعتبر ضرورية مع الشاى – فى الاصيل – فى انجلترا .. ولمعت الاوانى الفضية فوق مائدة التحضير – حيث وقف رئيس الخدم يشرف على العمل – وقد امتلأت بالفطائر والخبز المقدد ، والكعك ، وكافة أنواع الشطائر التى تصحب قطع الخبز – الابيض والاسود – المكسوة بالزبد .. بينما كانت الصحاف الملأى بالفراولة ، تضفى ظلا فنيا بديعا على اللونين الابيض والفضى . وما ان تم اعداد الموائد ، حتى رفع رئيس الخدم يده وقرع ناقوسا صينيا أثريا معلقا فى شجرة الارز . وقبل أن يتلاشى رنين دقاته ، سمعت أصوات فى كافة ارجاء المكان .. ومن ناحية النهر ، ومن ملاعب التنس ، ومن الدار والحديقة أقبل ضيوف الدوقة مغتبطين لمرأى موائد الشاى وما حوته ،

وأسرعوا الى ظل شجرة الارز المنعشة : **من نساء فاتنات فى ملابس بيضاء يحمين بشراتهن فى حرص وعناية ، تحت قبعات كبيرة او مظلات أنيقة .. وفتيات مرحات ضـــحين بلون بشراتهن ـ من زمن طويل ـ لقاء الراحة والمتعة ، وأقبلن فوق الحشائش حاسرات الرؤوس ، يطوحن بمضـارب الكرات ، وهن يتناقشن فى المباراة الاخيرة الحـامية .. ومن رجال فى ملابس صوفية بيضاء ، لوحت الشمس وجوههم فبدوا أكثر بهاء ، وقد أقبلوا يتكلمون ويضحكون ، مطرين ألعاب زميلاتهم وهم يحرصون على الصمت عن ألعابهم فى أدب وتواضع !**

وكان منظرهم مبهجا ، وقد تجمعوا تحت ظل الشـــجرة الباسقة ، وقد اضطجع بعضهم فى المقاعد الخيزرانية ، واستلقى بعض آخر على الحشائش الملساء ، وأخذوا جميعا فى تنـاول ما يشتهون .. وعندما اكتفوا من الشاى والقهوة والمثلجات ، عادوا الى الضوضاء والهرج .. فقال أحدهم : « اذن فستصل الليلة الفرقة الموسيقية التى استقدمتها الدوقة ! » . وقال آخر : « كم كنت أود لو انهم علقوا بهـــذه الاشجار بعض المصابيح الصينية ، وأقاموا الحفلة هنا ـ فى الهواء الطلق ـ فاننى لا أطيق الزحام داخل الدار ! » . فأجابه جارث دالمين : « حسنا .. اننى منظم الحفلة ـ كما تعلم ـ واعدك بأن جميع الابواب المتصلة بالشرفة ستفتح على مصاريعها ، ومن ثم فلن يضطر احد الى البقاء فى غرفة الموسيقى ، ليتسنى لمن يرغب البقاء خارجا ان لا يحرم من الاستمتاع اذا أراد أن يبقى فى الخارج ، وسيكون ثمة صف من المقاعد المريحة عـــلى طول الشرفة ، بجوار النوافذ .. وقد لا ترى كثيرا مما يجرى ، ولكنك ستسمع كل شىء تماما ! »

فصاحت احدى لاعبات التنس : « ولكن المشـــاهدة نصف المتعة .. والذين يبقون فى الشرفة ، ستضيع عليهم مشاهدة أجمل ما فى الحفلة عندما تقلد الدوقة العزيزة كل شخص من

الحاضرين .. اننى لا ابالي بالحر فى الداخل ، وارجو ان تحجز لى مكانا فى الصف الاول ! »

وهنا تدخلت الليدى « انجلبى » ـ وكانت قد وصلت الى القصر ظهرا ـ فقالت : « من الذى سيكون عنصر المفاجأة الليلة ! » . فأجابتها مارى ستراتن : « انها فيلما ، فسوف تفد لتقضى عطلة الاسبوع ، وسيكون فى ذلك متعة كبرى لنا جميعا .. ما كان بوسع أحد ان يدبر مقدم « فيلما » سوى الدوقة » ، وما كان لمكان أن يغريها بالحضور سوى (أوفردين) .. ولسوف تغنى أغنية واحدة مع الفرقة الموسيقية ، بيد أننى على تمام الثقة من انها ستنساق بعد ذلك وتشنف مسامعنا بالكثير من أغانيها .. وسنقنع « جين » بأن تعزف على « البيانو » ـ بين حين وآخر ـ بعض افتتاحيات القطع المفضلة لدى « فيلما » ، فسرعان ما نسمع صوتها السحرى ، اذ أنها لا تقوى على مقاومة الغناء مع العزف الرائع ! »

واذا بفتاة ـ كانت قد دعيت للمرة الاولى الى « أفضل حفلات » الدوقة ـ تقول : « ولماذا تلقب السيدة فيلما بعنصر المفاجأة ؟ » . فأجابتها ليدى انجلبى : « انها احدى فكاهات الدوقة يا عزيزتى .. فان الفرقة الموسيقية قد استقدمت لتشنيف أسماع ضيوف الحفلة ، وتكريما وتحية لكبار المدعوين من أهل هذه المنطقة . فان علية القوم من البلاد المجاورة قد دعوا . وليس مفروضا على أحد منكم ان يقوم بأى دور ، ولكن مشاهير الجيرة مطالبون بذلك ، فهم ـ فى الواقع ـ يشتركون فى البرنامج بأسره ، امعانا فى اللهو ، وارضاء لاصدقائهم واقاربهم .. **اما تسليتنا نحن فستكون بعد ذلك ، حين تعقد الدوقة اجتماعا لنا لمراجعة كل ما جرى، طالبة ابداء الملاحظات والتعليقات ونقد الشخصيات** . أتذكر يا « دال » عندما شبكت الدوقة ورقة بيضاء من أوراق الكتابة فى الثوب الذى ارتدته على مائدة الشاى ، وجعلتها على

شكل طوق كلب ، حتى اذا رفعت أسقف الكنيسة العليا ، اضطرته الى أن يغنى بانفعال احدى الاغانى الهزلية ؟.. وفى نهاية السهرة تماما ، تنتقد من أدوا ادوارا – متجاوزة فى ذلك عن « فيلما » او من يعادلها من الفنانين المبدعين – وتبين كيف كان ينبغى أن يكون الاداء . والحق أن فى بعض انتقاداتها نفعا للهواة . وفجأة ، يمتلأ جو المكان بالموسيقى ، ويسود الحضور سكون عميق .. ثم يتضح للهواة – الذين دفعتهم الدوقة الى العزف او الغناء – بأن الضوضاء التى كانوا يقومون بها ، ليست من الموسيقى الصحيحة فى شىء ، فينصرفون الى دورهم واجمين . ولكنهم لا يلبثون ان ينسوا كل شىء فى العام التالى ، أو تخلفهم ثلة جديدة من الهواة الراغبين فى المساهمة .. وهكذا تنجح دعابات الدوقة دائما ! »

وعند ذلك تدخل « ردنالد انجرام » قائلا : **« ان النبيلة جين شامبيون لا تقر هذه المهازل ، ومن ثم فانها تتلقى عادة نصحا بأن تبكر فى زيارتها ، قبل المناسبة . ولكن احدا لا يستطيع ان يجيد العزف – عندما تغنى « فيلما » – مثلها ، ومن ثم فقد صدر الامر الى جين بالبقاء فى هذه المرة .** ولكنى أشك فى أن « عنصر المفاجأة » سيكون عظيم الوقع كالعهد به ، ومن المؤكد ان اللهو سيكون فاترا فى هذه الليلة ، فان النبيلة « جين » معروفة بتمردها على الدوقة فى مثل هذه الاحوال . وهى فى مأمن من تحمل اسوأ العواقب فى حينها ، غير ان أثرها فى كبح هذه النزوات عظيم جدا فيما بعد ! »

فقالت فتاة امريكية وضاءة الجبين ، فى جرأة ، وهى تتناول الفراولة المثلجة بملعقة ذهبية قدمها لها جارث دالمين ، فقالت : « اننى اعتقد ان الآنسة شامبيون على حق .. فنحن نعتبر – فى بلادنا – ان من الخسة ان نضحك من قوم كانوا ضيوفا علينا ، وقاموا ببعض الهوايات الفنية فى بيوتنا ! » **فأجابتها ميرا أنجلبى قائلة : « ليس فى بلادكم دوقات يا عزيزتى ! » .**

وكان رد الفتاة الامريكية ان قالت فى هدوء ، وهى تعود الى تناول الفاكهة المثلجة : « ولكننا نمدكم بنفر منهن ! » .. وأعقب ذلك ضحك شديد ، ثم اصبح الجدل بين الانجليزية والامريكية موضوع حديث الجميع .

وما لبث احد الحاضرين ان تساءل قائلا : « اين النبيلة جين ؟ »

فأجاب رونالد انجرام : « أنها تلعب الجولف مع بيللى .. آه ، ها هما عائدان ! »

* * *

• ولاحت « جين » بقامتها الممشوقة ــ قادمة على الشرفة ، يصحبها « بيللى كاتكارت » ، الذى راح يتحدث اليها باهتمام . وبعد ان وضعا عصا الجولف فى البهو الصغير ، اقبلا معا على موائد الشاى .. وكانت جين مرتدية معطفا وثوبا من « التويد » الرمادى ، وقميصا خفيفا ــ مخططا باللونين الابيض والازرق ــ وياقة وكمين منشاة ، وملفحة حريرية ، وقبعة من اللباد الناعم علتها بعض ريشات سود .. وكان فى مشيتها ليونة واتزان ، وفى خطواتها ما يشعر بقوة بدنية وجسم محكم الحركات .. كان مظهرها اجمالا يختلف اختلافا عجيبا عن كل النساء الجميلات المجتمعات تحت شجرة الارز . غير أنها ــ مع كل ذلك ــ كانت لها أنوثتها ، وبعبارة ادق : لم تكن مسترجلة ، اذا سلمنا بأن كل شىء قوى يعزى الى الذكور ــ وان المراة التى تقلد مظهر القوة ــ دون ان تملك من القوة شيئا ــ مسترجلة .. بل أن « جين » كانت ذات أنوثة صادقة ، تتبدى فى اقدامها على أن ترتدى ثيابا بسيطة كانت تتمشى ــ فى تناسق يستدعى الاعجاب ــ مع بساطة قسماتها وامتلاء جسمها . ودلفت الى وسط الحلقة المجتمعة تحت شجرة الارز ، واحتلت أحد المقاعد التى اخلاها لها الرجال دون تكلف

او اعتداد بالنفس .. الامر الذى كان من أبرز صفاتها الشخصية دائما .

وبدأ احدالحاضرين الحديث قائلا لها : «فى أى شىء قدتفوقت يا آنسة شامبيون ؟ » .. واذ كان للتعبير الذى استخدمه فى مقابل « تفوقت » استعمال مجازى بمعنى « ارتديت » ، فقد قالت متهربة : « فى ملابسى المعتادة .. ! » . فقاطعها بيللى صائحا : « لقد تفوقت .. » ولكن جين قاطعته قائلة : « بيللى ، أرجو ان تصمت .. انت تعلم انك وانا المتهوسان الوحيدان فى الشغف بالجولف .. وأكثر اصدقائنا الموجودين يجهلون فنون اللعبة ، ولا يدرون ما يدفعنا الى المباهاة والتفاخر اذا تغلبنا على أى لاعب .. أين عمتى الدوقة ؟ .. لقد كان سيمونز المسكين يهرول فى كل مكان ـ عندما دخلنا القصر لنودع عصى اللعب ـ وكان يبحث عنها ليسلمها برقية .. فقالت ميرا : « ولم لم تفضى البرقية ؟ » . فأجابتها جين : **« لان عمتى لا تسمح لاحد بأن يفض برقياتها .. انها تحب المفاجآت المثيرة ، ومن المحتمل دائما ان تحمل اية برقية أنباء مثيرة . وهى تقول دائما ان المفاجأة تفقد لذتها اذا سبقها اى امرىء الى الاطلاع على البرقية ، ليبلغها فحواها فى لهجة هادئة رقيقة ! »**

وهنا صاح « جارث دالمين » ، الذى كان يجلس مواجها لمدخل حديقة الزهور : « ها هى ذى الدوقة قد حضرت ! » . فقالت « جين » فى تحذير : « لا تذكروا البرقية ، فلن يسرها ان تعلم بأننى سبقتها الى العلم بمجرد وصولها .. ومن المخجل ان نحرمها لذة اقتطاف ثمرة اللذة غير المرتقبة ، التى تتمثل فى وصول البرقية فى مثل هذا اليوم القائظ ، الذى لا يبدو ان من المنتظر أن يحدث فيه امر غير عادى ! »

وعند ذلك التقوا جميعا ، وراحو يرقبون الدوقة وهى تخب فى مشيتها نحو المرج .. يا لهذه العجوز العجيبة الاطوار ،

التى جمعت بينهم جميعا فى هذا الحفل ، والتى كانت تمتلك الدار الجميلة التى كانوا يقضون بها هــذه الايام المتعة ، والتى كانت نزواتها العجيبة موضوع حديثهم وهم يشربون الشاى ويستمرئون فراولتها ! .. ونهض الرجال - عند وصولها - ولكن .. فى غير انتفاض وتحمس كما فعلوا لدى وصول الآنسة جين ! وكانت الدوقة تحمل سلة خشبية كبيرة، امتلأت الى قمتها بالورد والزهور البديعة النادرة .. كانت كل زهرة مثالا لكمال الزهور ، وقد اقتطفت فى أوج ازدهارها تماما !

الفصل الرابع



• **أفرغت** الدوقة سلتها فوق مائدة الفراولة ، وقالت لاهثة : « اليكم ايها الناس الطيبون .. خذوا ما يروق لكم ، فانى اود ان اراكم جميعا الليلة مزينين بالورد .. ستكون قاعة الموسيقى مجمعا للورد ، وسنطلق على حفلة الليلة : « عيد الورد » .. كلا يا رونى ، هذا الشاى قد مضى عليه نحو نصف ساعة على الاقل ، وخليق بك أن تكون أكثر حبا لى من أن تدفعنى الى شربه. ثم اننى لا أميل الى شرب الشاى ، قبل أن اتناول كأسا من الويسكى والصودا - عند استيقاظى من اغفاءة القيلولة - وهو كاف لان ينعشنى حتى ميعاد العشاء ..

آه يا عزيزتي ميرا ، أذكر انني حضرت اجتماعكم الطريف ، ووقعت ذلك الميثاق البديع : « لنشجع الآخرين ! » ، غير انني ذهبت الى الطبيب مباشرة ، عقب خروجي من داركم ، وقد منحني ترخيصا يبيح لى أن أقول : « لا بد » ، بشأن أى شيء احس بالحاجة اليه .. واني لاحتاج دائما الى كأس من الويسكي بعد غفوة الظهيرة .. حقا يا « دال » ، انه من أخبث الرذائل ، لاى رجل - بعد استثناء رجال المسرح - ان يظهر فى مثل بهائك وانت فى قميصك البنفسجي الباهت ، وربطة عنقك البنفسجية القاتمة ، وهذه الحلة من الصوف الأبيض الخفيف .. **ولو انني كنت جدتك ، لارسلتك الى حجرتك لتستبدلها .. واذا كنت بذلك تدير رؤوس العجائز من أمثالي ، فما بالك بهؤلاء الفتيات اليافعات ؟ !** اصمت ياتومي ، ان ما تقوله غير لائق ، وليس لك ان تغار من « دال » ، وثق بأنني شغوفة بك اكثر مني به ! .. دال ، هل لك ان ترسم ببغائي الاحمر ؟ ! »

أما الرسام الشاب النابه ، الذى عرضت لوحاته فى معرض الفنون فى ذلك العام فأثارت كثيرا من الاهتمام فى الاوساط الفنية ، والذى استحق قميصه البنفسجي كل هذا الانتقاد ، فقد اضطجع فى مقعده المريح وعقد يديه خلف رأسه ، وابرقت عيناه العسليتان سرورا ، وقال للدوقة : « لا ، أيتها الدوقة العزيزة .. ارجو - بكل احترام - اعفائى من هذه المهمة ، فان تومى بحاجة الى أحد كبار هواة الطيور ، ليقدر ميوله وشخصيته تقديرا عادلا ، فضلا عن أنه من دواعى الافساد لشاب برىء ، طيب التربية مثلى - كما تعلمين - أن يقضى ساعات طويلة فى رفقة « تومى » ، منصتا الى ما يوجهه هذا الطائر اللطيف من ملاحظات وكلمات ، وأنا عاكف على رسمه .. ولكنى أصارحك بما سوف أفعله ! .. **سأصورك أنت يا سيدتى الدوقة ، ولكن فى غير هذه القبعة ، لان أية قبعة من القش ذات أشرطة سوداء**

تلتف تحت الذقن ، تبعث السـقام الى نفسى .. ولو أننى استسلمت لشعورى الطبيعى الآن ، لخبأت وجهى فى حجر الآنسة شامبيون ، وركلت الهواء بقدمى ، ورحت أصرخ حتى تخلعى عنك هذه القبعة ! .. اننى على استعداد لان أصورك وأنت فى ثوبك المخمل الاسود ، الذى كنت ترتدينه ليلة الامس ، مع ياقة من طراز « مديشى » ، ومع « الدانتـلا » الفاخرة والجواهر تتوج راسك .. ولتمسكى فى يدك مرآة بلورية قديمة ، ذات اطار فضى !

وكان الرسام يسبل جفنيه ، بينما سيطر الصمت على الجمع المرح المحيط به ، وهو يصف الصورة بصوت ملىء بالموسيقى والغموض . فقد اعتاد الناس أن يتمثلو الصور اذا ما وصفها « جارث دالمين » وكأنهم يرونها رأى العين ، حتى أنهم ليقولون – عند زيارتهم لمعهد الفنون ، أو للمعرض الجديد – فى العام التالى للوصف : « أه ، ها هى ذى لوحة دالمين . . تماما كما تمثلناها يوم وصفها ، قبل أن يخط بريشته خطا واحدا منها ! »

واستأنف دال – كما كانوا يدللونه – وصفه قائلا : **« ستمسكين المرآة بيدك اليسرى ، دون أن تلقى نظرك عليها ، لانك لا تنظرين اطلاقا الى أية مرآة يا عزيزتى الدوقة ، اللهم الا حين تودين أن تتأكدى مما اذا كان تقريعك لخادمتك – وهى تقف خلفك – قد أبكاها ، ومما اذا كان هـذا هو السبب فى ارتباكها وهى تناولك الدبابيس والاشياء الاخرى ..** فان صح حدسك ، سارعت الى تهدئة خاطرها بأن تعديها بأن تعفيها من العمل يوما تزور فيه أمها العجوز ، وتنقديها أجر الذهاب والعودة . . أم اذا لم يظهر عليها أثر البكاء ، فانك تضاعفين جرعة الزجر والتقريع . ولو كنت فى مكان الخادمة لاستمر بكائى بدموع ثقال لتنعكس على صفحة المرآة دون ما شهيق لان ذلك يذكى أوار غضبك . . ولا بد أن أحذر كل الحذر أن تتساقط دموعى فوق عنقك ! » . . وهنا قالت له الدوقة : « دال ، أيها الطفل

المهزار .. دع خادماتى ورقبتى ودموع التماسيح ، وامض فى وصف الصورة التى ترغب أن ترسمها لى .. ما الذى أفعله بالمرآة ؟ »

فاستأنف جارث دالمين حديثه وهو غارق فى التفكير : « لن تنظرى الى المرآة ، لاننا نعلم جميعا أن هذا أمر لا تفعلينه قط .. حتى حين ترتدين هذه القبعة وتعقدين الاشرطة ــ وهنا أرجو الآنسة شامبيون أن تمسك بيدى ــ فى أنشوطة تحت ذقنك .. حتى فى هذه الحالة ، لا تنظرين الى مرآتك .. ولكنك ستجلسين والمرآة فى يدك اليسرى ، ومرفقك مستند الى مائدة شرقية من الابنوس الاسود المطعم بالعاج .. **ثم تديرين المرآة لتعكس شيئا امامك مباشرة ، خارج نطاق الصورة .. ستظهرين وأنت تتاملين هذا الشىء فى حنان علوى .. وعلى صفحة المرآة ، سأرسم صورة كاملة مصغرة ــ بألوان حية ، زاهية ــ لببغائك الاحمر فوق ارجوحته . وسنطلق على الصورة اسم « انعكاسات »** .. لان المتبع أن يطلق الانسان على الصور عناوين حديثة ، مبتكرة ، تافهة ، وقد أصبح الشائع الآن ، أن يكون العنوان من كلمة واحدة ، غير معبرة ، اللهم الا اذا شعرت بالحاجة الى اجتذاب أنظار الجماهير ــ فى قائمة المعروضات ــ بأن تطلقى على صورتك عنوانا يتألف من عشرين بيتا من شعر تينسون .. ولكن عندما تنتقل الصورة الى الاجيال التالية ، كتحفة من تراث الاجداد ، سيطلق عليها فى قائمة المعرض القومى اسم : **« الدوقة والمرآة والببغاء ! ... »**

وهنا هللت الدوقة فى سرور بالغ : « مرحى ! .. لسوف ترسمها فى ميعاد يتيسر فيه عرضها فى المعرض الفنى للسنة المقبلة ، وسنذهب جميعا لرؤيتها ! »

وقد فعل ، وذهبوا جميعا لرؤيتها ، وصاحوا جميعا بصوت

واحد ـ حين أبصروها : « هى تماما ! .. كما رأيناها بمخيلتنا تحت شجرة الإرز فى أوفردين ! »

* * *

• **وما لبثت** الدوقة أن صاحت : « ها هو ذا سيمونز يحضر شيئا على طبق .. ما أشد ما يتلكأ هذا الرجل ، أما من ناصح له بأن يسرع الخطى ! .. جين ، انك تقفزين فوق هذه الحشائش كما يفعل قاذف القنابل اليدوية ، فهلا شرحت لسيمونز كيف يسير مثلك ؟ .. حسنا ، ماذا معك ؟ آه ، برقية ؟! ترى أى حادث فظيع قد وقع ؟.. من منكم يخمن .. أرجو أن لا يقتصر الامر على أن أحد الاغنياء قد فاته القطار !»

وبين صمت وسكون وانقطاع أنفاس الحاضرين فضت الدوقة الغلاف البرتقالى، فبدا للجميع أن المفاجأة كانت قوية وليست موضوعا للفكاهة ، لان وجه الدوقة ـ الذى كان بطبيعته أحمر البشرة ـ أصبح أرجوانيا ، وقد بدل الاستنكار ملامحه تماما . وهنا قامت « جين » فى هدوء ، فنظرت من خلف عمتها ، وتلت البرقية الطويلة ، ثم عادت الى مقعدها .

وصاحت الدوقة ، أخيرا : « مخلوقة ! يا لها من مخلوقة !.. هذا جزاء أن ندعوهم أصدقاء ! لقد كنت معتزمة أن أقدم لها عقدا من اللآلىء ، يفرق فى قيمته ما قد يقدم لها من اجر عن أغنية واحدة .. وها هى ذى تتخلى فى اللحظة الاخيرة . آه ، يا لها من مخلوقة ! » .. وهنا تدخلت جين قائلة : « اذا كانت « فيلما » المسكينة قد أصيبت فجأة بالتهاب الحنجرة ، يا عمتى العزيزة ، فمن الطبيعى أن لا تقوى على الغناء ، ولو أمرتها الملكة ! .. وان برقيتها لتفيض أسفا واعتذارا ! »

فصاحت بها الدوقة غاضبة : « لا تجادلى يا جين ، ولا تقحمى اسم الملكة فى المناقشة ، فليس للملكة علاقة بحفلتى او بحنجرة فيلما ! .. أنك لتعلمين كيف أمقت الامور غير

اللائقة ! .. لماذا تصاب بالمرض ـ الذى تذكرين اسمه ـ فى عين الوقت الذى كانت قادمة فيه لتغنى فى حفلتى ؟.. ما كان الناس ـ فى أيام صباى ـ يشكون هذه العلل الحديثة .. اننى لا أطيق هذه الزائدة الدودية التى تؤدى الى فتح بطون الناس لاتفه حجة .. لقد كنا ـ فى أيام شبابنا ـ ندعوها بالالم المعدى، وكنا نعالجها بأعشاب تركية ! »

وأخفت «ميرا انجلبى» وجهها خلف قبعتها الواسعة ، بينما همس « جارث دالمين » فى اذن « جين » مقلدا الدوقة : « انك لتعلمين كيف أمقت الامور غير اللائقة ! » . فهزت جين راسها له ، وأبت أن تبتسم !

وصاح تومى ، أثناء هذا النقاش : « تومى يريد قليلا من عنب الديب ! » . اذ استرعى سمعه ذكر الاعشاب التركية . فنادت الدوقة فى ضـــيق : « ليعطه أحدكم ما يريد ! » . فأجابتها جين: « لا يوجد شىء من عنب الديب ياعمتى العزيزة!» فثارت الدوقة ، وصـــاحت فى وجهها : « لا تناقشينى أيتها الفتاة ! » . وعقب «جارث» متبسطا ، وهو يهز رأسه لجين : « اذا قال تومى « عنب الديب » ، فهو يقصد أى شىء أخضر ، وأنت تعلمين ذلك كل العلم ! »

وهنا سارع عدد من الحضور الى الببغاء بخس وجرجير وخيار ، بينما التقط « جارث » عودا من الحشيش ، وأعطاه لجين مبديا لهفة واهتماما ، ولكن جين تجاهلت أمره !

وقالت الدوقة أخيرا : « ان البرقية لا تتطلب ردا يا سيمونز، فلم لا تذهب ؟ .. أواه من بطء هذا الرجل ، ليعلمه أحدكم كيف يمشى ! .. ولنعد الآن للموضوع : ماذا نحن فاعلون ؟ . أن نصف اهل المقاطعة قادمون لسماع « فيلما » ـ بناء على دعوتى ـ و « فيلما » فى لندن ، تزعم أنها مصابة بالتهاب فى الزائدة الدودية .. كلا ، أقصد المرض الآخر .. أواه ، سحقا لتلك المرأة ، كما يقول تومى ! » .. فصاح بها تومى : « اقفلى

فمك ! » . فابتسمت الدوقة ، وجلست صامتة ! .. وهنا قال «جارث» ، فى تلطف بالغ : **« ولكن أهل المقاطعة لا يعرفون ان مدام « فيلما » كانت قادمة ، أيتها الدوقة العزيزة .. لقد كان الامر سرا مكتوما ، وكنت تعتزمين أن تفاجئى الحضور بها فى النهاية . وقد وصفتها ليدى أنجلبى بأنها « عنصر المفاجأة » الذى أعددته ! » .**

وأطلت «ميرا» برأسها من وراء القبعة ، فأشارت لها الدوقة برأسها ، وقالت : « هذا حقيقى .. لقد كان دورها أبدع ما فى الحفلة .. يا للمخلوقة ! » . وقال « جارث » ، وهو يحاول اقناعها : « لكن يا دوقتى العزيزة .. ان أهل المقاطعة لن يشعروا باستياء ، ما داموا لا يعلمون بأمرها .. انهم سيحضرون ليسمع بعضهم البعض ، وليتذوقوا شرابك ومثلجاتك .. وهذا ما سوف يتاح لهم ، ثم ينصرفون مغتبطين ، متغنين بمهارة الدوقة العزيزة فى اكتشاف ذوى المواهب من أبناء المقاطعة ! » .

وأومضت عينا الصقر ــ اللتان أوتيتهما الدوقة ــ وارتفع أنفها المقصوف ، وقالت : « ها ، ها ! .. غير أنهم سينصرفون قانعين بغرورهم ، راضين أتم الرضى عما قاموا به من غناء تافه . فى حين أن فكرتى ترمى الى أن نتركهم يقومون بأدوارهم ، ثم نشرح لهم عيوبها وصحتها وكيفية أدائها ! » . فقالت « جين » مترفقة : « يبدو أنك نسيت ــ يا عمتى جينا ــ أن أغلب أولئك القوم قد زاروا المدينة ، وسمعوا كثيرا من الموسيقى السليمة ، بل وسمعوا ــ فى الغالب ــ مدام «فيلما» ذاتها ، وكل المغنين المشهورين . وهم يوقنون من أنهم لا يجيدون الغناء كما تجيده مطربة الاوبرا ، ولكنهم يبذلون قصارى ما تتيحه لهم الهواية ، لانك تطلبين اليهم ذلك .. ولست أراهم فى حاجة لان يتلقوا درسا ! » فصاحت بها الدوقة : « جين ، للمرة

الثالثة — فى هذا الاصيل — اضطر الى ان أطلب منك أن لا تجادلى ! » .

وقال جارث دالمين : « لو أننى كنت جدتك — يا آنســة شامبيون — لارسلتك فورا الى فراشك ! » . فعادت الدوقة تردد : **« والآن ، ماذا نحن فاعلون ؟ .. لقـد كان مقررا أن تغنى مدام فيلما أغنية « المسبحة » ، وكنت أنتظر ذلك من كل قلبى .. وقد صممت زينات قاعة الموسيقى بأسرها ، لتتمشى مع الأغنية ، فتألفت من عقود من الورد الابيض ، وصليب احمر كبير خلف المنصة ، صنع من الورد الارجوانى .. جين ! »** . فبادرت الفتاة : « نعم يا عمتى! » . ولكن الدوقة قالت بضيق : « اف ! لا تقولى « نعم يا عمتى » بهذه اللهجة الجوفاء ! .. أليس لديك اقتراح أو رأى ؟ » . فهتف الببغاء فجأة : « سحقا لهذه المرأة ! » .

وارتد الابتهاج الى الدوقة ، فصاحت : « الا اصغوا لهــذا الطائر المحبوب .. ليعطه أحدكم ثمرة من الفراولة ! .. والآن يا جين ، ماذا تقترحين ؟ »

* * *

• **وكانت** « جين » تجلس ، وظهــرها العريض متجه — بانحراف — نحو عمتها ، واحدى ركبتيها فوق الاخرى ، وقد



اشتبكت يداها الكبيرتان حولهما . فرفعت يديها ، واستدارت قليلا ، ثم نظرت الى عينى عمتها الحادتين ، اللتين كانتا ترمقانها من تحت قبعتها .. واذ قرأت فيهما مزيج اللوم والرجاء ، اشرق وجهها بابتسامة ، وصمتت برهة لتتأكد من معنى كلمات الدوقة ، ثم قالت فى هدوء : **« سأغنى لك أغنية « المسبحة » - الليلة - بدلا من « فيلما » .. اذا كنت راغبة فى ذلك حقا يا عمتى ! »**

ولو ان الجالسين فى ظلال شجرة الارز كانوا من عامة الناس لشهقوا ، ولو انهم كانوا من رواد « الحفلات العامة » لارتفعت أصواتهم فى دهشة وعجب .. اما وهم من مدعوى « أفضل الحفلات » ، فان احدا منهم لم يحر حراكا ، وانما ساد الجو شعور من الدهشة المكبوتة فى اذهانهم . وكانت الدوقة هى الوحيدة بين الحضور ، التى سمعت جين تغنى - من قبل - فقالت لها وهى تهب من مكانها وتلتقط البرقية وسلة الزهور : « وهل الاغنية معك ؟ » .. فأجابتها جين : **« نعم ، هى معى . فلقد قضيت بضع ساعات مع السيدة بلانش ، عندما كنت فى المدينة ، فى الشهر الماضى .. ولقد بهرتها الاغنية - وهى التى نادرا ما تعجب بهذه الاغانى الحديثة - الى حد أنها غنتها ، وسمحت لى بأن أعزف موسيقاها أثناء الغناء .. وقد قضينا فى الاغنية نحو ساعة ، ثم حصلت منها على نسخة ! »** .. فقالت لها الدوقة : « حسنا .. سأعتمد عليك ، اذن . والآن ارى لزاما على ان أبعث ببرقية رقيقة الى « فيلما » المسكينة ، التى ينهشها القلق ولا بد ، لتخلفها عن الحضور .. فالى اللقاء يا أصدقاء ، واذكروا اننا سنتناول طعام العشاء فى الثامنة تماما . كما ان الموسيقى ستبدأ فى تمام التاسعة .. هيا يا رونى ، تلطف واحمل « تومى » عنى الى البهو ، لانه سيملأ الدنيا صياحا اذا رآنى انصرف بدونه . يا له من طائر وفى ، هذا العزيز ! »

وساد الصمت تحت شجرة الارز .. واتجهت الانظار نحو « رونالد » وهو يحمل الببغاء وارجوحته على امتداد ذراعه ، بينما راح « تومى » يترنح ويرقص فوق ارجوحته ، ليحتفظ بتوازنه بمهارة .. فكان يتسلق الارجوحة حينا ، ويقترب من رونى حينا آخر ، وكانه يود ان يهمس فى أذنه ببعض الاسرار .. اما رونالد فقد تجلى عليه الوجل والاضطراب ، بينما سارت الدوقة فى المقدمة وهى راضية غاية الرضى من سير الامور ومجرى الحوادث .

وأخذ واحد او اثنان من الحضور يراقبان « جين » . ثم قالت لها ميرا انجلبى اخيرا : « انها لشجاعة منك ، وكم كنت أود أن أزاملك على « البيانو » يا عزيزتى ، غير اننى لا أجيد سوى قطعتين ، هما : « فى ضوء القمر » ، و « ثلاثة فئران عمياء » .. وانى لاعزفهما بأصبع واحدة فقط ! » . وقال جارث دالمين : « وانا على استعداد لملازمتك على البيانو يا عزيزتى جين ، لو انك انشدت « اليرسيلين » — مقطوعة لاسن — لاننى اجيد عزفها باصابعى العشر .. وانها لدراسة ان تسمعوا الطريقة التى أبرز بها رنين اجراس كنيسةالمقبرة، خلال الاغنية .. ان المسكين الذى كان يحمل باقة الخلنج ، لم يجد مهربا من هذا الرنين طيلة الاغنية ! » . ثم أخذ جارث يشرح دقائق اللحن ونقطه الفنية ، وكيف يظل رنين الاجراس مدويا — فى الحاح — طيلة الاغنية .. واردف قائلا : « ولكننى سمعت اغنية « المسبحة » ، ولست أجرؤ على عزفها ، اذ ان على العازف ان يمس كل مفاتيح الخفض — فى البداية — وقبل ان تستغرق ، يجب ان تكون محتفظا بطائفة من النغمات الحادة وغير الحادة ، لاتفلتها خشية ان تحتاج اليها فى اللحظة التالية .. لا ، مع الاسف ! اننى أزاء مزاملتك فى اغنية « المسبحة » ، أقول ما قاله الفلاح الكهل — فى الحفلة التى اقامتها الدوقة لمستأجرى اراضيها — عندما أرادت أن تقدم

له من الحلوى للمرة الثالثة ـ « لا اقدر ، يا مولاتى » ! . . »

فقالت جين : « لا تكن مهزارا يا دال ، فان فى وسعك ملازمتى فى « المسبحة » على ابدع منوال ، لو اننى اردتك على ذلك . ولكنى افضل أن أعزفها بنفسى ! » . وقالت ليدى أنجلبى فى عطف ظاهر : « اننى افهم ذلك تماما ، فان من المريح أثناء الغناء ان تعرفى ان بوسعك ـ اذا لاح أن ثمة خطأ ـ ان تتوقفى عن الغناء او عن العزف ، ثم تلائمى بين الاثنين ! » . وهنا نظر كل من الاثنين اللذين كانا يجيدان الموسيقى الى الآخر ، واومضت أعينهما ، ثم قالت جين : « انها ميزة نافعة ـ بلا ريب ـ اذا دعت الضرورة ! » . فقال جارث : « اننى على استعداد لان اتوقف عن العزف ، لالائم بين النغم وصوتك ! » . وأجابته جين : « اننى واثقة من ذلك ، فانت دائما كريم ، ولكننى افضل أن اتولى الغناء والعزف معا ! » . فرد فى قلق : « لسوف تتبينين ان من العسير ان تصلى بصوتك الى جنبات مكان بهذا الاتساع ، ما لم تقفى وتواجهى الحضور ! »

كانت « جين » أثيرة لديه ، وكان ـ كرجل ـ يكره ان تخفق صديقته فى شىء امام الملأ . . واشرقت فى عينى «جين» ابتسامتها الهادئة ، ثم انحدرت الى شفتيها . تماما كما حدث حين أدركت رغبة عمتها فى أن تتطوع لتحل محل « فيلما» . ثم نظرت حولها فاذا أغلبية الحاضرين قد تفرقوا الى جماعات صغيرة ، واتجه كل اثنين أو ثلاثة منهم الى ناحية . . فمنهم من ولجوا الدار ، ومنهم من ساروا الى النهر . . وبقيت «جين» مع «دال» و « ميرا » . وكانت عيناها الهادئتان تشعان سرورا عندما تبينتا النظرة القلقة فى عينى جارث ، ثم قالت : « نعم انى اعلم ما تقصد ، ولكن أجهزة الصوت فى القاعة على اتم استعداد ، وقد تعلمت كيف ألقى بصوتى وأوزعه . .

وقد لا تعلم ـ وانى لك ان تعلم ، فى الواقع ! ـ اننى حظيت

بامتياز عظيم اذ درست على السيدة ماركيزى فى باريس ، ثم حافظت على مستوى بعد ذلك ، بالمران ساعات ممتعة ـ بين آن وآخر ـ مع ابنتها التى تقيم فى لندن والتى لا تقل عنها مواهب . وبذلك تسنى لى أن اعرف كل ما يجب أن يعرف عن التحكم فى الصوت اذ قد افدت كثيرا من هذه الفرص الذهبية)) .

وبدت هذه الكلمات الهادئة لميرا كألغاز ، فلم تفهم منها أكثر مما كان يحتمل ان تفهم لو ان « جين » قالت : « اننى كنت أتعلم سول فامى ! » .. ولم تكن فى ذلك مبالغة ما ـ فى الواقع ـ فقد حاولت ليدى انجلبى (ميرا) ان تحذق طريقة « سول فامى » فى الموسيقى والغناء ، لتعلم خدمها وخادماتها كيف يقيمون حفلات مشتركة .. وكان ذلك فى فترة اوتيت فيها خدما ذوى مواهب موسيقية ممتازة . اذ كان مساعد رئيس الخدم ذا صوت جميل ، وكان بوسع الساقى ان يعالج النغم المنخفض ، فعند ارتفاع اصوات الباقين كان ينخفض هو الى طبقة دونهم ، طبقا لما يتلقى من تعليمات .. اما رئيسة الخادمات ، فكانت تجيد ترديد ما يسمونه «اللازمة» . وكانت مدبرة القصر ـ وهى امرأة سمراء ، ذات شفة عليا مشقوقة ـ فكانت تضبط النغمات بصوت خفيض، بينما كان الآخرون يرفعون أصواتهم . وكانت ليدى انجلبى ـ لسوء الحظ ـ تخلط بينها وبين الساقى . على أن « ميرا » كانت تعترف بأنها لم توهب أذنا موسيقية ، وأن دأبت على المحاولة . وتصادف أن أحضر زوجها خادما جديدا ، وجدت له صوتا عظيما ، مما بعث فيها املا فى توفر ما كان ينقصها من أركان النجاح ، وقررت أن تتعلم ـ هى نفسها ـ طريقة « سول فامى » ، واستطاعت بسهولة أن تتقن المفاتيح « مى » و « رى » و « دو » ، وكذلك« سو » و « فا » و « مى » ، لانها كانت تمثل النغمات الاولى فى معزوفة

« ثلاثة فئران عميــــاء » . ولكنهـــا حـــين انتقلت الى تركيبات موسيقية معقـــدة ، يئست فأوقفت دراســـتها الموسيقية .

لذلك لم يكن للحديث الذى دار أمامها من أكبر معلمة غناء فى عصرها ، معنى ! .. بينما اعتدل جارث فى جلسته ، وقال : « لا عجب يا جين فى أن تقدمى على المجازفة بأعصاب هادئة ، فان « فيلما » نفسها كانت تلميذة لتلك الفنانة العظيمة ! » .

فأجابته جين : « ومن هنا قدر لى ان اعرفها معرفة وثيقة .. وقد قدمت اليوم معتقدة بأننى ســـأرافقها بالعزف فى أغنياتها » . فقال جارث : « واذا بك تضطلعين بالدورين معا .. يا لله ! ولكن اتعنين بهذا انك تفضلين ان تعزفى بينما يغنى غيرك على ان تغنى انت ؟ »

واشرقت ابتسامة « جين » البطيئة مرة اخرى ، وقالت : « اننى افضل ان اغنى ، ولكن العزف أثناء غناء الغير أكثـــر فائدة ! » . فأجابها جارث : « هذا حق ، فكثـــير من الناس يمارسون الغناء قليلا ، ولكن قليلا هم الذين يتقنون العـــزف بينما يغنى غيرهم ! »

وقالت « ميرا » وعيناها الرماديتان تلقيان نظرات مسترخية من تحت أهدابها السوداء الطويلة : « اذا كنت قـــد تلقيت دروسا فى الغناء ، وعـــرفت بعض الاغانى ، فلم لم تحملك الدوقة على الغناء لنا من قبل ؟ » . فـــردت جـين قائلة :

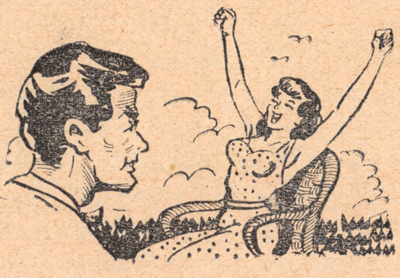
« ان لذلك سببا مؤلما . اتعرفين ابنها الوحيـــد الذى مات منذ ثمانى سنوات ؟ .. كان شابا جميلا موهوبا ، وقدورثت واياه حب الموسيقى عن جدنا ، فانضم هو فى كليته الى فريق للموسيقى ، ودرس بشغف ، ورغب فى ان يحترف الغناء . وقد وعد بأن يغنى فى حفلة خيرية فى المدينة ، فى عطلة عيـــد الميلاد ، فى عام من الاعوام . ولم يكن قد اســـتكمل ابلاله من « الانفلونزا » عندما خرج ليبر بوعده . فأصيب بنكســـة

أدت الى التهاب رئوى مضاعف ، ثم مات بعد خمسة ايام بالسكتة القلبية . ولقد كانت الصدمة قاسية على عمتى المسكينة ، فجن جنونها حزنا عليه .. ومنذ ذلك اليوم ، يثير أساها اى ذكر لتعلقى بالموسيقى .. وكنت مثله ارغب فى احتراف الغناء ، ولكنها حالت بشدة دون ذلك . بل اننى نادرا ما أجرؤ على الغناء او العزف هنا ! »

وقال لها جارث دالمين : « ولم لا تمارسين ذلك فى أماكن أخرى ؟ .. لقد نزلنا معا فى عدة بيوت ، فلم تخامرنى اتفه فكرة عن انك تجيدين الغناء ! » . فأجابته جين بعد تريث : « لست ادرى ، ولكن للموسيقى سلطانا كبيرا على نفسى . انها نوع من قدس الاقداس فى أعمق اغوار كيان الانسان ، وليس من السهل ازاحة القناع ! »

فقالت لها ميرا انجلبى : « اذن ، فسيزاح القناع الليلة ؟! » .. فوافقتها جين وهى تبتسم ، وقد كست وجهها حمرة خفيفة ، وقالت : « اجل ، اعتقد ذلك ! » . وهنا قال جارث : « وستصل الى ذلك القدس العميق ؟ ! »

الفصل الخامس



• **امتدت** الظلال فى سكون على المرج الاخضر ، وحومت الغربان حول شجر الدردار الباسق ، وهى تنعق ، أثناء ايابها

الى أوكارها . واشارت المزولة الى الساعة السادسة مساء ..
ونهضت « ميرا انجلبى » واقفة ، وقد تسلطت خيوط من أشعة الشمس الغاربة على عينيها ، وبسطت ذراعيها فوق رأسها ، فتأمل الفنان كل خط رشيق فى جسمها اللدن . وقالت وهى تتثاءب : « أواه ، ما ابدع المنظر هنا ، غير أننى مضطرة الى ان اذهب الى وصيفتى .. وارجو ان تستعدى فى الموعد يا جين ، فلا تضيعى وقتك فى تدليك وجهك .. لقد استبدت بك هذه العادة ، وهى تستغرق ساعات من يومك .. أنظرى الى ! »
وكانت جين والفنان ينظران اليها فعلا ، فقد كان مرآها يملأ العيون بهجة . واستطردت ميرا تقول : « ان الاستعداد للسهرات العادية ، لايتطلب منى أن أبدأ زينتى قبل السابعة مساء .. ولكننى الآن مضطرة الى أن اضحى بالساعة الباقية قبل هذا الموعد .. ساعة رائعة ! » .. فسألتها جين : « وماذا يحدث لو بقيت ؟ .. اننى لا اعرف ما يضطرك الى ذلك ؟ » .. فأجابتها الليدى انجلبى : « ليس المجال مجال اسهاب ، غير انك تعلمين كم كنت ابدو جميلة طيلة النهار ، فاذا لم أسلم نفسى الى وصيفتى الآن ، فسوف ابدو – فى نهاية العشاء – أقل بهاء ، ولن ألبث – عند نهاية السهرة – ان اظهر كما لو كان عمرى قد زاد عشر سنوات ! » .
وقالت لها جين – فى صراحة واخلاص – انك خليقة بأن تحتفظى بجمالك دائما ، فلم تفكرين فى سنك ؟ » . فأجابت مرددة أحد بيوت الشعر : « تقاس سن الرجل بما يشعر به ، أما المرأة فسنها يقاس بمظهرها يا عزيزتى » . فعقب جارث قائلا : « أشعر بأننى لم اتجاوز السابعة من عمرى بعد ! » . فضحكت ميرا قائلة : « .. وانك لتبدو وكأنك فى السابعة عشر ! » .. فاحتج جارث قائلا : « ولكنى فى السابعة والعشرين من عمرى ، ولذلك فلا يحق للدوقة أن تقول لى « أيها الطفل

المضحك » ! .. وفوق ذلك يا سيدتى العـزيزة ، اذا كان اختصار وقت عملية زينتك الغامضة سينتقص من حسنك شعرة واحدة الليلة ، فاننى أتوسل اليك ان تسـارعى الى وصيفتك حتى لا تفسدى على سهرتى بأسرها ، فسوف انطلق باكيا أثناء العشاء ، والدوقة تكره مثل هذه الحالات ، كما تعلمين ! »

فلطمته الليدى انجلبى بقبعتها وهى مارة ، قائلة : « اصمت أيها الطفل المضحك ، فليس لك ان تتدخل فى حديث خاص بينى وبين جين .. لسوف ترسم لى صورة فى هذا الخريف ، وسأمتنع بعدها من تدليك وجهى ، ثم أسافر الى الخارج ، وأعود عجوزا شمطاء ! » .. ورمت بعبارتها الاخيرة من خلف ظهرها ، وهى سائرة تتهادى فوق المرج الاخضر الى داخل الدار . فعقب جارث وعيناه ترمقانها وهى تسير : « ما ابدعها ! .. ترى ما مدى الصدق فيما قالت ، يا آنسة شامبيون ؟ » . فأجابته جين : « ليس لدى أتفه فكرة .. وانى لاجهل تماما مسألة تدليك الوجه هذه » . فأكمل جارث حديثه قائلا : « ما أظن فى حديثها كثيرا من الصحة ، والا ما قالته ! »

فسارعت جين بالرد عليـه قائلة : « أنت مخطىء فى ذلك ، فان « ميرا » أمينة الى أقصى الحدود ، وتجنح دائما للصراحة فى حديثها عن نفسها وعن أخطائها .. لقـد نشأت نشـأة عجيبة ، فهى من أسرة كبـيرة ، وكانت دائمـا مستضعفة مضطهده ، ليس من اخوتها واخواتها بقدر ما كان ذلك من أمها . فما كانوا يرون صوابا فى أى شىء تقـول او تفعل ..

واحسب ان اللورد انجلبى تبين مواهبها الدفينة حين قابلهـا لاول مرة ، اذ كانت فتاة طويلة ، خفيفة الروح ، لها عينـان جميلتـان وفم شهى ينم عن حس مرهف ، ووجه ينم عن تطلع الى الغد مشوب بالتسـاؤل والحيرة ! .. وكان اللورد انجلبى يكبرها بعشرين سنة ، ولكنه غرق فى حبها الى أذنيه.

ورغم ما بذلته امها من مجهود لتحول اتجاهه الى احدى بناتها الاخريات ، فانه لم يرض عن « ميرا » بديلا . وعندما طلب يدها ، كان من العسير عليه أن يقر فى فهمهما ما كان يقصد ، ولكن غرضه لم يلبث أن وضح لها ، فلم يطل انتظاره لردها . وطالما سمعته يداعبها بذلك ، فقد رمقته بابتسامة جذابة ، وقالت والدموع تترقرق فى مآقيها : « أجل ، سأتزوجك وانا شاكرة ، فى الواقع ، فانى ارى ميلك الى تلطفا كريما .. ولكن ما أشد الصدمة على أمى ! » .. ولقد تزوجا دون ارجاء ، ورحلا الى باريس وايطاليا ومصر ، وامضيا معا ستة شهور فى الخارج ، ثم عاد اللورد بعروسه فى شكلها الراهن ! .. ولقد كنت — فى ذات مرة — ضيفة عليهما ، وكانت امها هناك .. وكنا — فى ذات يوم — فى حجرة الصباح ومعنا ست سيدات ، ولم يكن بيننا أحد من الرجال ، فاذا أمها تنهمك فى تسقط أخطاء تلصقها بميرا ، ثم قالت لها : « ألم يقل لك اللورد انجلبى شيئا عن ذلك ؟ » .. **فتطلعت ميرا الى أمها بطريقتها الحلوة الناعسة ، وقالت : « قد يدهشك — يا أمى العزيزة — ان اقول لك ان زوجى يعتقد بأن كل ما افعله رائع ! »** .. فاندفعت أمها قائلة : « ان زوجك غبى ! » .. واجابتهما ميرا فى تلطف : « تلك وجهة نظرك يا أمى العزيزة .. ! »

فقال جارث : « يا للعجوز الخسيسة ! .. لماذا تدعى مثل هذه المرأة أما ؟ .. اننا — معشر الذين نعموا بأمهات رفيقات كريمات الخلق — لنتمنى ان يسن قانون بأن تسمى مثل تلك المرأة بـ « الوأود » ، أو « منجبة الذرية » ، او اى اسم آخر ، لكى لا يدنس اسم « الأم » المقدس ! » .. ولزمت جين الصمت ، فقد كانت تعلم قصة طفولة جارث الجميلة مع أمه الارملة ، وتعلم شغفه بذكراها التى كانت لها فى نفسه قداسة . وكان اعجاب « جين » به ، وميلها اليه ،

يشتدان كلما تكشفت أمامها هذه الخصال الخبيئة النبيلة ، فلم ترغب مرة فى معارضة آرائه ، ولم تذكر له مرة انها لم تلثغ بذلك الاسم مطلقا !

* * *

• ونهض جارث عن مقعده ، ونصب قامته المشوقة النحيلة فى شعاع الشمس الغاربة ، كما فعلت « ميرا » . وتطلعت اليه « جين » ، فقد كان الجمال البدنى العارم يهفو بمشاعرها — كما هو الشأن لدى من لم يؤتوا جمالا — وكانت تحسب لتأثيره حسابا فى القياس بين أصدقائها ، فكان « جارث دالمين » فى طليعة الصفوة من اصدقائها ، دون منازع .. كان يكبر معظمهم سنا ، ومع ذلك فانه كان — فى بعض النواحى — اصغرهم جميعا ، اذ كان شبابه وفتوة مسلكه وروحه الجياشة تظهره فى عينى « جين » بمظهر الطيش أحيانا ، لان روح الفكاهة عندها كانت تتسم بالرصانة والهدوء .. **على أنه لم يكن ثمة نزاع فى أن مظهره الخارجى كان كاملا تمام الكمال ، ومن ثم فقد كانت نظرة « جين » اليه تفيض حنانا ، كنظرة الام الحانية على ابنها .. كأن الاعجاب الصادق يملأ عينيها الرقيقتين !**

أما جارث ، فانه لم يكن يفطن الى جمال مظهره ، رغم قميصه البنفسجى الزاهى ، وربطة عنقه البنفسجيةالقاتمة . كما أن أشعة الشمس الذهبية بهرت نظره ، فلم يفطن الى نظرات جين . وما لبث ان صاح فى لهجة صبى يافع : « آه ، ما رايك يا آنسة شامبيون .. أليس جميلا أنهم دخلوا جميعا الى القصر ؟ .. لقد كنت أتوق الى الحديث معك ، فان وجودنا مع الجماعة ، يضطرنا الى الحديث فى حذر ، كما يفعل الاطفال حين يلعبون بالكرات الهوائية (البالونات) .. وكثيرا ما تنفجر (البالونات) ، فيتبين أن كل ما بقي — بعد

طول المناقشات ـ لا يزيد على قطعة مغضنة فارغة من الجلد ! .. ألم يحدث لك ان اشتريت كرة هوائية فى (برايتون) ؟ .. هل تذكرين ما كان يسودنا من انفعال جامح لمرأى بائع الكرات الهوائية ، وهو مقبل بطائفة كبيرة منها ، بين زرقاء وخضراء وحمراء وبيضاء وصفراء ، تتألق جميعا تحت اشعة الشمس ؟ .. لكم كنا ندهش ـ فى ذلك الحين ـ لتمكن صاحبها من امساكها كلها فى يده .. اننى شخصيا لم أكن ادرى ماذا كان يحدث لو انه ترك الكرات على الارض .. وكنت أحدد دائما الكرة التى اريدها ، فكانت عادة من الكرات التى تتوسط الحزمة ، والتى يختلط خيطها بخيوط الكرات الاخرى ، فيستغرق تخليصه وقتا طويلا . وكم كان الغيظ يذهب بالكبار ، اذ يملون الانتظار .. **ولكننى كنت أوثر أن لا أحظى بأية كرة اطلاقا ، على أن آخذ واحدة غير التى صبا اليها قلبى . اما كنت كذلك ؟ »** . فأجابته جين فى غير اهتمام : « لم يقدر لى أن اشترى اية كرة هوائية فى برايتون ! »

وكان « جارث » قد شعر بأنه عاد الى سن السابعة ، ولكن « جين » أحست بسأم وملل . وسرعان ما أدرك جارث ذلك ، فتناول معطفه عن ظهر المقعد ، وألقى به على كتفيه ، ثم قال : « هيا يا آنسة شامبيون ، لقد سئمت البطالة فدعينا نذهب الى النهر ونأخذ قاربا لشخصين ، فان العشاء لن يكون قبل الساعة الثامنة ، وانى لواثق من انه يكفيك نصف ساعة لارتداء ثيابك ، ولو لتظهرى فى دور « فيلما » .. لقد رأيتك تفعلين ذلك فى عشر دقائق ، ومن ثم فهناك وقت كاف لكى أجدف بك حتى نصل على مقربة من الدير ، ونستطيع ان نتكلم خلال ذلك .. تصورى الدير القديم الرمادى ، والشمس تغرب خلفه ، بينما امتد امامه حقل ملىء بالزهور ! »

غير ان جين لم تتحرك ، بل قالت : « انك لن تطرب كثيرا لرؤية الدير أو غروب الشمس ، بعد أن تكون قد دفعت القارب

المثقل بجسمى عبر النهر ، يا عزيزى دال . بل أنك سترتمى منهوك القوى بين زهور الغابة .. وانت تعلم جيدا اننى لست ممن يقنعن بأن يطلب اليهن الجلوس فى مقعد فى مؤخرة قارب صغير ، ممسكة بالدفة ، لاننى لا استقل قاربا الا لكى اتولى التجديف بنفسى .. فاذا ما توثيت التجديف ، فاننى افعل ذلك بقوة . اما الآن ، وبعد ان قضيت طيلة بعد الظهر فى لعب الجولف ، فليست بى رغبة فى التجديف ، كما انك تدرك — ولا بد — انه لن يلذ لك ان تظل محملقا فى وجهى طيلة صعودنا النهر وهبوطنا ، بينما يكون كل تفكيرى متجها الى انتقاد ضربات مجدافك ، وملاحظة الطريقة التى ترفع بها المجداف من الماء ! »

* * *

• **وعاد** « جارث » الى مقعده ، وعقد يديه وراء رأسه الاسود الناعم ، وأخذ ينظر اليها بعينيه البراقتين اللطيفتين ، كما كان ينظر الى الدوقة ، ثم قال : « ما أشد ضيقك يا صديقتى ! .. ماذا بك ؟ » . فضحكت جين ومدت له يدها وهى تقول : « واها منك ايها الفتى العزيز ، ان طباعك لاحلى طباع فى الدنيا بأسرها . لن ابدى الضيق بعد الآن .. والحق أن ضيقى منبعث عن اننى امقت حفلات الدوقة ، ولايستهوينى أن أكون « عنصر المفاجأة » فيها ! .. » . فأجابها جارث فى حنان : « فهمت .. اذا كان الامر كما تشعرين ، فلماذا تطوعت ؟ »

وأجابت جين : « كان ذلك واجبا على ، فان العمة العجوز الحبيبة نادرا ما تطلب منى شيئا ، وقد قرأت فى نظراتها ضراعة صارخة .. الا تعرف كيف يتوق المرء أحيانا الى اسداء صنيع الى شخص يهمه امره ؟ .. اننى اقبل ان انظف حذاءها لو انها طلبت منى ذلك ، غير انه من العسير ان امكث

هنا اسبوعا بعد اسبوع ، وان اكون فى متناول يدها .. لقد كان هذا هو الطلب الوحيد الذى سألتنيه وعيناها المتكبرتان تحدقان فى توسل . فهل كان يجمل بى ان ارفض ؟ » . واذ ذاك قال « جارث » فى عطف بالغ ، وهو مستغرق فى التفكير : « كلا يا عزيزتى ، ما كان يجمل بك ان ترفضى . فلا تبالى كثيرا بالفكاهة التى تتردد عن « عنصر المفاجأة » .. **لا ، لست أنت التى تبالين ، ولا أشك فى أنك ستفنين خيراً من أغلب الساخرين من « عنصر المفاجأة » ، ولكنهم لن يتبينوا ذلك ، لان الامر يحتاج لاسم « فيلما » ليخلب لبهم .. لسوف يرون ان اغنية « المسبحة » جميلة ، وسيربتون كتفك مجاملة . وينتهى الامر عند ذلك .. فلا تحفلى ! »**

وجلست « جين » تفكر ، ثم قالت : « اننى اكره يا دال ان أغنى امام مثل هذا الحشد ، اذ أشعر كما لو اننى أعطيهم روحى ليحملقوا فيها ، وهو امر غير مستساغ .. ان الموسيقى — فى اعتقادى — هى أشد قوة كاشفة فى العالم ، وانى لارتجف حين أفكر فى تلك الاغنية ، ومع ذلك فلست اجرؤ على ان أؤديها بأقل من الكمال . وعندما تحين الساعة ، فسأعيش فى الاغنية ، وانسى وجود المستمعين . سأذكر لك درسا تلقيته مرة من مدام بلانش .. كنت أغنى « الانشودة الهندية » من تأليف « بمبرج » ، وهى صلاة حارة ترفعها امرأة هندية الى الاله « براهما » .. وكانت الانشودة تبدأ بالكلمات الآتية : « براهما ، يا اله المؤمنين .. » ، فبدأت انشادها وكأننى اردد درسا موسيقيا ، لان « براهما » لم يكن شيئا فى عقيدتى ، واذا مدام بلانش تصيح فى بلهجة قاسية عنيفة : « قفى ! .. آواه منكم معشر الانجليز ! ماذا تفعلين ؟ ان « براهما » قد لا يكون الهك ، وقد لا يكون الهى ، ولكنه اله أشخاص آخرين .. انه اله الاغنية التى تغنين ، فانصتى ! » .. ثم بدأت تغنى : « براهما ، يا اله المؤمنين ، ياسيد المدينة

المقدسة ! » .. واذا جبينها يتألق بالضياء ، واذا باحساس دينى جياش يهز روحها .. لقد كان درسا لن انســـاه طول حياتى ، وأؤكد لك اننى منذ ذلك اليوم لم أردد اغنيـــة ما فى فتــور ! »

قال جارث دالمين : « بديع ، فاننى أحب الحماســـــة فى كل ناحية من نواحى الفن .. وما فكرت مرة فى رسم لوحة ، مالم اشغف بالمرأة التى اصورها ! » .

فابتسمت جين ، اذ اتخذ الحديث الاتجاه الذى كانت تتمنى أن يتجه اليه .. وقالت : « ما أكثر من تهيم بهن تباعا ياعزيزى دال ، حتى لنخشى ـ نحن الصديقات الحميمات اللائى يضعن مصلحتك الحقيقية نصب أعينهن ـ أن لا تتجه بشغفك يوما الى غاية محددة ! » . فضحك جارث وقال : « ويحك ، هل أصبحت كالاخريات جميعا ؟ .. أتعتقدين مثلهن بأن الشغف والاعجاب يجب أن يهدفا الى الزواج حتما .. لقد كنت اتوقع أن يكون رايك اسلم واقرب الى وجهة نظر الرجال » ..

قالت جين : « يا بنى العزيز ، أن اصدقاءك يجمعون عـلى ضرورة زواجك ، فأنت وحيد فى الدنيا ، ولك مسكن بديع .. وانت معرض تماما لان تفســد على ايدى الغبيـــات اللائى يطاردنك . ولا مراء فى أننا ندرك تماما أن زوجتـك يجب أن تحرز كل ما لا نظير له من آيات الجمــال تحت الشمس .. مجتمعة فى شخصها الرائع . **ولـكن كل حسن قـدسى تراه وترسمه ، يحقق لك هدفك المثالى الرائع ، تحقيقا مؤقتـــا ، على ما يبدو . فاذا تزوجت حسناء ـ بدلا من أن ترسمها ـ فلعها تحقق لك المثل المنشود ، تحقيقـــا دائمـا ! »** . ففكر « جارث » قليلا وهو صامت ، ثم انعقد حاجباه ، واخيرا قال : « ان الجمال فى الواقع أمر سطحى ، فأنا أراه وأعجب به ، وقد أشتهيه واصوره . وما أن افرغ من تصـويره ، حتى أضمه الي ممتلكاتي ، واجد ـ بطريقة ما ـ انني اكتفي بذلك .. وكل

مرة ارسم فيها امرأة ، أروح ابحث عن روحهـا ، رغبـة مني في ان انقل صورتها على اللوحة .. ولكن اتعلمين يا آنسـة شامبيون بأنني اكتشف ـ في كل مرة ـ ان المرأة الجميلة لا تحظى دائما بروح جميلة ؟ ! »

وصمتت « جين » ، اذ كان الجانب الروحي في المرأة ، هو آخر ما تود الخوض فيه .. واستأنف « جارث » حديثـه قائلا : « هناك امرأة واحدة فقط تظهر لى كاملة ، وسأصورها في هذا الخريف ، واعتقد بأننى سأكتشف فيها روحا تضارع جسدها حسنا ! » . فتسـاءلت جين : « أهى .. ؟ » . فقاطعها قائلا : **« ليدى براند »** . واذ ذاك ، صـاحت جين : « فلاور ؟ ! .. أشفقت بفلاور الى هذا الحد ؟ » . فأجابها « جارث » فى تحمس خاشع : **« نعم ، انها لبديعة الحسن . ويقينا أن كل هذا الحسن المطلق ، المجرد من كل عيب ، لا يمكن أن يجتمع فى امرأة واحدة .. انه يهز نياط قلبى . هل تدركين يا آنسة شامبيون هذا الاحساس ؟ .. الاحسـاس بالجمال الكامل الذى يهز فؤادك ! »**

وأجابت جين فى اقتضاب : « كلا ، لم أحس بشيء من ذلك ، ولا اعتقد انه يليق بك ان تتأثر بجمال زوجات الغير » . فصاح بها جارث مأخوذا : « ليس الامر متعلقـا بزوجات او غير زوجات ، يا صـديقتى العزيزة ، فان غابة مليئة بزهـرة الاجراس ، تحت اشعة شمس الصباح ، خليقة بأن تحدث فى نفسي ذات الاحساس .. انني أحس ان قلبى يهتز شوقا الى ان ارسمها . حتى اذا ما اتممت تصـويرها ، وابرزت ـ فى اتقان ـ كل آيات الحسن التى أرى أن ليس لها نظير ، شعرت بارتياح ورضى .. والى الآن ، لم أرسم ليدى براند الا مـن الذاكرة ، ولكن عليها ان تجلس امامى لارسـمها فى شـهر أكتوبر » . فسألته جين : « هل رسمتها من الذاكرة ؟ » .

ـ نعم انني أنقل كثيرا من صورى عن الذاكـرة . دعيني

القى نظرة على وجه شيء ما ، وأتملاه فى لحظة يتسنى فيها التغلغل الى ما تحت السطح ، فلا ألبث ان ارسم لك ذلك الوجه من ذاكرتى بعد أسابيع .. وكثير من افضل لوحاتى المعبرة رسمت بهذه الطريقة .. آه ، ما الذ ذلك ! ان الجمال - اعنى عبادة الجمال - عقيدة ودين لدى !

فقالت جين : « تقصد نوعا من الدين بغير اله ! » . فأجابها جارث فى خشوع : « **ان الجمال الحقيقى منحة من الخالق ، ولا بد ان يهدى بدوره الى الخالق ، فان « كل عطية صالحة ، وكل عطية كاملة ، هى من فوق نازلة ، من عند ابى الانوار»** .. ولقد التقيت مرة باحدى العجائز المخرفات ، فقالت ان كل الامراض تأتى من الشيطان .. وليس بوسعى ان اصدق ذلك ، لان امى قضت الاعوام الاخيرة من حياتها ، طريحة الفراش ، وبوسعى ان اشهد صادقا بأن مرضها كان بركة لكثيرين ، وقد تحملته تمجيدا لاسم الله .. على اننى اعتقد بأن كل جمال حقيقى هو منحة من الله ، وهذا هو السر فى أن عبادة الجمال فى عقيدتى دين . فما من قبيح كان فى أصله جميلا .. حقا ، وما من خير غير يمكن ان يكون قبيحا حقا ! »

* * *

• **وابتسمت** جين وهى تنظر اليه - وقد استلقى فى مقعده تحت شعاع الشمس الذهبية - فرأت فيه جمال الرجل مجسما . كان تجرده المطلق من الحذر فى حديثه - سواء بالنسبة الى نفسه أو اليها - قد دفعه الى ان يتحدث بهذا الشكل الى أكثر النساء - اللائى يعرفهن - حرمانا من الجمال الصارخ .. وبدا لجين فى ذلك قبسا من المرح ، مال بتفكيرها الى اتجاه آخر .. وراق لها هذا الحديث ، أكثر مما كان يروق لها شراء (بالون) ملون ، أو مشاهدة الدوقة مرتدية قبعة من القش ، ثم سألته : « اذن ، فهل يحرم المجردون من

الجمال من نصيبهم من الخير والطيبة يا دال ؟ »

فأجابها جارث دالمين : « ان الخلو من الجمال ليس قبحا ! .. لقد تعلمت هذا مذ كنت صبيا صغيرا ، اذ اخذتنى امى مرة لاستمع الى واعظ شهير ، فلما رايته جالسا على المنبر - قبل بدء القداس - بدا لى أنه أقبح انسان رأيته فى حياتى ، فقد تمثل لى كغوريلا هائلة الحجم .. وتولانى رعب شديد من منظره حين نهض وواجهنا ليلقى موعظته ، وخيل الى انه كان ينبغى ان يوضع بيننا وبينه حاجز ، وانه كان خليقا بنا ان نلقى اليه بالبندق والبرتقال .. **ولكنه لم يكد ينهض ليلقى موعظته ، حتى تبدل منظر وجهه ، فشعت منه الطيبة والالهام وأحالتاه الى وجه ملاك .. ولم أعد ارى فيه قبحا بعد ذلك ، لان جمال روحه تالق على سطح جسمه فكساه سناء .. ومع اننى كنت صبيا - اذ ذاك - فقد أمكننى التفريق بين الدمامة والخلو من الجمال الظاهرى . حتى اذا جلس بعد ان ختم موعظته العظيمة ، لم أعد ارى فى وجهه شبها بالغوريلا او الشمبانزى ، ولا ازال اذكر الهالة السماوية التى شعت من ابتسامته** .. ومن الطبيعى ان خلو سماته من الجمال ظل على حاله ، فلم يكن وجهه من الوجوه التى يود المرء ان يعيش معها ، أو أن يطالعه يوميا على المائدة .. ولكن المرء لم يكن مطالبا بأن يثابر على حضور مثل هذا القداس ، والا كان ذلك خليقا بأن يكون - بالنسبة لى - استشهادا ! .. ولقد بقيت ذكراه فى مخيلتى - من ذلك الوقت - كبرهان ناصع على الحقيقة .. على ان الطيبة لا تكون دمامة ابدا ، وان انبثاق الحب العلوى والالهام السماوى من أبسط التقاطيع الجسمية شكلا ، يحولها مؤقتا الى جمال .. ودائما الى شىء يحب المرء أن يتذكره ! »

قالت جين : « فهمت .. لا بد ان هذه الذكرى كثيرا ما ساعدتك على الوصول الى وجهة نظر صحيحة ، اذ تبينت

ذلك من زمن بعيد . ولكن ، لنعد الآن الى الموضوع الهام .. موضوع الوجه الذى ترغب فى أن يطالعك يوميا على المائدة .. **انه لا يمكن ان يكون وجه ((ليدى براند)) ، ولا يمكن ان يكون وجه ((ميرا)) .. ولكنك تعلم يا ((دال)) أن ثمة أنثى بارعة الحسن مرشحة لهذا المركز !))** . فسارع جارث لمقاطعتها قائلا : ((ارجوك ، لا اريد ذكر اسماء .. انى اعترض على ذكر اسماء فتيات فى معرض هذا الحديث))

ــ حسنا يا بنى العزيز ، اننى افهم رغبتك واحترمها .. انك اكسبتها شهرة باللوحة التأثيرية التى رسمتها لها ، وها أنذى اسمع انك راغب فى أن ترسم صورة اخرى لها اكثر روعة ، فى الخريف . والآن يا دال ، انك لتعلم انك معجب بها أشد اعجاب .. وانها لجميلة ، بل انها فاتنة ، وانها لتنتمى الى بلاد اذا أوتيت النساء فيها سحرا ، فانهن يقرنه بنضارة ، وبتأثير فتاك يجعلانهن ابعد من كل شبيه . **أما انت فانك فذ فى بعض النواحى ، بحيث يحق لك ان تحظى بزوجة فذة ــ هى الاخرى ــ الى حد ما . ولا أكاد ادرى الى أى مدى قد يؤثر عليك رأى أصدقائك فى مثل هذا الأمر ، ولكن قد يسرك أن تسمع أنهم يقرون بالاجماع ولاءك لـ .. للخطوط والنجوم، كما ينبغى ان يقال !))** .. والخطوط والنجوم تمثل العلم الامريكى .. والامريكيات !



وهنا اخرج جارث دالمين علبة سجائره واخذ لفافة منها بكل عناية ، ثم تركها بين اصابعه ، وسبح فى تأمل عميق .. فقالت له جين : « دخن سيجارتك ! » . فشكرها جارث ، وأشعل عودا من الثقاب اوقد به سيجارته على مهل ، ثم ألقى بالثقاب ، فسقط على الحشيش ، وارتفع لهبه ، فهب جارث واطفأه . ثم عاد الى مقعده مواجها « جين » ، واستلقى قليلا ، واخذ يدخن وهو غارق فى التفكير وعيناه تتابعان حلقات الدخان التى كان ينفثها – وهى تتصاعد الى فروع شجرة الارز ، وتتمدد ثم تتبدد وتتلاشى .. وظلت جين ترقبه .. كان تباين أساليب اصدقائها فى اشعال سجائرهم وتدخينها ، ظاهرة تستثير اهتمام « جين » دائما . كان هناك عشرة شبان – على الاقل – تستطيع ان تعين اسم كل منهم بمجرد سماعها وصف اسلوبه . كما أنها تعلمت من « دريك براند » قيمة لحظات الصمت فى أثناء اى حديث هام !

واخيرا تكلم « جارث » ، فقال : « يزداد عجبى كلما فكرت فى السبب الذى يجعل الدخان يخرج من اللفافات بلون أزرق باهت ، وفى حلقات متصاعدة .. فى حين انه يخرج من افواهنا – اذا نفثناه – بلون ابيض مغبر ! » .

وكانت جين تعلم ان السبب فى ذلك هو ان الدخان – حين ينفث من الفم – يخرج مشبعا بالرطوبة . غير أنها لم تفه بكلمة ، اذ لم تشأ ان تزجى برايها عن حلقات الدخان ، حتى لا تشجع ذهنه على الاتجاه المصطنع الذى نحا اليه اذ ذاك . وانتظرت فى هدوء ان يستجيب لهذا الاستدراج الذى وجهته الى اعماقه ، وهى مطمئنة الى أنه لن يلبث ان يفعل .. وسرعان ما فعل ، اذ قال : **« كم هو جميل منك يا آنسة شامبيون ان تكلفى نفسك عناء التفكير الطويل فى أمرى ، وان تكشفيه لى . وحتى ابين لك مبلغ عرفانى بالجميل ، سأوضح – للمرة الاولى – أين تكمن عقدة مشكلتى ؟ .. اننى لم أكد أحددها**

يعد لنفسي ، ومع ذلك فاعتقد ان فى مقدورى أن أطرحها أمامك ! »

ثم ساد الصمت بينهما مرة اخرى ، ودخن « جارث » لفافته وهو غارق فى تفكير عميق ، بينما انتظرت « جين » فى صمت شامل .. ووجد جارث نفسه يردد – ساخرا – الابيات الاخيرة فى احدى اغنيات القرن السادس عشر : « اذن ، فلنصل عسى أن ترسل السماء مثل هذه الحشائش ، وهذه المقاعد ، وهذا الصديق »

* * *

• **ولعل** لفافة التبغ ، او المقعد ، او جين ، او ثلاثتهم معا ، قد بعثوا فى « جارث » شعورا ساميا بالهدوء والراحة والاستكانة .. تحليقا روحيا جعل كل شيء حسن يبدو أحسن ، وكل المصاعب تلوح سهلة ، والمثل العليا تتراءى فى متناول اليد .. وبدا السكون مثل غروب الشمس ذهبيا . قطعه جارث آخر الامر بقوله : « ثمة امرأتان–هما الوحيدتان اللتان كان لهما وجود حقيقى فى حياتى – هما اللتان وضعتا لى مستوى لا املك النزول عنه .. واحداهما هى امى – وهى لى ذكرى مثالية مقدسة – والاخرى هى العجوز « مارجرى جريم » صديقة طفولتى ومربيتى ، وهى الآن مدبرة دارى التى تتولى كل أمور بيتى ، فان قلبها الامين وذكرها الدائم يساعداننى على ان اظل صادقا نحو ذلك المثال العذب الذى يلازمنى فى حياتى ، والذى اختفى من جانبى عندما وقفت على عتبة الرجولة . و « مارجرى » تقيم بقصر (كاسل جلينيش) . وعندما اذهب الى هناك ، يكون اول من تقابله عيناى عند انفراج باب البهو ، هى العجوز مارجرى فى مئزرها الحريرى الاسود ، ومنديلها ، وأشرطة الخزامى المتدلية منها . وفى تلك اللحظة اشعر باننى فى السابعة من عمرى ، فأسارع الى ضمها

الى صدرى . وانت يا آنسة شامبيون .لا تميلين الى عندما اتصرف كما لو كنت فى السابعة من عمرى ، أما مارجرى فتحب ذلك .. والآن هالك ما اود أن تتحققى منـــــه . عنـــــدما أقود عروسى الى (كاسل جلينيش) واقدمها الى مارجرى ، فان عينى العجوز الرحيمتين ستحاولان ان لا تريا فيها الاكل ما هو حسن .. وسيهفو القلب العجوز الى ان يحبها ويتفانى فى خدمتها . ومع كل هذا ، فسوف اكون على بينة من انها تعلم بالمستوى الذى انشده ، كما ادركه انا تماما .. وانهـا تذكر المثل العالى ـ الذى كان يجمع بين الرقة ، والحنـان ، والانوثة المسيحية ـ كما اذكره تماما . ولا يحق لى ، بل اننى لا أجرؤ على أن ارتضى امرأة أقل من هذا المستوى.. صدقينى يا آنسة شامبيون اذا قلت اننى صادفت ـ اكثر من مرة ـ جمالا بدنيا فتاكا ، ملك على كل مشاعرى وقادنى الى عبادة الحسن الخارجى ، حتى تناسيت او تجاهلت الحسن الضرورى واركانه الابدية غير المنظورة .. **عند ذلك اتمثل عينى مارجرى الصافيتين تحملقان فى عينى ـ دون أن تشعر بأى سلطان لها او تأثير منها ـ واخال يدها القوية تتحسس كمى معطفى ، واسمع صوتها ـ الذى قادنى فى حياتى منذ طفولتى ـ يخاطبنى فى دهشة ورقة قائلا : ((أهذه هى التى وقع عليها اختيـارك يا سيد جارث لتشغل مكان سيدتى المحبوبة ؟))** .. ولا ريب فى انك حين تفكرين ـ يا آنستى شامبيون ـ فى تركيبنـــا ومشاعرنا وتصرفاتنا ، سترين ان من السخف ان اجلس هنا على حشائش الدوقة ، واعترف بأننى احجمت عن خطبـــة النساء اللائى حظين بالقسط الاكبر من اعجابى ، لمجـــرد تفكيرى فيما قد يكون راى مربيتى العجـوز فيهن . ولكننى اريد ان تعرفى ان رايها يقوم **دائما على ذكرى ، وتلك الذكرى هى ذكرى أمى الميتة . ثم أن مارجرى تعبر عن حقيقة نفسى ، وتنطق بالحكم الشخصى الذى كنت خليقا بأن اتخذه اذا لم**

تعم الشهوة بصيرتى ، او تستبد بى عبادتى للجمال . وليس معنى ذلك ان مارجرى لا تحبذ الجمال ، فهى على العكس ، لا تقبل لى سواه . أننى اوقن من ذلك ، ولكن بصيرتها سرعان ما تتغلغل وراء السطح . فهى تنظر الى الاشياء غير المنظورة، كما جاء فى احدى الآيات السامية للقديس بولس .. ويبدو لى غريبا اننى قد استرسلت معك فى هذا الحديث يا آنسة شامبيون ، فالواقع ان هذه هى المرة الاولى التى صغت فيها هذه الإفكار ونسقتها . واعتقد انه من اسمى آيات الصداقة ان تجشمى نفسك عناء أزجاء النصح الصائب لى ، فى أمر كهذا ! »

★ ★ ★

. وأمسك « جارث دالمين » عن الحديث ، فاذا الصمت الذى أعقب ذلك يبدو ثقيلا مروعا ، حتى لقد تراءى لجين كجدار عال تحاول عبثا تسلقه .. وخيل اليها انها كانت تندفع هنا وهناك بحثا عن منفذ أو أية وسيلة للنجاة . ومع ذلك فقد ظلت حائرة ازاء الرد السديد على ما لم تكن تتوقع سماعه .. ومما زادها عيا وعجزا ، انها تأثرت كل التأثر باعتراف جارث ، وقد اعتادت أن تجد الكلام عسيرا ، اذا ما استولى عليها تأثر عميق .. وأى تأثر أقوى من أن هذا الشاب المحبوب من جميع الفتيات لحسن محياه ولطف طباعه ، والذى تلاحقه الامهات والقهرمانات لصلاحيته التامة لفتياتهن ، والذى اكتسب شهرة فى عالم الفن ، واصبح هدفا للمداهنة والغزل ، وقبلة المجتمع .. هذا الشاب يقر — فى هدوء — بأن المراة الوحيدة الباقية فى حياته ، هى مربيته العجوز .. وان أراءها وآمالها ترده عن أى زواج غير حكيم .. هذا الوضع العجيب نفذ الى أعمق مشاعر جين ، فابتسمت فى نفسها حين تصورت ما يكون لهذه الاقوال من وقع اذا سمعها باقى

الأصدقاء .. لقد اكتشفت جارث على ضوء جديد ، وفهمته فجأة كما لم تفهمه من قبل .. ومع ذلك ، فان الرد الوحيد الذى استطاعت أن تحمل نفسها على قوله ، كان : **« الكم تتوق نفسي الى معرفة مارجرى العجوز ! »** .

فأومضت عينا جارث ببريق الغبطة ، وأجابها : « آه ، ليتك تعرفينها ! .. انني أرجو أن تزورى (كاســل جلينيش) ، فسوف يبهجك المنظــر الذى تطل عليه شرفته ، والمنحدر المؤدى الى المسالك بين الصخور ، ومنها الى الربى الارجوانية . كما أعتقد أنك ستسرين لمرأى غابات الصنوبر والمستنقعات .. وبهذه المناسبة ، ما رأيك ــ يا آنسة شامبيون ــ فى أن أقيم « حفلة ممتازة » ــ على غرار حفــلات الدوقة ــ فى قصر (جلينيش) فى شهر سبتمبر ، أتوسل الى الدوقة أن تحضرها وتتولى رئاستها ؟ .. **اذ ذاك تستطعين أن تحضرى ، وسيدعى اليها كل من تختارين . وربما اســتطعنا ان ندعو الحســناء الامريكية ــ غادة « النجوم والخطوط » ــ وعمتها التى من (شيكاغو) .. السيدة باركر بانجس . وعند ذلك يتضح لنا رأى مارجرى فيها ! »**

فأجابت جين : « بديع .. سأحضر بكل سرور . وانى لارى منذ الآن ــ يا دال ــ ان تلك الفتاة ذات شــمائل حلوة .. الديك افضل منها ؟ .. ان مظهرها كامل الحسن ، ومن المؤكد أن روحها كذلك . هيا خذ رأينا جميعا وســـوف ترى ما يحدث ! » . فصاح جارث مبتهجا : « سأفعل ! .. ترى ماذا يكون رأى مارجرى فى السيدة باركر بانجس ؟ » . فأجابته جين فى حزم : « ليس هذا بالمهم .. اذا تزوجت ابنة الاخ ، فان العمة سترحل ــ ولا بد ــ الى شيكاغو » .

ــ كم أود أن لا يكون أهلها من أصحاب الملايين !

ــ لا حيلة فى ذلك ــ ان الامريكيات يخلبن الالباب ، فعلينا أن نغض الطرف عن ثرواتهن ! »

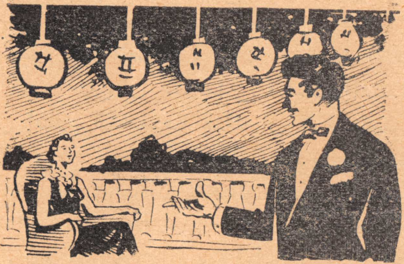
وقال جارث : « وددت لو أن الآنسة ليستر وعمتها كانتا هنا . ولكنهما مدعوتان الى الحفلة التى ستقيمها ليدى أنجلبى يوم الثلاثاء القادم ، وسأكون هناك .. هل ستحضرين يا آنسة شامبيون ؟ » . فأجابت جين : « أجل .. فسأذهب الى آل براند يوم الثلاثاء لقضاء بضعة أيام ، ولكننى وعدت « ميرا » بأن أعرج على (شنستون) فى نهاية الاسبوع .. اننى أحب الاقامة هناك ، فهما زوجان منسجمان تحلو عشرتهما » .. فقال جارث : « نعم .. وأى رجل يستطيع أن لا ينسجم ، اذا كان زوجا للادى انجلبى ؟ » . فضحكت جين قائلة : « **يا للتعبير البديع ! .. اننى أفهم جيدا ما تعنى ، وكم يسرنى أن يكون تقديرك لميرا عاليا ، فهى شخصية محبوبة .. ولكن عليك أن تعجل برسمها ثم تنتزعها ــ بعد ذلك ــ من عقلك ، حتى تكون خالصا لبولين ليستر وحدها ! »**

وهنا أشارت المزولة الى الساعة السابعة ، وكانت الغربان قد حومت مرات حول الاشجار ، ثم آوت الى أوكارها . فهبت جين واقفة ، وقالت وهى تسير بجانبه فوق الحشائش : « لندخل ! .. كم أنا مسرورة بالحديث الذى دار بيننا الليلة ! » .. فأجابها جارث : « نعم ، فان حديثنا الليلة لم يكن عن كرة الهواء ، وانما كان عن كرة القدم ! .. الكرة ذات الغلاف الجلدى المتين وقد سدد كل منا كرة فأصاب هدفا ، وذلك ــ كما تعلمين ــ رباط قوى .. ذلك لان نصيحتك قد سكنت فى أعماق قلبى ، كما اعتقد أن اجابتى قد كشفت لك حقيقة الامر .. أليس كذلك يا آنسة شامبيون ؟ »

وكان يشعر ــ اذ ذاك ــ كما لو كان فى السابعة من عمره .. أما جين فقد نظرت اليه بمنظار « مارجرى » ولم يؤلمها ذلك . ثم قالت ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة وديعة صادقة : « نعم سنعتبر ذلك رباطا ، وسيكون دعامة قوية لصداقتنا .. شكرا يا دال لكل ما قلته لى ! »

ولما عادت جين الى حجرتها وجدت أنه لا يزال أمامها نصف ساعة قبل أن ترتدى ثيابها ، فانكبت على مذكرتها اليومية ، اذ وجدت فى حديثها مع جارث دالمين ما يستحق التسجيل ، لا سـيما قصة القس الذى طغى جماله الروحى على قبحه البدنى ، فسـجلتها حرفيا .. ثم دقت الجرس لخادمتها ، وشرعت ترتدى ملابس السهرة للعشاء والحفلة التى ستتلوه .

الفصل السادس



• **يا آنسة** شامبيون ، أن دورك هو التالى ، اذ يعرض الآن آخر جزء من البرنامج المحلى .. وسوف تشرح الدوقة ـ عند انتهائه ـ ظروف مرض « فيلما » بالتهاب الحنجرة ، ونرجو أن لا تدعوه بـ « الزائدة الدودية » ! .. وبعد ذلك سأعلن دورك ، فهل أنت على استعداد ؟

هذا ما قاله « جارث دالمين » لجين ـ بوصفه رئيس التشريفات ـ حين عثر عليها فى الشرفة ووقف أمامها تحت أضواء المصابيح الصينية الخافتة . **وكانت الزهرة القرمزية فى عروة سترته ، تتسق مع الجوربين القرمزيين اللذين كانا فى قدميه ، وقد أضفى اللون مسحة فنية على لونى ملابس السهرة : الاسود والابيض .**

وتطلعت اليه جين – وهى مستلقية فى مقعدها الخيزرانى = وابتسمت فى وجهه الملهوف ، وقالت بعد ان نهضت من مقعدها وسارت بجواره : « انى مستعدة ، فهل كل شىء على ما يرام ؟ .. وهل هناك عدد كبير من النظارة ؟ »

فأجابها جارث : « أفواج .. والدوقة فى غاية المرح .. فالحفلة ابهج من المعتاد . ولكن الوقت حان لاهم أحـــداث الليلة ، فأين كراستك الموسيقية ؟ » . فقالت جين : « شكرا لك ، سأعزفها من الذاكرة ، لان هذا يوفر على عناء تقليب الصفحات ! » ثم دلفا الى قاعة الموسيقى ، ووقفا خلف الســتائر التى حفت بالدرجات الست المؤدية الى المسرح . وهمس جارث فى أذنها قائلا : « انصتى الى الدوقة .. اتستمعين قولها : « ان ابنة أخى جين شامبيون قد تلطفت وقبلت أن تسد النقص .. » : معنى ذلك يا آنسة جين أن تستعدى لاعتلاء المنصة بعد نصف دقيقة .. كان ادعى للتخفيف عنك ان لا نسهب فى الحديث عن « فيلما » . ولكن لا بأس ، فلقد اعتادوا منها هذه الامور . هل سمعت ؟ .. « التهاب الزائدة الدودية » ! .. ألم أقل لك ؟ مسكينة مدام « فيلما » ، فلنأمل أن لا يتسرب هذا الى الصحف المحلية . يالله ! لقد بدات تتوسع فى الحديث عن الامراض التى شاعت فى المجتمع الحديث .. حسنا ، سيتيح لنا ذلك برهة نستجمع فيها جلدنا ! .. وعلى ذكر ذلك يا آنسة شامبيون ، لقد كنت أداعبك بما قلت فى الاصــيل عن العزف والغناء ، وبوسعى أن أزاملك بالعزف اذا أردت .. كلا ؟ حسنا ، لك ما تشائين ، ولكن اذكرى ان غناء القطعة يتطلب صوتا عاليا حتى يترك أثره فى السامعين فى هذه القاعة الفسيحة ، لا سيما وهى مزدحمة .. والآن ، ها قد انتهت الدوقة ، فهلمى ! .. تنبهى الى أولى درجات السلم ، يا للعنة ! ما أشد الظلام خلف الستار ؟! » .. ثم مد لها يده ، فصعدت جين الدرجات ، وظهرت للجمهور المجتمع فى قاعة الموسيقى بقصر (اوفردين) .

وبدت قامتها اطول من المعتاد ، وهى تسـير منفردة على المنصة المرتفعة . وكانت مرتدية ثوب سهرة أسود خفيفا ، تزين صدره « دانتلا » قديمة ثمينة ، وعقد من اللؤلؤ أحاط بعنقها .. وتأملها الحضور - حين ظهرت - وصفقوا لها متريبين ، **اذ كان اسم « فيلما » فى البرنامج قد أثار فى نفوسهم آمالا ، فاذا بهم يرون فى مكانها الآنسة شامبيون ، التى كان من المؤكد أنها تتقن العزف جدا ، ولكن هذا لم يكن يعنى أنها تجيد الغناء ، وانها جديرة بأن تتطوع لاداء أغنية « فيلما »** .

ولو كان الحضور أكثر كياسـة ، لحيوها تحية تذكى من تحمسها ، ولعبروا عن تقدير كريم لمجهودها الكبير ، وعن أمل سخى فى نجاحها .. أما هؤلاء الحضور فقد أعربوا عن توجسهم فى تصفيقهم الفاتر .

وابتسمت لهم « جين » بنفس راضـية ، ثم جلست الى « البيانو » - وكان كبيرا من طراز بخشتلين - وألقت نظرة على عقود الورد البيضاء والصليب المصنوع من الورود الحمراء ، ثم وقعت النغم الاول فى معزوفتهـا ، وشرعت تغنى ، دون تلكؤ ولا مقدمات .

* * *

• **ورن** صـوتها العميق الكامل النبرات فى أركان القاعة الفسيحة ، فساد الحضور صمت شامل فجائى .. وأخذ كل مقطع يشق حجاب الصمت ، وقد انطلق به صوت حنون ذو عذوبة سلبت الالبـاب ، حتى كادت القلوب تكف عن الوجيب ، وقد غلبتها الانفعالات العاطفيـة الجياشـة .. أما أولئك الذين تغلغل سحر الاغنية الى اعماقهم سريعا ، فقد تجاوبت مشاعرهم بمزيد من العمق مع سحر الموسـيقى ، وأخذت جين تنشد :

« ان الساعات التى قضيتها معك يا قلبى العزيز ،

« لتتمثل لى كعقــد من اللآلىء ، أعــدها .. واحـــدة فواحدة ...
« انها مسبحتى .. مسبحتى ! »

وانسابت الكلمتان الاخيرتان همسا ـ برقة ، واستغراق ، وعذوبة ـ فى الصمت السائد ، تحملان عالما من الذكريات .. ذكريات امرأة وفية كبيرة القلب ، تستعيد لحظات ناعمة كانت لها فى المـاضى .. وأمسك المستمعون أنفـاسهم ، فما كانت هذه بأغنية .. انها خفقات قلب ، انبعثت فى نغمات عذبة ، انسابت لها الدموع من المآقى .. واذا الصوت ـ الذى أدى الابيات الاولى فى هدوء ـ يرتفع فى موجات سريعـة من الم راجف :

« كل ساعة لؤلؤة ، وكل لؤلؤة أدعية ،
« لتهدئة قلب يعتصره الغياب ..
« وانى لاحدث كل حبة .. حتى نهاية الحبات ،
« وهناك .. أجد صليبا مدلى ! »

ولقد ألقت بالكلمات الاربع الاخيرة بقوة وحرارة فجائيتين ، أرسلتا تيارا كهربائيا فى الحضور ، فاذا التوتر الذى نجم عنه ، يسرى الى الآذان ، فى لحظة الصمت التى أعقبت ذلك .. وفى اللحظة التالية ، انحدر الصوت الهادىء فى نعومة بالغة ، معبرا عن جلد يصمد للأزمات ولا يرهب مواجهة اقسى الآلام ، ولكنه مع ذلك ضم عذوبة فياضة ، أكسبها احتمال الاوجاع غزارة :

« يا للذكريات التى تبارك وتحرق !
« يا للكسب العقيم ، ويا للخسارة المريرة !
« انني أقبل كل حبة وأسعى جاهدة لاتعلم ..
« كيف أقبل الصليب .. أقبل الصليب ! »

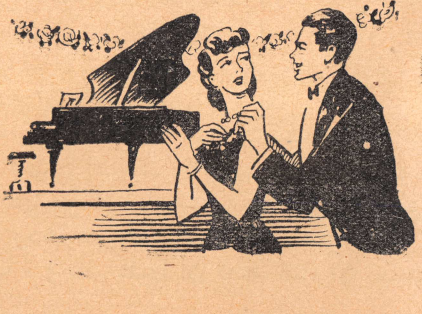
ولا يمكن لمن لم يسمع جين تغنى أغنية « المســبحة » ان

يتصور ما بلغته وهى تغنى : « اننى أقبل كل حبة » .. كانت نبرة الحنين والوجد ، تشي بحب ينبض بالانوثة ، والجمال ، والحب ، حتى لقد نسي الحضور شخص المغنية ، رغم أن بينهم من كانوا وثيقى المعرفة بها ، وغمرهم السحر الذى انساب من أدائها الاغنية !

والمقطوعة التى تبدأ بالعزف على وتر واحد ، تختتم بالعزف على وتر واحد . وقد وقعت جين النغم الاخير فى نعومة وخفة ، ثم نهضت وغادرت البيانو لتبرح المنصة ، واذا بعاصفة من التصفيق الحار تنطلق من المستمعين ، فأجفلت جين ، وترددت ، ووقفت .. ثم نظرت الى ضيوف عمتها وكأنها ذهلت لوجودهم . ثم أشرقت ابتسامتها البطيئة المألوفة فى عينيها ، وسرت منهما الى شفتيها .. ووقفت فى منتصف المنصة لحظة مرتبكة ، والخجل يكاد يغلبها ، ثم والت سيرها ، واذا بها تسمع أصوات الرجال تهتف : « مرة أخرى ! .. مرة أخرى ! » ، ولكنها غادرت المنصة .

* * *

• **ولكنها** لقيت خلف المسرح ، وفى ظلال الستائر ، مفاجأة أخرى هزت كيانها أكثر مما فعل هتاف جماهير السامعين .



فقد وقف ((جارث دالمين)) ـ عند اسفل الدرجات ـ ممتقع الوجه ، وعيناه تومضان كنجمين يحتـــرقان .. وظل برهة جامدا حتى هبطت الدرجة الاخيرة ، ووقفت الى جانبـه . وعند ذلك ـ وبحركة فجائية ـ أمسك بكتفيها ، وأدار وجهها نحوه قائلا : ((عودى !)) .. واجتذبت لهجته المرتجفة عينى ((جين)) الى عينيه ، فى ذهول أخرس .. بينما اســتطرد جارث مهيبا بها : ((عــودى حالا ، وانشـــدى الاغنية مرة ثانية ، كلمة فكلمة ، ونغمة فنغمة ، كمــا فعلت من قبل ، ولا تقفى هنا جامدة ! .. عودى الآن ! عـودى حالا ! .. الا تشعرين بأنك يجب أن تعودى ؟))

فنظرت جين الى عينيه اللامعتين ، وقرأت فيهمــا ما برر لهجة الامر التى كان يصدرها لها . فما كان منها الا ان صعدت الدرجات دون ان تنطق بكلمة واحدة ، وسارت ـ فى هدوء ـ على المنصة ، وجلست الى ((البيانو)) .. وكان القوم لايزالون يهتفون ، فضاعفوا من مظاهر اغتباطهم عندما ظهرت عــلى المنصة .. أما جين فقد جلست على المقعـد دون أن تعيرهم التفاتا ، وقد اجتاح كيانها شـعور غريب لم تحس بمثله من قبل .. فما حدث لها ـ فى كل حيــاتها ـ أن اطاعت أمرا صارما ، وكانت مربيتها ومعلمتها قد اكتشفتا ـ فى طفولتها ـ أن لا سبيل الى تنفيذ رغباتهما لديها بالامر ، بل كانتا تصوغان طلباتهما فى كلمات تعنيان بانتقائها ، أو رجاءات رقيقة تحرك مشاعرها وادراكها . وكان أى امر غير مستساغ ، أو أى أمر مستساغ ولكنه لم يرفق بايضاح ، يقابل بالرفض البات .. وقد ظلت هذه النزعة تلازمها ، وان خفت شدتها مع الايام .. بل ان الدوقة نفسها اعتادت أن تقول لها : ((ارجوك ياجين ..!))

ومع ذلك ، فها هو ذا شاب ذو وجه أبيض ممتقع ، وعينين ملتهبتين ، قد ردها على عقبيهــا دون مجاملة ، وأمرها بأن ترقى الدرجات ، وحتم عليها أن تعيد غناء الانشــودة نغمة

فنغمة ، وكلمة فكلمة .. فأقبلت تلبى أمره فى استكانة !

وعندما جلست ، صممت فجأة على أن لا تغنى «المسبحة» مرة أخرى . وكانت لديها قطع أخرى أبدع منها ، كما أن القوم كانوا يتوقعون قطعة جديدة ، فلماذا تخيب أملهم لكى تطيع أوامر شاب اشتد به الانفعال ؟ .. وبدأت تعزف المقدمة الرائعة لحن هندل : « الى اين تسيرين » ، ولكن شعورها بالحقيقة والانصاف تغلب عليها ، وهى تعزف .. انها لم تعد الى المنصة لتغنى ثانية ، بناء على أمر شاب مشبوب الانفعال ، وانما من أجل رجل بلغ التأثر به مبلغه ، وجاشت عواطفه بشكل لم يكن لها به عهد . كان تأثر « جارث دالمين » الى الدرجة التى نسى عندها ما اعتاد ان يحرص عليه من أصول اللياقة ـ ولو للحظة واحدة ـ اسمى تحية يمكن أن توجه الى فنها والى أغنيتها ؟ .. وبينما كانت تعزف لحن « هندل » ـ وقد أبدعت فى عزفها ، فكأنها فرقة موسيقية كاملة قد تجمعت على البيانو تحت أصابعها القوية الثابتة ـ فطنت فجأة الى كلمة « يجب » ـ التى وجهها اليها « جارث » ـ وان لم تكد تفقه معناها ، فعقدت العزم على أن تنصاع لما كانت توحى به من ضرورة . وحالما أتمت عزف المقدمة ، صمتت لحظة بدلا من ان تشرع فى غناء الانشودة الكبرى ، ثم تحولت تعزف افتتاحية « المسبحة » ، ونفذت ما أمرها به جارث :

« ان الساعات التى قضيتها معك يا قلبى العزيز ، لتتمثل لى كعقد من اللآلىء ، أعدها .. واحدة فواحدة .. انها مسبحتى .. مسبحتى !

« كل ساعة لؤلؤة ، وكل لؤلؤة أدعية ، لتهدئة قلب يعتصره الغياب .. وانى لاحدث كل حبة .. حتى نهاية الحبات ، وهناك .. أجد صليبا مدلى !

« يا للذكريات التى تبارك وتحرق ! .. يا للكسب العقيم ، ويا للخسارة المريرة ! .. اننى أقبل كل حبة واسعى جاهدة

لاتعلم : كيف اقبل الصليب .. أقبل الصليب ! »

ولمـا انتهت وتركت المنصـة كان جارث لا يزال جامدا بلا حراك فى اسفل الدرجات .. وكان وجهه ممتقعا كما تركته ، أما عيناه فقد زالت عنهما تلك النظـرة التى توحى بالدموع المكبوحة ، والتى دفعتها الى العودة للمنصة تحت تأثير أمره ـ دون ان تنطق بكلمة استفسار او احتجاج ـ واصبحتا تشعان بنور عجيب .. نور اعجاب متبتل ، مس قلب جين ـ لانها لم تر مثيلا له من قبـل ـ فابتسمت وهى تهبط الدرجات ، ومدت له يديها بحركة لا شعورية كلها صداقة ورشـاقة .. فخطا « جارث » الى أسفل الدرجات ، وأخذ يديها بين يديه ، وهى بعد فوق الدرجة العليا .. واحتواهما صمت ظل لحظة ، لم ينبس احدهما خلالها بكلمة واحدة ، ثم همس « جارث » فى صوت خافت ، يهتز انفعالا : « أواه ، يا الهى ! »

فقالت : « صه ! .. ما احببت قط أن أسمع اسم الله يذكر بهذه السهولة المرحة يا دال ! » .. فهتف : « يذكر بسهولة مرحة ؟ ! .. ما من كلام سـهل مرح ينطـاع لى الليلة .. » « كل منحة كاملة هى من فوق » ، فاذا كانت الكلمات تعوزنى للحديث عن هذه المنحة ، أتراك تعجبين اذا نطقت باسم المانح؟!» **فسددت « جين » نظراتها الى عينيه اللامعتـين ، وأشرقت عيناها بابتسامة طروب ، وقالت : «اذن فقد أعجبت بأغنيتى؟»** . **فأجابها جارث وقد انتشر على وجهـه سـتار من الحيرة : « أعجبت .. أعجبت بأغنيتك ؟ .. لست ادرى ان كنت قد أعجبت بأغنيتك ! »**

وسألته جين ضـاحكة : « اذن ، فلم هـذا الاسراف فى الاطراء ؟ » فأجاب هامسا : لانك قد أزحت القناع ، فاذا بى أنفذ الى الاعماق ! » .. وكان لا يزال ممسكا بيديها فى يديه ، حتى اذا نطق بالكلمتين الاخيرتين ، ثنى يديها الى أعلى برفق ،

وانحنى فقبل الابهامين بخشوع واحترام وحنان ظاهر .. ثم ترك يديها ودلف جانبا ، بينما مضت جين منفردة الى الشرفة !

الفصل السابع



• **لم** تقض « جين » سوى بضع دقائق فى قاعة الإستقبال، فى تلك الليلة . فان الهرج والمجون اللذين اخذا يسودان المكان لم يكونا يروقان لها ، كما ان الاطراء الذى انهال عليها ضايقها ، فتاقت الى هدوء حجرتها الخاصة لتفكر فيما انتهت به تلك الحفلة الموسيقية ، وما دار بينها وبين جارث خلف الستائر . ولم تكن موقنة من التأويل الذى يمكن أن يؤول اليه ذلك الموقف ، وانما شعرت بأن هناك عنصرا لا تستطيع أن تسبر غوره . كما أن موقف « جارث » الاخير معها ، أيقظ فيها مشاعر لم تفهمها . ولقد مجت ـ الى أقصى حد ـ تلك الطريقة التى لثم بها اصابعها ، **ومع ذلك فانه أودع ذلك التصرف فيضا من توقير متبتل دافق ، أوحى اليها بشعور من القداسة .. بأنها قد اختيرت لتبث فى قلوب الرجال ـ دائما ـ تلك النعمة الكاملة .. نعمة النغم الذى يسمو بالروح ويكسبها نبلا . ولكنها لم تقو على التخلص من الهزة التى أرسلها فى كيانها**

وقع شفتيه على أطراف أصابعها .. لكأنما خلف ذلك شيئا معقدا ومحيرا .. وفطنت – مرة او اثنتين – الى انها كانت تحملق فى أصابعها .. وفى المرة الثالثة صممت على أن تأوى الى حجرتها ! وفى هذه الاثناء ، كانت الدوقة قد اعتلت مقعد البيانو ، والتف حولها الجميع حتى حجبوها عن الابصار ، وهم يضحكون ويمرحون .. على أن « رونى » لم يلبث أن شق طريقه من جوف الحشد ليبحث عن شيء ما ، بينما ذهب « بيللى » مسرعا الى المكتبة ليأتى بورقة ، فأدركت « جين » بأن الورقة كانت لصنع باقة كهنوتية ، واستخلصت من ذلك أن هناك زيا تنكريا يعد للدوقة .

واستدارت جين فى سأم متجهة نحو الباب .. ومع انها كانت تمشى فى هدوء غير ملحوظة ، فقد سبقها جارث الى الباب .. ولم تدر كيف وصل الى هناك ، لانها – حين اعتزمت مغادرة القاعة – كانت قد لمحت راسه اللامع بجوار رأس « ميرا انجلبى » فى آخر الجمع الملتف حول الدوقة .. وفتح « جارث » الباب ، فمرقت منه جين وهى موزعة بين رغبتين .. فاما أن تقول له : « كيف تجرؤ على معاملتى بمثل هذه الطريقة غير اللائقة ؟ » .. أو أن تقول له : « أخبرنى بما تطلب منى أن أفعله ، لافعله ! » . غير أنها لم تقل له هذا ولا ذاك !

* * *

• **وتبعها** جارث الى البهو ، واشعل شمعة ، وطوح بالثقاب نحو تومى ، ثم أعطاها الشمعدان الفضى .. كان يذهب فى ابتهاجه الى درجة السخف ، فأحست جين باستياء من ابدائه هذا الابتهاج الذى كانت هى – دون قصد – سببه ، والذى لم تكن تشاركه اياه . **وشعرت بأن لا بد لها من ان تحطم هذا السكوت الودى ، فقد كان يشى بكثير من الأقوال التى لا سبيل الى قولها ، اذ لا سبيل الى النطق بها . فأخذت الشمعة منه**

فى شىء من الحدة ، وخطت الى الدرجة الثانية من السلم ، وهى تقول له : ((أسعدت مساء يا دال .. أتعلم أنه قد فاتك الاشتراك فى الحفل الكهنوتى ؟)) . فتطلع اليها ، وقد تألقت عيناه تحت ضوء الشمعة ، وقال لها : ((كلا . لم يفتنى شىء ولم يفتقدنى أحد ، وما كنت هناك الا فى انتظار صعودك ، ولن أعود .. اننى خارج الى الحديقة لاستنشق نسيم الليل البارد المنعش ، وسأقف تحت شجرة البلوط واتلو ادعياتى على حبات مسبحتى ، فما كنت أعلم قبل الليلة أن لى ((مسبحة)) ، ولكننى موقن الآن بأن لى .. مسبحة !))

وردت جين فى خشونة : ((بل الاصح أن لك دستة منها)) . فأجابها جارث : ((لقد جانبك الصواب فى هذا الرأى ، اذ ليس لى سوى واحدة .. غير ان لها ساعات عديدة ، وسأخلو الى نفسى فى الخارج الآن ، فاستعرض هذه الساعات ، وأحسب ما تحتويه منها كل لؤلؤة !)) . فسألته جين : ((وماذا تفعل بالصليب ؟)) . فكان جوابه : ((لم اصل بعد الى هذا .. ليس لمسبحتى صليب حتى الآن !)) . واذ ذاك ، ردت جين قائلة فى رقة : ((أخشى أن أصارحك يا دال بأنه لا بد لكل مسبحة حقيقية من صليب .. كما اننى اخشى أن يشق عليك الامر ، حين تعثر على صليبك !))

وبدا ((جارث)) مليئا بالثقة ، لا يساوره الخوف من شىء ، اذ قال : ((عندما أعثر على صليبى ، فاننى آمل أن استطيع ..)) . وعند ذلك ألقت جين نظرها ـ دون أن تعى ـ الى يديها ، فلمح جارث نظرتها وابتسم ، غير أن ما طبع عليه من سمو الخلق أرسل حمرة خفيفة الى وجنتيه . وقال متمما كلامه ((.. أن أواجه الصليب !)) . واستدارت جين لتصعد درجات السلم ، غير أن ((جارث)) استوقفها بسؤال كله لهفة : ((أرجو ان تنتظرى لحظة واحدة يا آنسة شامبيون ، فهناك سؤال اريد ان اوجهه اليك .. هل

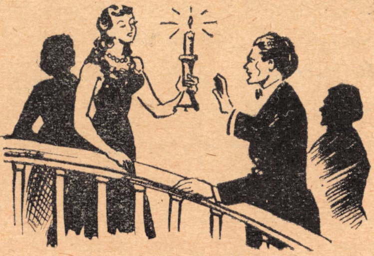
ألقيه عليك ؟.. هل ترينني وقحا ، متطاولا ، فضوليا ؟ » .
فأجابته جين : « بلا شك .. ولكنني الليلة ارى فيـــك كل الآراء غير المألوفة ، ومن ثم فان زيادة او نقصان ثلاث او اربع صفات ، لن يؤثر فى الامر ، فسل ما تشاء ! »

– يا آنسة شامبيون .. هل لك مسبحة ؟

فنظرت اليه جين فى جمود ، ثم أدركت فجأة مرمى سؤاله ، فقالت : « لا ، أيها الفتى العزيز ! شكرا لله ، فلقد بقيت نقية ، بعيدة عن « الذكريات التى تبارك وتحرق » ، وليس لشىء من هذه الاشياء ان يمتزج بحياتى المنتظمة المتزنة . كما اننى لا أشتهى ذلك ! » . فقال « جارث » عن تعمـــد : « اذن .. كيف أمكنك أن تغنى المسبحة ، وكأن كل سطر منها تجربة واقعية لك .. وكل سرور او ألم سنى – قد يكون انقضى عليه زمن – ولكنه منك وفيك ! »

ففسرت له جين الامر بقولها : « لاننى كلما انشدت أغنية عشت فيها ! .. ألم أخبرك بالدرس الذى تلقيته من « الانشودة الهندية » ؟ .. ومن ثم فقد كانت لى مسبحة ولا شك ، عندما كنت أغنى تلك الاغنية الليلة .. أما فيما عدا ذلك ، وبالمعنى الذى تقصده ، فكلا .. ليست لى مسبحة ، والحمد لله ! » .

وصعد « جارث » درجتين ، حتى صارت عيناه امام الشمعة ،



وقال لها بصوت منخفض : « ولكن اذا شئت أن تكون لك مسبحة ، أفهكذا تهتمين بها ؟ .. أفهكذا يكون شعورك ؟ » .
ففكرت جين ، ثم قالت : « أجل .. اذا شئت فسيكون اهتمامى دائما على هذا النسق ، وسأشعر بذات الشعور الذى كان يساورنى فى تلك الدقائق القلائل ! »

ـ اذن فقد كنت أنت بطلة الاغنية .. ولو أن الظروف التى أحاطت بالبطلة لم تكن ظروفك ؟

ـ نعم ، أظن ذلك .. اذا استطعنا أن نعتبر أنفسنا بمعزل عن الظروف المحيطة بنا . ولكن هذا اشبه بكرة هوائية (بالون) عديمة النفع ، ولا ريب .. سعدت مساء يا « سيد جارثى » !

ـ مهلا يا آنسة شامبيون، اسمحى لى بكلمة أخيرة .. هل لك أن تغنى لى باكر ؟ هل تأتين الى قاعة الموسيقى وتغنى لى كل الاغنيات الجميلة التى أرغب سماعها ؟ وهل تدعيننى أعزف لك أثناء الغناء ؟ .. الا عدينى بأن تحضرى .. وعدينى بأن تغنى لى كل ما أطلبه منك ، وان أمعن الليلة فى مضايقتك !

وظل واقفا فى مكانه ينظر اليها مترقبا وعدا منها ، وفى عينيه اعجاب طاغ ، اجفلت له « جين » ، بل وانزعجت وخيل لها فجأة بأنها قد وفقت الى الحل ، وبادرت بشرحه لنفسها وله ، اذ قالت : « أواه ايها الفتى العزيز ، يا لك من فنان ! ولكم يشق علينا نحن العامة ، العاديين ، أن نفهم طباع الفنانين !.. **وها انت ذا توشك على أن تدير رأسى بهيامك بما خيل اليك أنه كمال صوتى ، تغلغل فى نفسك خلال أذنيك .. تماما كما تتعبد مرارا وتكرارا فى معبد الكمال الشكلى الذى ينفذ الى نفسك خلال عينيك .. لقد بدأت أفهم كيف يتسنى لك أن تدير رؤوس النساء عندما ترسمهن !** .. على أنك فى ابتهاجك تبعث الابتهاج الى النفس ، فضلا عن أننى اريد أن آوى الى فراشى ، لذلك أعدك بأننى سأغنى لك باكر كل

ما تريد أن أغنى ، فبر بوعدك ولا تضايقنى بعد الآن ، فى هذه الليلة ، ولا تقض الليل طوله فى الحديقة ، واحترس لئلا تفزع الغزلان ! .. كلا ، لست فى حاجة الى أية مساعدة فى حمل الشمعة ، اذ اعتدت الصعود الى حجرتى منفردة ، فشكرا لك ! .. او لا تسمع الملاحظات الشخصـــــية التى يقولها تومى ؟ .. هيا اجر يا « سيد جارثى » ، واحص لآلئك ، واذا عثرت على صليب ــ مصـادفة ــ فاذكر جيدا أن من الممكن حمل الصليب ــ فى كافة الاحتمالات ــ على العودة الى شيكاغو ! »

* * *

• **وكانت** « جين » لا تزال تبتسم عندما آوت الى حجرتها ووضعت الشمعدان على منضـــدة الزينة . وكان قصر (أوفردين) ينار بالمصابيح والشموع ، لان الدوقة رفضت التجديد بادخال التيار الكهربائى . لذلك كان الشمع متوفرا جدا . ولما كانت جين تميل الى الضوء القوى ، فانها أضاءت الشمعتين اللتين كانتا مثبتتين الى جانبى مرآة منضـــدة الزينة ، والشمعتين اللتين كانتا فى حاملين مثبتين الى الحائط بجوار المدفأة ، والشمعتين اللتين كانتا فى شمعدانين فضيين طويلين ، على منضدة الكتابة .. ثم جلست فى مقعد مريح ، وتناولت حقيبة الكتابة فأخرجت منها مفكرتها اليومية وقلم الحبر ، وبدأت تدون حوادث اليوم ، فكتبت : « لقد غنيت « المســبحة » فى حفلة عمتى « جينا » ، بدلا من « فيلما » التى اصـــيبت بالتهاب فى الحنجـرة » .. ثم توقفت عن الكتابة .. كان من أصعب الامور عليها أن تدون المشـاعر التى ظلت تخالجها ، اذ أنها لم تكن تدرى كيف تصوغها . ومن ثم جلست تستعيد الموقف فى ذهنها ، قانعة بأن تترك الصفحة خالية من الكتابة !

وقبل أن تنهض ، فتغلق مفكرتها وتتأهب للنوم ، كان عليها – ارضاء لنفسها – ان تجلو الامر كله ، لقد كانت طبيعة « جارث » الفنية هي أساس النقاش الذي دار بينهما ، غير أن مزاج أهل الفن ليس – للاسف – أساسا متينا لتقام عليه النظريات ، ولا لترفع عليه صروح مصائر الاشخاص . ومع ذلك ، فقد كان على « جين » ان تقبله كعامل رئيسي في تكييف مجرى تفكيرها على الوجه التالي : **ان هذا الانفعال الذي هز « جارث » هزا عنيفا ، وقلقل هدوءها الراسخ بدرجة عجيبة ، لم يكن يتعلق بشخصها دائما في شيء ، اللهم الا من ناحية صوتها ومواهبها الموسيقية ..** تماما كما يجن جنون « جارث » ، اذ يرى جمالا يشتهي أن يرسمه ، فيغدو نهبا لنوبات جامحة اليأس والامل حتى ينال مآربه ، وبعد ريشته ولوحته ليرسم الصورة .. وهكذا استيقظت فيه ملكة الشغف بالجمال . ولكن يقظتها لم تأت عن طريق البصر – في هذه المرة – وانما جاءت عن طريق السمع . فاذا ما روت ظمأه الى الاغاني ، وسمحت له بالعزف ملازما لها ، فسوف يقنع ، واذ ذاك تزايل عينيه نظرة الاعجاب التي أقلقت هدوء نفسها . وفي الوقت ذاته ، لذ لها أن ترتقب ما يأتي به الغد ، وان راضت نفسها على ان كل هذا الاعجاب لم يكن ذا طابع شخصي بالنسبة لها .. كان من الجائز أن يندفع « جارث » في مثل هذه الفورة – او أكثر منها – مع « مدام بلانش » مثلا ، فقد كان لها ذات الطابع والصوت وطريقة الاداء ، فوق ما امتازت به من جمال يبهر الابصار كما كان صوتها يفتن الآذان ! .. وجدير بجارث أن يراها ويسمعها ، بعد أن بدا أنه يحفل كثيرا بالموسيقى !

وأخذت « جين » تدبر الفرصة التي تمكنه من ذلك ، ثم تحول تفكيرها الى « بولين ليستر » الفتاة الامريكية الحسناء التي اقترن اسمها باسم « جارث دالمين » طيلة هذا

الموسم . وداخل ((جين)) اعتقاد بأن ((بولين ليستر)) هي أصلح زوجة لجارث دالمين ، فان حســنها كان خليقا بأن يرضـيه ، كما أن ادراكها الصريح ، البعيد عن الرياء ، كان كفيلا بأن يتوازن مع مزاجه الفائر ، المنفعــل .. وكانت كياستها وقابليتها للتكيف تمكنانها من الاندماج في كل الاوساط التي كان يخالطها ، سواء في موطنه - في الشمال - أو بين أصــدقائه العديدين ، في الجنوب .. واذا ما تزوج ، فانه جدير بأن يتخلى عن هـذيانه عن ((فلاور)) و ((ميرا)) ، وتقبيل ايدي الناس بتلك الطريقة ... ((غير اللائقة)) ؟ ! لقد ترددت ((جين)) في وصفها بهذا الوصف ، وان كان وصفا صادقا لا شك فيه . ومع ذلك - ومع أن الامر كان بينهـا وبين نفسها - فقد آثرت أن تستبدله بلفظ ((غير العادية)) .. الطريقة غير العادية !

ثم اعتدلت في جلستها ، واسندت مرفقيها الى ركبتيها ، وبسطت يديها أمامها ، وابهاماها الى اعلى ، وقد عاودها ذلك الشـعور الذي هزها حين لثمهما ((جارث)) .. وفجأة انتفضت ، وصاحت قائلة : ((جين شامبيون ، لا تكوني بلهاء .. انك لتظلمين ذلك الغلام عابد الجمال - أكثر مما تظلمين نفسك - اذا انت حملت أي شيء يصـدر منه على محمل الجد .. ما كان اعجابه الليلة ذا طابع شـخصي ، الا بقدر ما يكون اعجابه بالعشاء الفاخر موجها الى كبير طهاة الدوقة .. انه - في اعجابه بالانتاج - يعجب ضـمنا بالمنتج ! هذا كل ما في الامر ! .. فاقنعي بنجاح فنك ، ولا تفســدي هذا النجاح بأية نزوات عاطفية سخيفة ! .. هيا اغسـلي يديك الخشنتين ، واندسي في فراشك !))

* * *

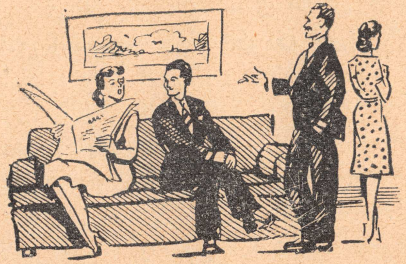
• **وتحت** شـجرة البلوط - والحشائش الطرية تحت

قدميه ــ وقف « جارث دالمين » والغزلان مستغرقة فى نومها حوله ، لا تحس بوجوده .. والنجوم تتلألا كأنها مصابيح معلقة فى زرقة السماء القاتمة . وراح يناجى نفسه بصوت خافت يفيض حرارة ووجدا : « لقدوجدتها .. المرأة المثالية ، تاج النساء ، واعظم شريكة لروح الرجل الذى يسعده الحظ بالفوز بها ، ولنفسه وجسده .. جين ! جين ! .. أواه ! ما كان أشد عماى ! .. كيف عرفتها منذ سنين طويلة ، دون أن أفطن الى حقيقتها ؟ ! .. **ها هى ذى قد أزاحت القناع ، فاستطعت ان أنفذ الى نفسها يا للقلب الكبير النبيل ! انها لن تقوى ــ بعد الآن ــ على اسدال القناع مرة ثانية بين روحها وروحى ! .. ثم أنها لم تؤت مسبحة ما ! أحمد الله لذلك .. لم يقدر لرجل آخر أن يستحوذ ــ فى الماضى أو فى الحاضر ــ على الشىء الذى اشتهيه اكثر من أى شىء آخر فوق ظهر البسيطة : حب جين ، وحنان جين ! ..**وما معنى ذلك ؟ « انني أعدها .. لؤلؤة ، لؤلؤة » ! .. لسوف تعدها يوما من الايام .. ستعد لآلئها ولآلئى ! .. وليجنبنا الله الصليب ، فهل من المحتم أن يكون لكل مسبحة حقيقية صليب ؟! .. اذن فليجعل الله من اشتراكنا فى حمل الصليب رباطا يشد كلا منا الى الآخر ! .. أواه ، يا ليديها الحبيبتين . أواه ، يا لعينيها الصريحتين الصادقتين ! .. جين ! جين ! .. حقا ، لقد كانت جين هى بغيتى دائما . رغم أننى لم أفطن الى ذلك .. لقد كنت مجنونا اعمى ! .. الذى أوقن منه هو أننى الآن مبصر ، بعد أن كنت أعمى فى الماضى .. ولسوف تظل جين معبودتى منذ الليلة ، وعلى مر الزمن ، والى الابد .. ان شاء الله ! »

وكان نسيم الليل يعبث بشعره الاسود الغزير ، وشع من عينيه بريق خاطف وهو يتطلع الى السماء تحت اشعة النجوم الساطعة .. أما جين فكانت فى هذه اللحظة بين النوم

واليقظة . وفجأة فطنت الى نقرات على النافذة ، **فغمغمت** قائلة : « هل من شيء تطلبه يا جارث .. سلـــنى ما تريد أفعله ! » .. ثم فطنت فجأة الى ما قالت ، فجلست فى ظلمة الليل ، وراحت توبخ نفسها فى ثورة وصياح : « أواه ، أيتها الحمارة العجوز ! اتدعين أنك عاقلة ورصـينة ، فى حين أن قليلا من التملق ، من غلام شغل قلبك به ، قد عبث برأسك تماما .. ثوبى الى رشدك فى الحال ، والا فابرحى (أوفردين) فى أول قطار فى الصباح ! »

الفصل الثامن



● **كانت** الايام التى تلت ذلك أياما ذهبيـــة لجين ، اذ لم يحدث خلالها ما يفسد استمتاعها بالتجربة الجـديدة غاية الجدة ، والعذبة اعجب عذوبة !

كان مسلك جارث ــ فى الصـــباح التالى ــ خلوا من كل انفعال ، مجردا من تلك المظاهر التى اربكت « جين » وحيرتها فى الليلة السابقة .. فقد أصبح هادئا أتم هدوء ، ولاح لجين أكبر ســـــنا مما اعتادت أن تراه منذ تعارفا . فلم تنتابه نزوات سن الســـابعة الا لماما ، حتى مع الدوقة ! .. فاذا سأله احدهم مازحا عما اذا كان قد بدأ المران والتأهب لحياة

زوجية مرتقبة بعد وقت قصـــــير ، أجاب : « نعم .. هو كذلك ! »

وسأله رونالد : «هل سنرى العروس فى حفلة شنستون؟ »

ـ اذ كان كثير من ضيوف الدوقة مدعوين الى حفلة لادى أنجلبى فى عطلة الاسبوع التالى ـ فأجابه جارث : « نعم . ستكون هناك » . وهنا صـاح بيللى بلهجة تمثيلية : « يا الهى ! .. عونك أيهـا القديس بندكت ، أفنأخذ هـذا القول على محمـل الجد ؟ » وكانت « جين » منصرفة الى تلاوة صحيفة الصباح ، على مقربة من « جارث » .. الذى بقى واقفا بجوارها ـ فرفعت وجهها عن الصحيفة ، ونظرت اليه قائلة فى لهجة لم يسمعها سواه : « اواه يا دال ! .. اننى مسرورة جدا .. هل استقر فكرك فى الليلة الماضية ؟ » . فأجابها جارث وهو متجه اليها ، حتى لا يسمع الحديث أحد سواهما : « نعم ، فى الليلة الماضية » .

ـ وهل للحديث الذى جرى بيننا ـ بعـد ظهر أمس ـ علاقة بذلك ؟

ـ كلا ، ليس لاى شىء مطلقا علاقة به .

ـ أكانت هى .. المسبحة ؟

فصمت جارث قليلا ثم أجابها دون أن ينظر اليها : **« انه الوحى الذى كشفته المسبحة .. اجل ! »**

وبدا لجين أن انفعاله المتأجج قد وضح لها الآن ، وان لها أن تستسلم الى نشوة هذه المرحلة الجديدة من الصداقة ، فقد كانت ســاعات الموسيقى ـ التى قضياها معا ـ متعة حقيقية .. وتبين لها أن لجارث مواهب موسيقية تفوق كل ما كانت تتصور ، فلقد أعجبت بلمساته الصحيحة القوية للبيانو .. اللمسات التى كان فيها رجولة لم يكن يشوبها خطأ ، ولم يكن يعتمد فيها على القدم لتبديل الانغام .. ورأت ان عزفه كان يفضـل عزفها من حيث الدقة والرقة .. أما

ما كان لصوتها عليه من أثر فى تلك السويعات الرائعة ، فقد طواه « جارث » فى نفسه ، ولم يفض لاحد بكلمة عن ذلك ، اذ كان قد ردع مشاعره ، وأغلق فمه ، بعدتلك الليلة البديعة، وقطع على نفسه عهدا — وهو تحت شجرة البلوط ، فى تلك الليلة — بأن يصبر أسبوعا ، قبل أن يتكلم . وقد عمل على تنفيذ العهد !

أما التجربة التى انطوت على طرافة ولذة عجيبة لجين ، فتمثلت فى شعورها بأنها صاحبة المكانة الاولى دون منازع ، لدى شخص ما .. وقد عمل جارث على انيشعرها بذلك . ولم يبدر منه ما يسترعى انتباه أى أحد ، ولكنها أدركت عن يقين أنها ما أقبلت مرة على حجرة ، الا أحس « جارث » لتوه بوجودها .. وما بارحت حجرة الا افتقدها ! .. **وكان هذا الاهتمام منه متكتما ، ابقا ، فلم يقدر لاحد أن يفطن اليه ، ولم يتعرضا لدعابات الاصدقاء ، ولا لانتقادات الدوقة ..** ومع ذلك فقد ظل تفاني « جارث » واخلاصه يحيطان بجين طيلة الوقت ! .. وللمرة الاولى فى حياتها ، تملك قلبها شعور عارم بأنها قد اصبحت الاولى فى بال شخص آخر ، فأوحى اليها هذا — بطريقة غريبة — بأن هذا الشخص الآخر ملك لها .. وأصبحت تسر وتزهو بكل ما كان يقول ويفعل ، وبكل ما كان عليه ! .. وفى السويعات التى قضياها معا فى غرفة الموسيقى ، تعلمت كيف تعرفه ، وكيف تفهم حبه الجياش للجمال وللطبيعة ، كما لم تفهمه من قبل !

* * *

• **تلك** كانت أياما ذهبية ، وكان الفراق ساعة النوم حلوا ، لانه كان يضيف شغفا شديدا ونكهة لذيذة الى بهجة اللقاء فى الصباح التالى .. كل ذلك دون أن تساور ذهن جين — طيلة تلك الايام الذهبية — اية فكرة عن الحب فى معناه المألوف .

وما كان جهلها بهذه الناحية منبعثا عن عدم خبرة بمثل هذه التجربة ، بقدر ما كان منبعثا عن انها كانت تجتاز تجربة أوسع نطاقا .. تجربة الشعور بشيء كان — فى حقيقته — تقليدا للواقع ، وهى تجربة عاقتها عن أن تتعرف على الحب ذاته ، فى الوقت الذى كان الحب يقترب فيه منها ، فى اسمى مظاهره !

ولم تكن « جين » قد اجتازت الاثنى عشر موسما الاخيرة ، دون أن تتلقى حوالى اثنى عشر عرضا للزواج منها .. فقد كانت وريثة ثروة طائلة ، وكانت قد تحررت من الاهل والاوصياء .. وكانت من نبت طيب ، وسلالة عريقة .. وكانت ثمة بضع خطبات من النوع الذى لا محيص عنه : خطبات من رجال فى أوسط العمر ، عدا الصلع والشيب على رؤوسهم ، وسئموا حياة العربدة فى المدينة ، وقد أوتوا دورا قديمة جميلة ينقصها — لسوء حظهم — من يتولين شئونها والعناية بها .. **هؤلاء تقدموا يطلبون يد النبيلة « جين شامبيون » بأساليب رجال الأعمال ، فكان رد النبيلة « جين » عليهم أن كانت ترمقهم من رؤوسهم الى أخمص اقدامهم — من كل ناحية ومن كل جانب — الى أن يشعروا بتفاهتهم .. ثم كانت ترفضهم فى هدوء ، بذات أسلوبهم ، أسلوب رجال الأعمال ..** وكان بين من تقدموا طالبين يدها اثنان أو ثلاثة من الفتيان الظرفاء ، كان لها فضل فى انقاذهم من الفساد ، وانتشالهم بعد ان كادوا يتمرغون فى حمأة اليأس والبوار التام .. هؤلاء الفتية فكروا — ونزعة عرفان الجميل تدفعهم — فى أن من الخير ان يعمل أحدهم على ضمها اليه ، لترعاه وتحافظ عليه فى استقامة واعتدال ، ولتهديه الطريق القويم ، وتبصره بما عليه أن يفعل ، وما ينبغى ألا يفعل ، و .. أجل .. لتسدد عنه ديونه ، وتكون له نوعا من الام الحنون التى لا تسف فى التقريع والتوبيخ .. ولهذا ، كان الواحد منهم يمسك بيدها الرحيمة ، ويضرع اليها ان تقبله زوجا لها ..

فكانت جين تجيبه بالصفع ، لمجرد أن جرؤ على لمسـها ، وتنصحه بالاقلاع عن الهوس !

وكان آخر من عرض عليها الزواج ـ أخيرا ـ قس كنيسة القرية المجاورة لاوفردين .. كان أعـزب ، وقد دأب عـلى تعذيبها بأحاديث طويلة مملة . فلما حضر ـ معتزما أن يتقدم بالعرض المنشود ـ كانت جين تجلس الى مائدة الكتـابة فى حجرة الاستقبال فى (أوفردين) ، فلم تر ان المناسـبة تدعو الى مبارحة هذا المكان . حتى اذا بدا للقس أن يبدأ حديثه ، استطاعت أن تتشاغل بالكتابة أو مراجعة بعض الاوراق .. وتهالك القس فى مقعد مريح بجوار المكتب ، ووضع احـدى ساقيه المعوجتين فوق الاخرى ، وضم راحتيه ملصقا أطراف اصابعه بعضها ببعض ، وشرع يرتل الجمـل الافتتاحية فى العرض .. وبدا ان « جين » ـ فى انهماكها فى شحذ اقـلام الرصاص ، وفحص سنون اقلام الحبر ـ لم تفقه ما كان يقول .. اذ انه حين ترنم بهذه العبارات : « ليس من أجل اغراض شخصية فحسب ـ ياعزيزتى الآنسة شامبيون ـ وانما من أجل خير أبروشيتى ، ولصالح رعاياها ، وللرقى بالجهد الذى تبذله الكنيسة .. » . **عندما قال هذا ، اخرجت جين من أحـد أدراج المكتب دفتر الاذون المصرفيـة ، قائلة : « من دواعى سرورى ان أكتب يا سيد بيلبيرى .. هل تجمع المال من أجل جرن المعبودية ، أو المنبر ، أو كتب جديدة للترانيم ، أو ماذا ؟ »** .

فأجابها القس بصوت مرتعش : « لقد أسأت فهم ما أقصـد يا سيدتى العزيزة .. ان ما أرغب فيه هـو أن اقودك الى المذبح ! » .. فقالت له جين : « يا عزيزى السيد بيلبيرى ، لا حاجة مطلقا لهذا ، فان مجرد حاجتك الى كساء جديد للمذبح ، كاف لان يقبل كافة المترددين على كنيستك على الاكتتاب .. وانى لعلى استعداد لان اعطيك ـ بكل سرور ـ اذنا بعشرة جنيهات لهذا الغرض ، فكثيرا ما ذهبت للصلاة فى كنيستك ،

لانني أستمتع كثيرا بالسير وحيدة فى هدوء عبر الغابات .. أما الآن ، فأنا أعلم انك تود مقابلة عمتى قبل مبارحتك الدار .. أنها فى « بيت الدواجن » تطعم طيـورها الغريبة ، فاذا خرجت عبر هذا الباب ، وسرت الى نهاية الشرفة ـ من الجهة اليسرى ـ فستصل الى بيت الدواجن حيث تجد الدوقة .. واقترح بأن تتجنب ذكر هذا الحديث لها ، فانها لا توافق أبدا على البذخ فى كسوة المذبح ، وقد يلقى كلانا منها تقريعا ، وقد أصرت على ان يصرف مبلغ التبرعات فى مشترى احذية لاطفال المدرسة . كلا ، أرجوك .. لا تشكرنى ، فأنا سـعيدة لان الفرصة قد أتاحت لى المساهمة فى أعمالك المجيدة التى تقوم بها فى هذه الانحاء ! »

ولقد فكرت جين ـ مرة أو اثنتين ـ فى مصير الإذن المصرفى ، وهل تقاضى القس قيمته .. وودت لو أنه اعاده لهـا بالبريد ممزقا الى قطعتين ، ومعه خطاب تفيض سطوره غضبا واستنكارا فلما أعاده المصرف اليها بعد دفع قيمته ، وقد حمل توقيع « ب . بيلبيرى » ـ بخط أنيـق كخط أبناء المدارس ، لا تشوبه بادرة تنم عن اشمئزاز ـ ألقت به فى سلة المهملات ، مشفوعا بابتسامة مرة !

كانت تلك هى عروض الزواج التى قدمت الى جين . فمـا تقدم اليها شخص للزواج عن حب حقيقى ، ولا شـعرت مرة بأنها تحتل الصدارة فى قلب أى شخص وحياته . أما وقد بدا الحب الذى يرقى الى درجة العبادة ، ينساب اليها فى حنـان من جماع كيان « جارث » ، ليحوطها ويلفها من كل جانب ، اذا بها لا تعرف سبب سعادتها ولا كنه وفائه . **وانما اعتبرت الشاب مدلها فى هوى امرأة أخرى ، ما كانت تحلم بأن تناهزها شبابا أو جمالا . وحسبت ان الالفة الوثيقة ـ بينهـا وبين « جارث » ـ صداقة قد تطورت حتى بلغت حدا أجمل وابدع من كل ما كانت تتصور !**

هكذا سارت الامور حتى جاء يوم الثلاثاء ، وتفرقت جماعة (أوفردين) ، فذهبت جين الى لندن لقضـــاء يومين مع آل براند ، ورحل جارث الى (شنستون) ، حيث اســتدعى على عجل ليلقى الآنسة ليستر وعمتها السيدة باركر بانجس .. وكان مقررا أن تنضم اليهم جين فى يوم الجمعة ، لقضــاء عطلة الاسبوع معهم .

الفصل التاسع



• **اتخذت** جين مكانها فى القطار ، حتى اذا تحرك من محطة لندن اضطجعت فى ركن من مقعدها ، وتنهدت فى ارتياح فقد لاحت لها الايام التى قضتها فى المدينة مملة وطويلة . وأخذت جين تستعرض تلك الايام مفكرة ، باحثة عن علة ذلك الملل .. كانت تلك الايام ملأى بالاعمال والمواعيد ، كما أن وجودها فى المدينة كان ــ فى حد ذاته ــ متعة لها ، عادة .. **فما الذى جعلهـــا تحس بالتململ ، وعدم الرضى ، والوحشة ؟!** وبحكم العادة ، كانت قد وقفت لدى بائع الكتب والمجلات ــ فى المحطـــة ــ لتنتقى مختاراتها الادبية المألوفة .. وقد اعتاد أصدقاؤها أن يتندروا فى أحاديثهم ، بأن جين لا تستطيع السفر ــ فى أقصر رحلة ــ دون ست من الصحف والمجـلات ، على الاقل .. ولـكن ، ها هى ذى الصحف والمجلات ملقاة أمامها ــ فى هذه المرة ــ

على المقعد المقابل لها ، دون أن تحفل بها . فقد راحت تستعرض أيام الثلاثاء والاربعاء والخميس ، وتعجب من انهـا لم تكن سوى حواجز دون يوم الجمعة ! .. ولكن ، ما أن أقبل يوم الجمعة أخيرا ، وما أن استقلت القطـار الى (شنستون) ، حتى اجتاحتها موجة من البهجة والسـعادة . فما سر تلك الايام الثلاثة ؟ .. لقد كانت « فلاور » - ليـدى براند - ساحرة ، وكان « ديريك » - زوجها - ودودا انيسا ، كالعهد به .. وكان الصغير « ديكى » باعثا للابتهـاج ، والرضـيع « بلوسوم » جميلا ، لا يشبهه فى جماله أحـد .. فماذا كان ينقصها ؟ »

وكأنما اهتدت الى الرد ، فابتسمت وقالت لنفسها : **« اننى أعرف السبب ، فكيف لم أفطن اليه قبل الآن ؟ .. لقد أسرفت فى الموسيقى فى الايام الاخيرة بأوفردين ، ويا لها من موسيقى ! .. لقد شعرت بالموسيقى تملأ حياتها ، فكان حرمانى منها سببا فى ذلك الشعور المبهم بالوحدة ! .. ولا ريب فى أننا سنحظى بالكثير منها لدى « ميرا » ، وسيكون « دال » هنـاك ليهلل طالبا الموسيقى اذا فات « ميرا » ان تقترحها ! »** . وبابتسامة ملؤها السرور والامل ، تناولت صـحيفة « الاسبكتاتور » ، وانهمكت فى تلاوة مقال عن مشكلة جنوب أفريقيا

وعند بلوغها المحطة ، كانت « ميرا » فى انتظارها ، تقـود عربة ذات مقعدين يجرها مهران صغيران . وكانت ثمة عربة أخرى - صغيرة - لتقل الوصيفة والمتاع .. ولم تضيع جين وقتا ، فاستقلت مع « ميرا » العربة الاولى ، التى انطلقت بهما مخترقة القرية ودروبها بسرعة فائقة .. وكانت الحقـول والغابات مجللة بخضرة يانعة ، وقـد استلقت تحت شمس الظهيرة ، ووشيت الاسـيجة بالورد البرى ، بينمـا كانت الشحنات الاخيرة من الدريس تنقل الى المخازن . وكان تغريد العصافير يبعث فى النفس فيضا من المرح والابتهاج ، كما غمر

نفس « جين » شعور طاغ بعذوبة منظر الحقول وعطرها الزكي ، مما لم تذكر له مثيلا فى النضارة والبهاء . فراحت تعب انفاسا طويلة من الهواء ، وهى تصيح فى مرح : « ما أبدع ان اكون هنا ! »

فأجابتها « ليدى انجلبى » وهى تهز السوط فى يدها ، وتومىء بالشكر ردا على تحيات الاحترام التى كانت ترفع اليها من الحقل : « اجل يا عزيزتى .. ان من دواعى سرورنا ان تكونى بيننا ، فأنا اشعر دائما بأنك كالنغم المنخفض فى الموسيقى .. شيء متماسك ، باعث على الرضى والانشراح فى أوقات الضيق .. انى أكره الازمات والضيق ، فهى مرهقة . وكثيرا ما أقول : لم لا تسير الامور دائما على وتيرة واحدة .. انها خليقة بأن تسير على ما كانت ، وعلى ما سوف تكون عليه ، اذا لم يتدخل الناس فيها . على اننى اوقن من انه لا سبيل الى ان يتطور اى شيء نحو السوء ، عندما تكونين انت على مقربة منه ! » .. وعند ذلك لسعت « ميرا » المهر الامامى بسوطها ـ وكان قد تلكأ طمعا فى قطعة من السكر ـ فطارت بهما المركبة بين الاسوار المرتفعة ، محتكة بالاغصان وزهور العسل والنباتات المتسلقة ، وقد مدت جين يدها وقطفت زهرة منها قائلة : « هذه هى بهجة المسافر ! » .. وافتر ثغرها عن ابتسامة هادئة تطفح ببهجة واستبشارا ، ثم غرست الزهرة فى عروة سترتها .

واستأنفت الليدى انجلبى الحديث بقولها : « وبعد .. فان ثلة الاصدقاء سادرة فى مرحها ، وجميعهم على أحسن حال .. وبهذه المناسبة ، يخيل الى يا جين ان هناك شيئا غير عادى قد أصاب « دال » ، وكم يسعدنى لو ان الامر انجلى تحت سقف دارى ، فان الفتاة الامريكية ساحرة ، جذابة .. أنها رائعة .. ببساطة ! **ولقد اقلع « دال » عن الهزل والمجون ـ وليس معنى هذا اننى كنت أعتقد فيه ذلك ، بل انه كان**

اعتقادك انت ـ فهو الآن دائم السكون ، ويبدو كثير التفكير ، ولو لم نكن على علم تام بطبيعته لقلنا انه أصيب بتبلد ! ..
انهما يطوفان معا بكل مكان على أليق وجه ، وكم تحايلت على العمة لتبدى لى رايها ، فشد ما اخشى ان ترفض « دال » خطيبا لابنة اخيها ، وهو كما تعلمين سريع الغضب ! .. وقد وعدت « بيللى » بأن اعطيه اى شيء ـ ولو نصف مملكتى ـ اذا ثابر على الجلوس عند قدمى السيدة باركر بانجس ، لينصت الى حكمتها ، وليجيب عن اسئلتها ، حتى يبعدها عن دال . ويخيل لى بأن بيللى متحمس فى اداء مهمته ، فهو بادى التفانى فى اهتمامه بالسيدة باركر بانجس ، حتى بدات اوجس خيفة من ان يسألنى قبلة ، جزاء خدماته . وفى هذه الحال سأسلمه لك لمعاقبته ، لان لك مقدرة على معاملة هؤلاء الاولاد بمهارة ممتازة .. **اعتقد ان دال سيتقدم الليلة بطلب يد بولين ليستر ، ويدهشنى انه لم يفعل ذلك ليلة امس ، فقد كان القمر متلألئا ، وكانا معا عند البحيرة .. فماذا يريد « دال » اكثر من ذلك : البحيرة ، وضوء القمر ، والفتاة الحسناء ؟ ..**
وقد اصطحب بيللى السيدة باركر بانجس فى قارب لا يتسع لغير اثنين ، وكاد يغضبها ، اذ طفق يضحك لما راحت تقوله له ، من جراء اضطرارها للجلوس فى قاع القارب .. ولقد تحايل بمجدافيه حتى وصل بها الى الناحية الاخرى من البحيرة ، بعيدا عن المكان الذى كان به « دال » وابنة اخيها ، وهذا كل ما كان مطلوبا منه ! .. لقد سألتنى السيدة باركر بانجس ـ بعد ذلك ـ عما اذا كان بيللى ارملا .. فماذا ترينها تقصد من ذلك ؟ »

فأجابتها جين : « ليست لدى اتفه فكرة ، غير ان سرورى لا يوصف لما تذكرين عن دال والآنسة ليستر ، اذ انها الفتاة المثالية له . ولسوف يسهل عليها ـ بعد قليل من الوقت ـ ان تكيف نفسها وفقا لحاجاته واهوائه . فضلا عن انه لا غنى

لدال عن الجمال الخالص من كل عيب ، وهذا مايجده فيها » .
فقالت ميرا : « هو ذلك حقا .. كم كنت أتمنى لو انك كنت معنا ليلة الامس ، ورأيت بولين فى ثوبها الحريرى الابيض ، والورود البرية منثورة فى شعر رأسها .. لا يمكنني أن اتصور كيف أن دال لم يهرف جنونا بهذا الحسن الباهر . لعلها بادرة حسنة ، توحى بأنه قد يحزم رأيه سريعا . واحسبه الآن مقدما على أن يعقد العزم ! » . فأجابتها جين : « كلا ، بل أعتقد أنه قد عقد العزم منذ كنا فى (أوفردين) ، وان الامر قد استحوذ الآن على كل مشاعره ، فهو يسير نحو اتمام الزواج فى عزم وتصميم . والآن خبريني عمن لديك فى شنستون ! »

وأخذت ليدى أنجلبى تسرد لها بيانا طويلا بأسماء من قدموا ، ونزلوا ضيوفا على قصر (شنستون) . وكانت جين تعرفهم جميعا ، فقالت : « بديع ، لكم أنا سعيدة بالحضور .. لقد كان الجو حارا فى لندن الى درجة تزهق الروح ، وما خطر لى اننى قد ألقى يوما طقسا بهذه الحرارة .. لكم أشعر بأننى بعيدة عن الدين . آه ، ها هى ذى الكنيسة الصغيرة الجميلة ! ولكم أود سماع الارغن الجديد ! .. سرنى جدا أن القس اللطيف قد تذكرنى عند جمعه التبرعات ، فأتاح لى فرصة المساهمة .. خبريني ، هل الارغن مزدوج المفاتيح أو ثلاثيها ؟ » .. فأجابتها ليدى انجلبى : « بل ان له ستة صفوف من المفاتيح ويمكنك تحريكها الى أعلى أو الى أسفل قدميك .. على أننى رأيت — حين عزفت فى قداس الاطفال يوم الاحد — ان اتجنب تحريك شىء منها ، فمن الصعب على العازف معرفة ما قد يحدث اذا هو لمس تلك القطع الآلية ! »

وقالت « جين » مصححة التعبير : « تقصدين ركازات الاقدام » .. فأجابتها ميرا فى هدوء : « أظن هذا ما أقصد .. تلك الاشياء الموجودة فى أسفل وكأنها مساند للقدمين .. انها تحدث اصواتا مزعجة ، اذا ما صدمت القدم احداها ! » .

فابتسمت جين وهى تتصور حال « جارث » ، لو أنه سمع هذا الحديث .. لابد وأنه سيلقى رأسه الى الخلف ، صارخا ، اذا هى أنبأته بهذا الحديث . فقدكانت أحاديث ليدى انجلبى الموسيقية ، مبعث تفكهة لجميع أصدقائها !

***

• ومرتا بعربتهما أمام كنيسة القرية ، التى كانت مقامة بين المروج الخضراء ، تكسو جدرانها اغصان اللبلاب فتضفى عليها نضارة وبهاء .. وبعد نصف دقيقة ، فتحت أمامهما أبواب حديقـــة قصر آل أنجلبى . ولمحت ميرا النظرة التى ألقتها « جين » على اعمدة الابواب الحديثة الطلاء ، فضحكت وقالت : « خطوة مطمئنة خير من ميل ! » . ووجهت المركبة — خلال الباب الكبير — الى الطريق الطويل ، تحت أشجار الدردار الباسقة . ثم أردفت : « هذا ما قالته أمى يوم ان ثارت على بسبب ما دعته « الجنون فى القيادة » .. بهـذه المناسبة يا جين ، أريد أن أبلغك أن امى العزيزة قد تبدلت : فصارت مفرطة اللطف معى ، ويخيـــل الى أنها قد تبدأ تميل الى وتتعلق بى ، عندما أبلغ السبعين من عمرى وتكون هى فى الثامنة والتسعين .. ها نحن قد وصلنا ! أرجو أن تهتمى بالخادم « لوسون » ! لقد التحق بخدمتنا أخيرا ، وهو على جانب وافر من الظـرف .. يجيـد الغنـاء ، ويعزف على « الكونسرتينا » ، ويلقى دروسا فى مدرسة الاحد ، ويتحدث ببلاغة وافرة فى حفلات مقاومة الخمور .. وهو مغرم بقص الحشائش ، وقد ابلغتنى خادمتى انه يتعلم الفرنسية معها .. ان الشى الوحيد الذى يبدو عاجزا عنه ، هو أن يكون رئيسا للخدم ، وهو عجز يؤسف له ، لاننى اميل اليه جدا ، ولا أود أن يترك خدمتنا .. ان « مايكل » يقول ان لى عادة جد سيئة ، هى الاعجاب بالناس ، وتشجيعهم على عمل الاشـياء التى

يجيدونها ويميلون لها ، بدلا من أدائهم ما هم مكلفون به . وأرى أنه على حق فى ذلك ، غير اننى أحب دائما أن أرى جميع أتباعى سعداء » .

وهبطتا من المركبة ، فسارت « ميرا » الى البهو متهادية فى تراخ وتباطؤ لا يتمشيان مع الطريقة التى كانت تقود بها جواديها الصغيرين .. ونظرت جين باهتمام الى الخادم الذى سارع الى استقبالهما فى صمت ، فلم تستشف فيه مظهر رئيس للخدم ، كما أنها لم تستطع أن تتصور أنه يعزف على « الكونسرتينا » ، أو يخطب فى اجتماع لمناهضة الخمور ، وان تصرف فى تعاظم واعتداد بالنفس . وشرحت لها « ميرا » الامر ، وهى تتقدمها الى السلم : « هذا ليس لوسون .. آه لقد سهى على ان أذكر أنه قد كلف بالذهاب الى القس ـ بعد ظهر اليوم ـ بشأن قداس للترانيم يريدون اقامته .. أما هذا ، فاسمه « توم » ، ونحن ندعوه هنا « جيفسون » .. كان يعمل ـ من قبل ـ سائسا عند « مايكل » ، ولكنه عقد خطبته على احدى خادماتنا ، وتبينت فيه ميلا شديدا للبقاء فى خدمتنا ، فاتفقت على أن يدرس على « لوسون » أصول العمل ، وبدأ يطلق شعر سالفيه على صدغيه . لسوف اروى ذلك لمايكل لدى عودته من النرويج .. هنا الطريق يا جين ! لقد أعددنا لك حجرة « المانوليا » ، لاننى أعرف أن شغفك بمنظر البحيرة ! .. لقد نسيت أن اذكر لك انه ثمة مباراة دورية فى التنس تجرى الآن ، ولابد لى من أن أسارع الى الملعب .. أنهم الآن يقدمون الشاى تحت أشجار الجوز ، ودال وورونى يلعبان الدور النهائى لفردى الرجال ، وسيكون لعبهما ممتعا .. ان الموعد المحدد لهما هو الساعة الرابعة والنصف ، فلا تتريثى لابدال ملابسك ، لان خادمتك وأمتعتك لم تصل بعد ! » .

فأجابتها جين : « شكرا ، اننى أسافر عادة بملابس الريف ، وقد فعلت ذلك اليوم ، كما ترين .. ولن أفعل أكثر من أن

أزيل عنى غبار السفر ، ثم ألحق بك سريعا »

وبعد بعشر دقائق ، أخذت جين طريقها ــ بين الاشجار ــ الى ملعب التنس ، مهتدية بأصوات الهتاف والضحك .. وكان كل ضيوف ليدى أنجلبى مجتمعين هناك فى جماعات منسجمة تحت أشجار الجوز البيضاء والقرمزية .. وفى آخر الملعب ، كان الحماس متقدا حول اللاعبين . فلما اقتربت جين منهم ، وقع نظرها على « جارث » بقامته الممشوقة ، مرتديا بنطلونا من الصوف الابيض وقميصا بنفسجيا ، وأمامه الشاب رونى بجسمه الضخم القوى ، وقد راح يلعب واثقا من قوة تسديده الكرات وصده اياها ، فى مقابل ما امتاز به جارث من نظر حاد ، وسرعة فائقة فى تداول المضرب بين يديه ! .. وكانت مباراة بديعة ، وقد كسب جارث الجــولة الاولى ، بســت اصابات فى مقابل اربع . وقد تحول ميزان اللعب ــ فى الجولة الثانية ــ الى خمس اصابات لصالح رونى وأربع فى صالح « جارث » ، وحان دور هذا ليكون البادىء باللعب ، فكان واثقا من أنه سيكسب الجولة ، فيصبحان متعادلين

وهنا سارت جين بجوار صف المقاعد ، حتى وجدت مقعدا بجوار « ميرا » ، فحياها المتفرجون باغتباط ، ولكن فى عجلة ، لانصرافهم الى تتبع اللعب . **وفجأة دوت صيحات عالية ، اذ أن « جارث » خسر نقطتين .. وكانت جين قد جلست فى مقعدها وعيناها متجهتان الى الملعب ، فى اللحظة التى ارتفعت فيها صرخات الدهشـــة من النظارة ، فقد أصــابت احدى كرات « جارث » الشبكة ، وانطلقت اخرى خارج الملعب .. وانتهت الجولة لصالح رونى !** . فصاح بيللى : « لقد تعادلا .. اننى لم أر « دال » يلعب بهذا الشكل من قبل ، وسيتيح لنا هذا أن نشاهد جولة أخرى .. انهما صنوان من قوة واحدة فدال كالبرق ورونى كالرعد ! »

وفى الجــــولة التالية تبادل اللاعبان مكانيهما ، وظهــر

وجه « دال » ممتقعا – رغم بشرته الملوحة – وقد لاح غاضبا من نفسه لفشله فى تسديد الكرات ، فى تلك اللحظات الحرجة من الجولة السابقة .. وما كان غضبه من نفسه لخسارة الجولة ، قدر غضبه عليها لما اعتقده من أن المشاهدين قد لاحظوا النظرة التى القاها من طرف عينيه الى شخص طويل يرتدى ثيابا رمادية ، سار فى هدوء بطول صف المقاعد ، مما جعل الدنيا تميد أمامه وتضطرب ، واختلطت فى نظره السماء والارض ، وامتزجت الشبكة بالخطوط .. **والواقع أن أحدا لم يفطن الى هذه الظاهرة التى جمعت – فى لحظة واحدة – بين خسارة « جارث » ووصول « جين » ، سوى تلك الفتاة الحسناء التى كانت جالسة امام الشبكة ، والتى بادلها « جارث » ابتسامة ، وهمس لها بكلمة ، عندما سار فى طريقه ليتبادل المركز مع رونى !**

وكانت الجولة الاخيرة أكثر الجولات الثلاث اثارة للمتفرجين . فقد سجل اللاعبان تسع اصابات اكتسباها بجهد شاق ، خمسا لجارث ، وأربعا لرونى .. ثم آن لرونى أن يكون البادىء بالرماية ، فراح يناضل لاحراز التعادل . وتكررت صيحات السخط من أنصار كل منهما كلما افلتت منه فرصة ، حتى كسب « دال » ضربة جزاء ، اذ وجه « رونى » رمية رائعة ، صدها « دال » ، فصاح أنصار الآخر : « يا للشيطان ! » . وهنا قالت السيدة باركر بانجس لبيللى ، الذى كان جالسا على الحشيش ، عند قدميها : « ألا تشعر بدوار من هذا اللعب ؟ .. أرى أن الصراع بينهما قد طال كثيرا ، وكلاهما فى حاجة الى قدح من الشاى .. كان الاحرى بالسيد دالمين أن يترك تلك الكرة تمر دون أن يتعرض لها » . فقال بيللى : « أليس كذلك ؟ .. ولكن « دال » ليس رحيما ، بطبيعته فى اللعب ولو كنت ألعب مكانه ضد رونى ، لافلتت كراته الصاروخية

من مضربى عدة مرات ! » . فقالت السيدة باركر بانجس : « اننى واثقة من ذلك » ..

وعند ذلك مالت جين نحو بيللى - بناء على اشارة من ميرا - وقرصته !

وتبودلت الكرة مرات بين اللاعبين واشتدت الهتافات : « يا للشيطان ! » ، فاعترضت السيدة باركر بانجس قائلة : « لا يليق بهم ان يرددوا هذه الكلمات ، مهما ينتابهم من حماسة جنونية! » . فضم بيللى ركبتيه بيديه مبتهجا ، ونظر اليها وعلى وجهه سمات البراءة الملائكية ، ثم غمغم قائلا : « أليس هذا موجبا للاسى ؟ .. اننى لا أنطق بكلمات نابية عندما ألعب ، بل أنادى دائما بالتعادل ، فذلك على ما أعتقد ارق وأظرف ! » . فقرصته جين مرة أخرى ، ولكن نظرات بيللى الى السيدة باركر بانجس لم تتحول عنها ، فقالت له ميرا بشدة : « بيللى ، اذهب الى البهو ، واحضر لى مظلة الشمس الحمراء .. ولو اننى أعلم ان النهاية ستفوتك ! » .. قالت ذلك فى همسة صارمة ، عندما مال نحو مقعدها ، ثم اردفت قائلة : « ولكنك تستحق كل ما يلحق بك ! »

ولما عاد بيللى لاهثا - بعد ثلاث دقائق - ووضع المظلة على ركبتى ليدى أنجلبى ، همس فى أذنها قائلا : **« لقد قررت ما سأطلبه منك يا صاحبة الجلالة .. لقد وعدتنى بأى شىء - حتى نصف مملكتك - غير أننى اطلب رأس السيدة باركر بانجس فى طبق ! »** . فصاحت به جين : « آه ، اصمت يا بيللى وابتعد من أمامنا ، فقد أضعت علينا مشاهدة هذه الضربة الاخيرة .. ما هى النتيجة الآن ؟ »

وكانت هذه الجولة فى صالح « جارث » ، واذا يد « رونى » تمتد مسددة ضربة عالية ، لم يتسن لجارث ردها وهنا دوى صوت بين ضوضاء النظارة ، قائلا : « هلم والعب يا دال ! » . **وعرف دال ذلك الصوت الحبيب فلم ينظر الى**

مصدره ، ولكنه ابتسم . وفى اللحظة التالية ، سـدد ضربة كوميض البرق ، فلمست الكرة الارض بجوار الشبكة ، ومرقت من جانب رونى الى آخر أرض الملعب ، مندفعة فى انخفاض . وباءت محاولة رونى اللحاق بها بالفشل ، واعلنت النتيجة النهائية بانتصار « جارث » .. وخرج اللاعبان معا من الملعب، جنبا الى جنب ، ومضرباهما تحت ذراعيهما ، وحمرة الاجهاد تطفو على وجهيهما الجميلين . كان الفارق بينهما جد ضئيل ، حتى أن نشوة النصر ملأت قلبيهما معا ، على السواء .

* * *

• **وكانت** بولين ليستر جالسـة وعلى حجرها سترة « جارث » ، كما كانت تحتفظ له بساعته وسلسلتها .. فتوقف جارث بجوارها لحظة ليأخذ متاعه وليتقبـل منها التهنئة ، ثم ألقى بسترته فوق كتفيه ، ودس ساعته فى جيبه، واسرع متجها الى جين ، هاتفا : « كيف حالك يا آنسـة شـامبيون ؟ » . والتقت عيناه الملهوفتان بعينيها ، فسره ما رآه فيهما من فرحة اللقاء والترحيب ، وملأه ذلك ثقة ورضى .. ذلك لانه كان يحس فى غيابها بوحشـة بالغة .. الثلاثاء ، والاربعاء ، والخميس .. ان هذه الايام الثلاثة كانت تقف كحجر عثرة أمام يوم الجمعة ! .. ولقد ملأ فكره العجب: كيف يمكن أن يؤدى غياب شخص ما الى مثل هذا التأثر ؟ .. ومع ذلك ، فما كان أجدر ذلك بأن يحدث ، حتى يفطنا معا اليه ! .. **لقد حان اليوم الذى اعتزم فيه أن يذكر لها كيف انه كان بحاجة ماسـة ، مستيئسة ، الى أن تظل معه على الدوام ! .. أجل ، لقد أدركا معا ذلك ، فقد أيقن « جارث » من أن جين أحست مثله بالفراغ .. ان شعورا عارما ، جبارا ، بالشوق والحنين ــ كذلك الذى أضناه ــ لا يمكن أن يكون من جانب واحد ، فما أعظم وأثمن التجربة التى مرت بهما فى**

أيام الوحدة .. لقد تلقيا فيها درسا عما تعنيه كلمة ((معا)) ، ولم يبق الآن سوى أن تخرج الكلمات من الأفواه ، لتضمن لهما ان لا فراق بعد ذلك ، الى الابد !

مرت كل هذه الخواطر بذهن جارث وهو يحيى ((جين)) بأتفه تحية انجليزية .. بالسؤال عن الحال ، ذلك السؤال السرمدى الذى لا يلقى جوابا قط !

أما ((جين)) ، فان تحية ((جارث)) لم تبدو لها تافهة – فى تلك اللحظة – فأجابت عليها فى وضوح وجلاء . وكانت تبغى – فوق كل شىء – أن تنبئه بكل ما لاقته ، وأن تسمع كل شىء عن نفسه ، وأن تقارن بين أقوال كل منهما عن احداث هذه الايام الثلاثة – التى لم تكن تبدو لها نهاية – وان يستأنفا صداقتهما الوثيقة ، من حيث تركاها .. وامتدت يدها الى يده فى تماسك شديد ، أوحى الى ((جين)) بالرضى ، وبالود الصحيح . واجابت عن سؤاله : **((اننى فى أحسن حال ، فشكرا لك يا دال .. أو بالاحرى ، اننى اشعر باطراد التحسن فى صحتى وروحى المعذبة – فى كل لحظة – بعد أن وصلت الى هنا أخيرا !))**

وأسند جارث مضربه الى ذراع مقعدها ، واستلقى على الحشيش بجوارها متكأ على مرفقه ، ثم سألها بصوت خافت ، دون أن يتطلع اليها ، بل ظل محدقا فى حذائها الداكن الرشيق ، الذى كان مستقرا فوق الارض بجانب يده : ((هل حدث ما عكر عليك ايام اقامتك بلندن ؟)) . فأجابته جين فى صراحة: ((كلا ، لم يكن العيب عيب لندن .. ومع أن الطقس كان حارا أغبر ، الا ان المدينة كانت بديعة كالمعتاد .. على أن العيب كان فى نفسى ، واحسبك ستخجل منى يا دال اذا اعترفت لك به !))

فلم يرفع عينيه اليها ، بل انهمك فى التقاط بعض عيدان الحشائش وترتيبها فى أشكال زخرفية على حذاء ((جين)) ..

وما كان ليدور بينهما حديث غير هذا لو أنهما كانا وحيدين ، فهل كانت « جين » مزمعة ـ حقا ـ أن تعلن على مسمع من الجميع ، وبذلك الصوت الحبيب الرنان ، ذلك السر العذب .. سر افتقاد كل منهما صاحبه ؟

على أن صـــوت السيدة باركر بانجس ارتفع فجأة ، فى تساؤل : « كبد ؟ » . فأجابها بيللى صـــائحا : « كلا ، بل فطائر ! » .. ثم هرول فأحضر لها عددا منها ، ودفعها اليها ، وقد كاد ـ فى تلهفه الى ارضائها ـ أن يلقى بها فى حجر السيدة ، اذ تعثر وهو يهرول بقدمى جارث ! ..

وحملقت « جين » فى السيدة باركر بانجس وفطائرها ، ثم حولت راسها ناظرة الى رأس « جارث » وشعره الاسود اللامع . وتأملته وهو يعبث بالحشائش ، ثم قالت : **« كنت متبلدة ، مكتئبة الى درجة لا تطاق .. ولقد اعتاد دال أن يقول ان التبلد لا يعترى الا البليد بطبعه . ولكنى حللت تبلدى ـ وأنا فى القطار قادمة الى هنا ـ فاكتشفت أن مبعثه هو « دال » نفسه .. أتسمعنى يا دال ؟ »**

ورفع « جارث » راسه ، ونظر اليها وقد تبين ـ فى هذه اللحظة ـ ان من الممكن أن تكون التجربة الجائحة ، العنيفة ، من جانب واحد فقط .. اذ بدت عينا « جين » الرماديتان هادئتين ، مفعمتين بصداقة مرحة . فقالت له جين : « لقد كان الذنب ذنبك يا بنى العزيز » .. ومع أن وجه « جارث » تضرج بحمرة شديدة ، الا أن صـــوته بدا هادئا ثابتا ، وهو يتساءل : « كيف كان ذلك ؟ » .. فأجابته : « لانك أغرقتنى ـ فى الايام الاخيرة فى (أوفردين) ـ فى دوامة من الموسيقى ، لم يكن لى عهد بها من قبل ، فافتقدتها ـ بعد الرحيل ـ الى درجة كانت تبعث على الانزعاج حقا .. حتى لقد بدأت أخشى على اتزان عقلى وهدوئه ! »

وهنا تدخلت « ميرا » ، وهى تطل برأسها من خلف مظلتها

الحمراء ، وقالت لجين : « اذن ، ففى وسعك ودال ان تنعما بكل عربدة موسيقية هنا ، فستجدان « بيانو » فى قاعة الجلوس ، وآخر فى البهو ، و « بيانو » كبير من طراز بخشتاين فى قاعة البليارد ، حيث أعقد دروس التدريب للخدم والخادمات .. والحقيقة التى لم أهتد بعد الى أى نوع أفضل : ايرارد ، او برودوود ، أو كولارد ، أو بخشتاين ؟ .. لذلك أتيت بواحد من كل نوع ! .. ومع ذلك فأنا شخصيا أفضل العزف على بيانو الكوخ الصغير ، الذى وضعناه فى قاعة الدراسة هنا .. لقد نقلته أخيرا الى حجرة الزينة ، اذ يبدو أننى الفت أنغامه دون سواها ، أو لعله أكثر انصياعا لطريقتى ! » . فقالت جين : « شكرا لك يا ميرا .. أعتقد أن دال وأنا نفضل بيانو بخشتاين »

واستأنفت ليدى انجلبى حديثها قائلة : « واذا أردتما شيئا مثيرا فى ميدان الموسيقى ، فلكما أن تحضرا بعض التدريبات التى تجرى استعدادا لقداس الترانيم ، الذى سيقام لتكملة نقص الاكتتاب المخصص للارغن .. كم أنا معجبة بأعمالهم ! » . فأجابتها جين فى حزم : « اننى أؤثر أن اقوم بدفع كل العجز ، على أن أقترب من « قداس الترانيم خطوة ! » . فبادر جارث قائلا ، وقد لمح استياء ميرا : « كلا .. انه لعمل جليل ان يعمل القوم على تسديد ديونهم وكسب ما يحتاجون اليه لمعونة كنائسهم .. ثم أن قداسات الترانيم بديعة اذا أجيد أداؤها ، وهو ما أوقن منه ما دام اتباع الليدى انجلبى هم القائمون بالامر . ولقد شرح لى « لوسون » أمرهم هذا الصباح ، وغمغم بأهم الالحان ، وانها لمشجية حقا . أتراه كان لحن « روبنصن كروزو » .. كلا ، ليس هو .. ترى ما اسم ذلك اللعين ؟ .. « كوخ العم توم » ؟ .. نعم ، فقد كان يدور حول شخص أسود ! .. ويقوم لوسون بدور العم توم ، وابنة القس الصغرى بدور « ايفا » الصغيرة .. لسوف تتمشين معى

يا آنسة شامبيون الى هناك ، لمشاهدة أول تجربة تالية ! »

وتساءلت جين : « أتريدنى على ذلك ؟ » ، دون أن تفطن الى عذوبة الابتسامة التى ألقتها عليه ، فما فطنت الا الى ذكرى تحركت فى قلبها .. ذكرى تلك الليلة فى (أوفردين) ، حين تملكها ميل شديد الى ان تقول له : « نبئنى بما تريدنى أن أفعل ، وسأفعله ! »

وهنا قالت السيدة باركر بانجس : « يسر بولين جدا أن تذهب معكم ، فهى تهيم بالموسيقى الريفيـة » .. فبادرتها الآنسة ليستر ، وكانت قد وصلت فى تلك اللحظة ، وجلست فى مقعد عال بجوار ميرا : « هراء يا عمتى ! .. اننى أقر الآنسة شامبيون فى رأيها عن قداسات الترانيم ، فلست احفل بغير الممتاز من الموسيقى ! » . والتفتت اليها « جين » مسرعة ، وقالت بابتسامة أليفة ، وبأحلى لهجة ودية : « أجل ، ولكن عليك أن تأتى معنا ، حتى نتساند فى احتمال التضحية . وقد ينجح « دال » و « لوسون » فى تحويلنا ودفعنا الى التعلق بالترانيم الكنسية .. وعلى كل حال ، فسيكون من الممتع ان يتولى « دال » ايضاح كل شىء لنا .. لسوف يقتضيه هذا كل ما لديه من قوة ايمان ! »

قالت بولين ليستر : « اذا شئتم شيئا مثيرا حقا ـ فى ميدان الموسيقى ـ فدعونى أقص عليكم ما صادفنا على ظهر الباخرة التى أقلتنا من أمريكا .. كان اسمها « عربى » . وكانت تحمل قوما لطافا ودودين ، وكانوا قد عينوا الساعة الثامنة والنصف من مساء الخميس موعدا لحفلة موسيقية . وكنا نبعد عن سواحل ايرلندا بحوالى مائتى ميل ، فلما غادرنا قاعة الطعام بعد تناول العشاء فى ذلك المساء . فوجئنا بضباب كثيف . وما أن حانت الساعة الثامنة ، حتى بدأ بوق الضباب ينطلق مرة كل نصف دقيقة ، وليس بوسعكم أن تسمعوا شيئا عندما يدوى بوق الضباب . غير أن برنامج الحفلة كان قد طبع ووزع

على جميع المسافرين ، كما كانت تلك آخر ليلة لنا على ظهر الباخرة ، فقرر القوم أن يستمروا فى اقامة الحفلة الموسيقية ، مهما تكن الحال .. ونزلنا جميعا فى صـــفوف ـ الى قاعة الموســيقى ، وبدأت الحفلة طبقا للبرنامج ، بينما كان بوق الضباب يدوى ـ فى كل ثلاثين ثانية ـ بانتظام ، فلم نكن نسمع شيئا بجلاء ، سوى صوته وهو يدوى فى فتراته الرتيبة . ثم **أخذ رجل ذو صوت عميق قوى ، يلقى أغنية : « ارتطمت بالصخور فى أحضان البحر العميق » ، وكلما بلغ المقطع : « فما أهدأ نومى ، وما آمنه ! » ، ودوى معه صوت بوق الضباب ، حتى فقــدنا الامل فى أى نوم هادىء فى تلك الليــلة .. واعقبه رجل له صـــوت قوى مرتفع ، شرع يغنى : « كثيرا ما يحدث فى الليل الساكن » ، فكان بوق الضباب يبين لنا مدى « سكون الليل » فى كل ثلاثين ثانية !** .. على أن أغرب ما حدث هو أن فتاة تولت عزفا منفردا على البيانو ، واختارت لحنا من ألحان « شوبان » مليئا بالتنقل بين الانغام المرتفعــة ، والانغام المنخفضة ، والجلجلة الفضية الناعمة . وبدأت الفتاة بداية موفقة ، غير أنها لم تبلغ نصف الصفحة الاولى ، حتى انطلق بوق الضباب ، واستمر أكثر من المعتاد .. فكنا نرى أصابعها وهى تجرى على البيانو ، وصفحة « النوتة » تطوى دون أن نسمع نغمة واحدة . حتى اذا توقف صوت البوق ، وغدا صوت البيانو مسموعا ، كانت الفتاة قد أتت على أكبر شطر من الصفحة الثانية ، دون أن نكون قد سمعنا ما يعيننا على تتبع اللحن .. اواه ، لكم كان الموقف مضـــحكا ! .. واستمر اللحن على هذا المنوال ، فكانت شجاعة من الفتاة أن استمرت فيه ، ومن ثم صفقنا لها طويلا عندما انتهت من القطعة واشترك معنا بوق الضــباب فطغى دويه على كل تصفيقنا .. لقدكانت أعجب حفلة موسيقية رأيتها فى حياتى ، وقد تمتعنا بها جميعا ، ولو أننا لم نطرب لضجيج ذلك البوق

الذى استمر على وتيرة واحدة ، حتى الســـاعة الخامسة صباحا ! »

* * *

• **وكانت** « جين » قد اســـتدارت فى مقعدها ، وبقيت منصتة بانتباه وتقدير الى حديث الفتاة الامريكية الحسناء ، وهى تتأمل — فى ابتهاج حقيقى — ووجهها البديع واشاراتها الرقيقة ، وتتصور مبلغ استمتاع دال بأن يرقبها وهى تتحدث بهذا السحر ، وهذه الحيوية . ونظرت اليه محاولة أن تلمح الاعجاب فى عينيه ، فاذا به منكس الرأس ، وقد بدا مستغرقا فى نقل زركشة حذائها على الارض ، بعود طويل من شـجرة الجوز .. **وظلت لحظة ترقب اليد النحيلة السمراء ، وهى عاكفة على هذا العمل التافه ، وكأنه يرسم لوحة .. وفجأة سحبت قدمها ، وهى تحس بامتعاض منه لعدم استمتاعه بالحديث الشيق ، وما بدا عليه جهارا من عدم مبالاة بالفتاة !**

واعتدل جارث فى جلسته لتوه وقال : « لابد أنها كانت حفلة عجيبة ، ولكم أجدت روايتها ، حتى لقد كدنا نسمع دوى بوق الضباب ، ونرى وجوه العازفين والمغنين بما ارتسم عليها من انزعاج واستياء .. ان بوق الضـــباب ليس من الاشياء التى يسهل على المرء أن يألفها ، مثله فى ذلك مثـــل الزلازل .. بل أن صوته يزداد ازعاجا مرة بعـــد أخرى .. والآن لنتناوب رواية أغرب ما صادفنا فى الحفلات الموسيقية ! .. سمعت مرة غلاما يتلو بضعة ابيات من قصيدة لتنيسون — عنوانها « هجوم اللواء الخفيف » — بطريقة تمثيلية ، ولكنه كان عصبيا أكثر مما ينبغى ، فارتبك وخلط بين الابيـــات ، وعندما وصل الى وصف مسلك الجنود الستمائة وتفكيرهم قال فى أداء مؤثر : « لم يكن عليهم أن يجيبوا ، ولم يهتموا بأن يعملوا او بأن يموتوا .. وانما كان كل ما عنوا به هو أن يتجادلوا

فى تعليل السبب ! » . وكانت اللهجة التى القى بها الابيات، والحركات التى مثلها ، جيدة الى حد أشك معه فى أن كثيرا من المستمعين قد فطنوا الى أى خطأ فى الكلمات ! » ..

وقابل رونالد انجرام : « هذا يذكرنى بأضحك حادث صادفته فى حياتى .. وكان ذلك فى صلاة شكر أقيمت لعودة قسم من جيشنا من جنوب افريقيا ، اذ اختتمت الحفلة بالنشيد الوطنى البريطانى . وانكم لتذكرون كيف اضطررنا – من عهد قريب – الى تغيير الضمير فى النشيد ، بعد ان خلف الملكة فيكتوريا ملك ، وكيف أن من العسير على المرء أن يتفادى النطق بما رسخ فى ذاكرته .. وكان يجلس خلفى رجل ذو صوت حسن ، راح ينشد بحماسة وهمية ، مجهدا نفسه فى تعديل الضمائر كلما صادفته . ولما بلغ السطر الرابع من المقطع الثانى ، أنشد بحرارة وطنية : « لعن الله سياسته .. وأفسد كل حيله الخبيثة » ! .. **وانتم تعلمون ان الضمير هنا لم يكن يعود على الملكة ، فلم يكن ثمة داع لتغييره الى المذكر !) »**

فقالت ليدى أنجلبى : « قد يطرب الملك لهذه القصة .. أواثق أنت من أنها وقعت فعلا يا رونى ؟ » . فأجابها هذا : « كل الثقة ، بل أن فى وسعى أن احدد لك اسم الكنيسة ، وعنوانها ، واليوم الذى وقع فيه ذلك ، وأدعو لك جمعا من الشهود الذين استبد بهم الضحك لذلك ! »

– حسنا .. سأروى هذه القصة لصاحب الجلالة فى أول فرصة اتشرف فيها بمقابلته ، وسأبلغه انك سمعتها بأذنيك .. والآن ، ماذا سنفعل فى التنس ؟ ما البند التالى فى البرنامج ؟ أهو نهائى الزوجى ؟ نعم .. آه ، هو ذلك ! ستلعب يا دال مع الآنسة ليستر ضد الكولونيل لورين والآنسة فيرمونت .. وأظن أنكما خليقان بأن تغلباهما عليهما بسهولة تامة ، لانكما منسجمان معا ، ستكون هذه المباراة جديرة بالمشاهدة يا جين!

فأجابتها جين بحرارة ، وهي تنظر الى جارث وبولين وقد

وقفا معا فى الشمس المائلة الى الغروب ، يفحصان مضربيهما ، ويتناقشان فى الحيل التى يستطيعان استعمالها .. وظلا كذلك فى انتظار خصميهما ، فبدا منظرهما رائعا يملأ العيون اعجابا ، **كزوجين متكاملين ، وكأنما سكبت الطبيعة أجمل ما لديها فى كل جزء من تكوينيهما ، وكان العيب الوحيد الذى قد يؤخذ – فى صدد زواجهما – هو أن جمال الفتاة – الرشيق الاسمر – كان نسخة أنثوية دقيقة بجمال الشاب ، حتى لقد كان من السهل أن يؤخذا على أنهما أخ وأخت ..**



ولكن هذا لم يكن بالعيب الذى يخطر ببال « جين » ، لان اعجابها القلبى ببولين كان يزداد كلما تأملتها .. أما وقدرأتهما معا ، جنبا الى جنب ، فقد اطمأنت الى أنها قد أخلصت النصح لجارث ، واهتز قلبها فرحا حين جال بذهنها أنه قد أخذ بنصيحتها !

★ ★ ★

• **وفيما** كانا يسيران على مهل ، عائدين الى القصر – وهى وجارث بمفردهما – فى نهاية الاصيل ، قالت « جين » بكل بساطة : « دال .. هل يضايقك ان اوجه اليك سؤالا ؟ ..

هل قررت نهائيا ؟ » . فأجابها جارث : « لن يضايقنى أى سؤال منك يا جين ، وانما أرجو الافصاح .. ما هـذا الذى قررته نهائيا ؟ »

ـ هل خطبت الآنسة ليستر ؟

ـ كلا ، وما الذى دعاك لان تفكرى فى شىء كهذا ؟

ـ لانك قلت فى (أوفردين) يوم الثلاثاء .. الثلاثاء ! اواه ، ألا يبدو لك كأنما قد انقضت أسابيع على ذلك ؟ .. قلت أن من الواجب أن نحمل قولك على محمل الجد

ـ كأنما حدث ذلك منذ سنوات ! .. واننى لاتمنى حقا أن تأخذى أقوالى على محمل الجد .. ولكنى ـ مع ذلك ـ لم أطلب يد الآنسة ليستر ، وانى لاتوق الى أن اتحدث اليك بهذا الصدد ، دون أن يعكر صـــفونا أحد ، فهل تخرجين معى الى الشرفة ـ يا آنسة شامبيون ـ بعد العشاء ، عندما ينصرف القوم الى الالعاب واسباب اللهو ، ونستطيع أن نتسلل دون أن يفطن الينا أحد ؟ . هناك أستطيع أن اتحدث اليك دون خوف من اى دخيل ! .. ان ضوء القمر على البحيرة جدير بالمشاهدة من الشرفة ! .. لقد قضيت ساعة ـ ليلة الامس ـ هناك .. آه ، كلا .. أنك تخطئين الحدس ، للمرة الاولى .. لقد قضيت الساعة وحيدا ، بعد انتهاء النزهة فى القوارب ، ورحت أفكر ـ اذ ذاك ـ فيما سيدور بيننا الليلة من حديث !

فأجابته جين : « سآتى طبعا ، ويجب أن تستبيح لنفسك الحرية فى الافضــاء الى بما تبغى .. على ان تعدنى بأن تقبل منى النصح والعون اللذين أملك ازجاءهما ، كيفما يكونان » . فأجابها جارث فى صوت منخفض : « سأدلى لك بكل شىء ،

ولسوف تقدمين لى من النصــــح والعون ما لم يملك تقديمه سواك ! »

★★★

• **جلست** « جين » على حافة نافذة حجرتها ، تمتع ناظرها بغروب الشمس ، وبالمنظر الرائع ، وهى مغتبطة بأن لديها نصف ساعة قبل أن تحتاج الى وصيفتها .. وكانت الشرفة تمتد تحت نافذتها ، فسيحة مرصوفة بالحصى ، يحيط بها سياج عريض من الحجر ، تفصلها ثمانى أو عشر أقدام عن الحديقة قديمة الطراز ، بها أحواض للزهور محاطة بحدود عريضــــة ، ودروب متعرجة ، ونافورات حجــرية .. وخلف الحــديقة ، كانت ثمة أرض معشوشــبة تنحدر الى البحيرة ، التى كانت ـ فى تلك الآونة ـ اشبه بمرآة من الفضة ، فى نور المساء الخافت . وكان السكون شــاملا ، والشعور بالسلام يحتضن كل شىء .. وأمســكت « جين » بكتاب وضعته فوق ركبتها ، ولكنها لم تقرأ شيئا ، اذ سرحت البصر نحو الغابات البعيدة الممتدة خلف البحيرة ، والسماء المرصعة فوقها وقد انتثرت فيها غيوم وردية اللون ، تتخللها خطوط ذهبية من الضوء ، وملأ هذا المنظــر نفس « جين » بشــعور من الرضى ، والابتهاج ، والطمأنينة . على أنها لم تلبث ان سمعت وقع خطوات خفيفة تسير فوق الحصى ـ فى الشرفة ـ فانحنت لترى من صاحبها . **واذا به جارث وقد خرج من حجرة التدخين ، وذرع الشرفة فى خطوات عصبية ـ جيئة وذهابا ـ مرة أو مرتين ، ثم تهالك على مقعــد من الخيرزان تحت نافذتها ، وجلس يدخن وهو مســتغرق فى التفكير** . وتصــاعد عبق الدخان الى « جين » خلال زهور

المانوليا ، فقالت تخاطب نفسها وهى تبتسم : « انها من سجاير « زنيت » ، صنع ماركوفيتش .. معبأة فى علب خضراء زاهية اللون ، وتباع كل مائة سيجارة منها باثنى عشر شلنا .. يجب أن أذكر ذلك ، لاقدم له هدية منها فى عيد الميلاد ! .. ففى هذه المناسبة سيتعذر على أن اهتدى الى شىء لم يقدم اليه فى فيض الهدايا التى يتلقاها ! »

وألقى جارث ببقية لفافته ، وبدأ يغمغم بين أنفاسه نغما خافتا ، تحول تدريجيا الى كلمات راح يغنيها بعذوبة ، بصوته المتوسط النبرات :

« ليس لى أن أتغنى بحسنك السنى .. فان الروح العظيمة تسطع على وجه سيدتى ! »

ومع أن النبرات كانت هادئة ، الا أنها كانت تتهدج بشعور متهدج ، جعل « جين » تشعر كأنها كانت تسترق السمع الى سردفين . وأسرعت فالتقطت ورقة كبيرة من أوراق « المانوليا » ، واطلت من النافذة ، ثم تركتها تسقط فوق رأسه .. فقفز جارث ، وتطلع الى فوق ، وقال : « هالو !.. أهذه أنت ؟ » . فأجابته ضاحكة ، وقالت هامسة خشية أن تكون ثمة نوافذ اخرى مفتوحة : « نعم ، أنا هنا .. فوق . لقد اخطأت النافذة التي تغنى تحتها أناشيدك يا عزيزى العاشق المستهام ! » . فقال فى شىء من الغيظ : « يبدو أنك تعلمين الكثير عن الامر ! » .. وأجابته هامسة : « أليس كذلك ؟ .. ولكن ، لا تشغل بالك يا « سيد جارثى » ، لانك تعلم مدى صدق اهتمامى بالامر .. فاتخذنى مرشدتك فى غياب مارجرى ! »

وقفز جارث من مجلسه ، فانتصب واقفا وهو ينظر اليها نظرة جمعت بين الطرب والغيظ ، ثم قال : « هل اتسلق شجرة

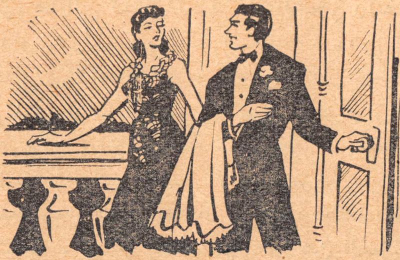
المانوليا اليك .. ان فى نفسى أشياء كثيرة أريد أن أبوح لك بها ، ولا يمكن ان اصـيح بها امام البيت ! » .. فأجابته جين : « لا ، طبعا .. لست أريد أى روميو يتسلق الى نافذتى .. « وماذا بعد ؟ » » ، كما تقول العمة جينا .. هيا واستبدل ثيابك يا سيد جارثى ، فان « الاشياء الكثيرة » يجب أن تبقى الى أن نلتقى الليلة ، والا تأخرنا عن موعد العشاء » .

وقال جارث : « حسنا .. حسنا ، ولكنك ستأتين الليلة يا آنسة شامبيون، فهل ستمنحيننى من وقتك كل ما أبتغى؟» . فأجابته جين : « سأحضر بمجرد أن نستطيع الافلات من الجماعة ، ولن تكون أشد لهفة الى الافضاء منى الى السماع .. آه ، يا لعبير زهور المانوليا ! .. أنظر الى البتلات البيضاء الكبيرة .. هل لك فى واحدة فتضعها فى عروة سترتك ؟ »

فألقى اليها بابتسامة غريبة ، مفعمة بالوجد ، ثم دار على عقبيه ، ودخل الى القصر . وتركت « جين » النافذة وهى تقول ساهمة : « لست أدرى لماذا أميل الى مداعبته واغاظته ؟ .. حقا ، لقد كنت أنا السخيفة فى هذه المرة ، وكان هو رزينا معقولا .. ان « ميرا » على حق ، فجارث جاد فى أمره ، ولكن ما موقف الفتاة يا ترى ؟ .. أرجو أن تكون مهمته بأمره ، وان تكون عواصفها متجهة اليه ! »

ثم نادت خادمتها قائلة : « تعالى يا ماثيوس ، واعدى لى الثوب الاسود الذى كنت أرتديه ليلة الحفلة الموسيقية فى (أوفردين) .. هيا اسرعى ، فليس لدينا أكثر من عشرين دقيقة ! .. يا لها من ليلة رائعة بديعة ! .. قبل كل شىء ، تعالى والقى نظرة على غروب الشمس فوق البحيرة ! أواه ، ما أحلى البقاء هنا ! »

الفصل العاشر



● **ما كانت** ذخيرة العالم كله من نفاد الصبر لتقوى على أن تحول دون أن يكون العشاء فى قصر (شنستون) مهمة عاجلة . ولم يكن من السهل على اثنين مرموقين من أفراد الجماعة ان يتسللا دون أن يلحظهما أحد . لذلك فقد كانت ساعة بعيدة — فى القرية — تدق العاشرة ، حين تمكن « جارث » و «جين» من التسلل معا الى الشرفة غير ملحوظين .. وكان « جارث » قد التقط — أثناء اجتيازهما البهو — سجادة صغيرة ، ثم أغلق خلفه باب البهو — المفضى الى الشرفة — بكل هدوء وحرص .. **وخلا كل منهما الى الآخر . وكانت هذه هى المرة الاولى التى انفردا فيها منذ أن افترقا فى (اوفردين) ، وقد خيل اليهما أن دهرا قد انقضى على ذلك !**

وسارا فى صمت — جنبا الى جنب — نحو السياج الحجرى العريض المطل على الحديقة العتيقة .. وكان ضياء القمر الفضى قد كسا المكان كله بنور زاه عجيب ، ولاحت أمامهما أقسام الحديقة البارزة ، والدروب المتعرجة ، وأحـواض الزهور العجيبـة الاشكال .. ومن خلفها البحيرة كمرآة فضية تعكس بها أشعة القمر الهادئة . ونشر « جارث » السجادة الصغيرة فوق قمة السياج ،

واجلس جين فوقها ، ثم وقف بجانبها وقد أسند احدى قدميه الى السياج ، وعقد ذراعيه على صدره ، ورفع رأسه الى أعلى .. وجلست «جين» مجانبة ، متجهة اليه بنظرها ، وقد أسندت ظهرها الى تمثال أسد من الحجر رابض فوق قمة السياج . ثم ادارت رأسها متأملة البحيرة ، وهى تعتقد بأن «جارث» كان ينظر فى الاتجاه ذاته ، فى حين أنه كان يحدق فى وجهها ! وكانت جين ترتدى ثوب السهرة الاسود الجرار ، الذى ارتدته ليلة حفلة (أوفردين) الموسيقية ، غير أنها لم تضع العقد اللؤلؤى أو أى زينة أخرى ، اللهم الا حزمة من براعم الورد القرمزى استكنت بين ثنايا الدنتلا الرفيعة ،القديمة، التى كانت تكسو صدر الثوب . **وكان يحف بها جو من النبل والقوة الهادئة ، مما بعث رعشة هزت روح الرجل الذى وقف يتأملها .. وتصاعد كل ما كان يملأ قلبه من حب واله ، ووجد مشبوب ، فشعت به عيناه ، اذ لم تعد به حاجة الى اخفائه .. وهاهى ذى الساعة قد دنت اخيرا ، ولم يبق مايخفيه عن المرأة التى أحبها !**

وما لبثت « جين » أن التفتت ، وهى تعجب من أنه لم يبدأ بعد اعترافه عن بولين ليستر ، حتى اذا ما وقعت عيناها على عينيه مستفسرة ، صاحت وقد همت بالنهوض عن مكانها ، وهى تقول : « دال ! .. اواه ، يا دال .. لاتفعل ! » . فردها الى مجلسها فى رفق ، وقال : « صه يا عزيزتى ! .. يجب أن أخبرك بكل شيء ، وقد وعدتنى بالاصغاء لكل ما أقول ، وبأن تسدى الى النصح والمساعدة .. أواه يا جين ، يا جين ! .. انى فى مسيس الحاجة الى مساعدتك .. فى حاجة شديدة لا الى معونتك فقط ، وانما اليك يا جين .. اليك انت بالذات ! .. أواه ، كم انا محتاج اليك ! .. لقد كانت هذه الايام الثلاثة — التى مرت على فراقنا — أوجاعا متوالية من جراء الوحدة ، لانك كنت بعيدة عني .. فلما عدت عادت الي الحياة

والحركة .. مع ذلك ، فما أشق أن اضطررت لان انتظر كل هذه الساعات ، قبل أن اتحدث اليك . فلدى الكثير مما اود أن أحدثك به يا جين ، عن كل ما أنت لى .. وكل ما غدوته ـ بالنسبة لى ـ منذ ليلة الحفلة الموسيقية فى (أوفردين) .. اواه ، كيف أستطيع أن أعبر لك عن ذلك ؟ ! .. **لم تكن فى حياتى من قبل أمور جسيمة ، بل لقد كانت كلها ـ تقريبا ـ تافهة وسطحية .. أما هذه الحاجة اليك ، وأما هذه الرغبة فيك ، فانها مشاعر ضخمة ، يبدو كل ما خالجنى قبلها أقزاما هزيلة الى جوارها ، بل انها لتفوق كل ما هو آت .. اذا لم أقل انها العرش والتاج والذروة العليا لكل حياتى ومستقبلى .. أواه ، يا جين !** لقد أعجبت بكثير من النساء ، وكثيرا ما كنت أهذى لفرط اعجابى بهن ، واتنهد اسى من أجلهن .. وكثيرا ما رسمتهن ، ثم كنت لا ألبث أن أنساهن جميعا .. ولكنى لم أحب امراة من قبل ، وما كنت لادرك قيمة المرأة لدى الرجل ، حتى سمعت صوتك وهو يتهدج وسط السكون الشامل ، مرددا : « اننى أعد حبات اللؤلؤ » .. أواه أيتها الحبيبة ! .. لقد تعلمت ـ منذ تلك الليلة ـ كيف أحصى اللآلىء ، وتلك الساعات الثمينة التى مرت فى الماضى وطال عليها النسيان ، ولكننى فهمتها اخيرا ! .. « كل ساعة لؤلؤة .. وكل لؤلؤة أدعية ! » .. **يا لها من ضراعة حارة لكى يمتزج الماضى والحاضر فى مسبحة واحدة كاملة ، ولكى يخلو المستقبل من أى ألم او فراق ! .. أواه يا جين ، يا جين ! .. هل سيقدر لى يوما ان أجعلك تفهمين كل .. مدى .. اواه ، يا جين ! »**

ولم تكن قد شعرت به اذ اقترب منها ثم سقط أمامها جاثيا على ركبة واحدة . وبينما كان ينطق بالجملة الاخيرة ـ بلهجة متهدجة لاهثة ـ لف ذراعيه حول خصرها ، ودفن وجهه فى « الدانتلا » الرفيعة التي كانت تكسو صدرها . ثم

احتواه سكون وهدوء ، وبدا أن كل جهد بذله ــ للتعبير عما كان فى نفسه ــ قد خمد وتلاشى ، وتحول الى صمت قوامه الادراك والفهم .. صمت شامل ، كامل !

ولم تنبس جين بكلمة ولا حارت حراكا ، فلقد كان بقاؤه فى هذا الوضع مبعث عذوبة فائقة ، وكأنما انتهى ذلك الاعصار العاطفى الثائر الى موطن الراحة ــ فوق قلبها الهادىء ــ فى هدوء مطمئن . وتبينت ــ حينذاك ــ ان الفراغ الذى عانته فى الثلاثة أيام التى مرت بها لم يكن ناشئا عن شوق الى الموسيقى ، وانما عن شوق اليه .. هو ! فما أن شعرت بذلك ، حتى لفت ذراعيها حوله دون ان تدرى ما كانت تفعل .. **واستيقظت فيها احاسيس ــ لم تخالجها من قبل ــ وجاشت فى جوانحها .. أحاسيس علوية سامية عزلتها عن كل العالم .. وانزاح عنها ما عانته من وحدة موحشة فى الحياة ، أمام هذه الحقيقة الغالية : انها وهو .. معا ! وفى اللحظة التى اتضحت فيها هذه الحقيقة لذهنها وحسها ، رفع ((جارث)) رأسه ــ وهو لا يزال محتضنا اياها ــ فتطلع الى وجهها قائلا : ((انت وانا معا .. انت لى .. انت لى !))**

غير أن نظرات عينيه الجميلتين المتألقتين ، كانت فوق ما تحتمل « جين » ، اذ ذكرتها بخلو وجهها من الجمال الصارخ ، وخيل اليها ان نظراته كانت أضواء تكشف ذلك ، فاذا بها تضع يديها فجأة خلف رأسه ، فترد وجهه الى « الدانتلا » التى كانت تكسو صدرها ، وليس بخاطرها شىء سوى أن تخفى عنه مظهرها الخارجى ، بعد أن اقترب فجأة من صومعة نفسها الدفينة فى أعماقها . ولكن « جارث » رأى فى حركة هاتين اليدين القويتين العزيزتين ، اذ دفعتاه الى صدرها بغتة ، تجاوبا نم عن قبول منها لشخصه ولكل ماقدمه لها .. وظلت روحه تنبض فى سكون وهيام فاق كل كلام ، لعشر ثوان نشوانة ، ثم لعشرين ، ثم لثلاثين . وما لبث أن رفع

راسه محدقا فى وجهها مرة أخرى ، وقال : « يا زوجتى ! »

ولدى نطقه بهذه الكلمة ، باغتت وجه « جين » الصادق الصريح ، موجة من الدهشة والجزع ، ثم اصطبغ بحمرة عميقة ، فكأنما اجتذبت كل الدماء التى كانت تجرى متواثبة خلال قلبها ، لتنسكب فى وجنتيها فتحرقهما ، بينما أوشك القلب أن يكف عن الوجيب ! .. وراغت « جين » من ذراعى الشاب ، ثم نهضت ، وراحت تسرح بصرها الى مياه البحيرة التى كانت تتلألا كالفضة تحت أشعة القمر .. ووقف جارث دالمين بجانبها ، لا ليلمسها ، ولا ينبس بكلمة أخرى ، فقدأيقن من انه كسب المعركة ، فأفعمت نفسه بفرحة صامتة .. كانت روحه هانئة ، فبدا الصمت العميق افصح من الكلمات .. وكان خليقا بأية لمسة عادية ان تطمس الاحساس العارم بتلك اللحظات التى ضمته فيها « جين » الى صدرها ! .

وأخيرا تكلمت جين قائلة : « أتعنى انك تريد ان تسألنى أن أكون .. ان أكون ذلك .. لك ؟ » . فأجابها بلهجة رقيقة، متهدجة من جراء صراعه مع نفسه حتى يحتفظ بهدوئه :

« اجل يا عزيزتى .. لقد جئت ـ أخيرا ـ معتزما أن أطلب منك أن تكونى زوجتى ، ولكنى لا أقوى على أن أسألك ذلك الآن ، يا محبوبتى .. لا أقوى على ان اسألك ان تكونى ما انت عليه فعلا ! .. فما كان الوعد ، ولا الاجراء الرسمى ، ولا تبادل خاتمى الخطبة ، ما كانت هذه كلها لتجعل منك زوجة لى أكثر مما كنته فى تلك اللحظات الرائعة ! »

فاستدارت جين ببطء ، ونظرت اليه ، فما رأت من قبل ضياء كهذا الذى تألق على وجهه ، ومع ذلك فقد أحست بتلكما العينين اللامعتين تخزانه وكأنهما سيفان . وتاقت نفسها الى أن تحجبهما بيديها ، أو أن تأمره بأن يحول بصره الى الغابات أو الى الماء ، بينما كان ماضيا فى أزجاء ذلك الحديث الحلو اليها . ثم وضعت احدى قدميها على طرف السياج ،

وأسندت مرفقها الى ركبتها ، وحجبت وجهها بيـــدها ، ثم أجابته محاولة ان تتكلم بهدوء : « لقد أخذتنى على غرة يا دال .. لقد رأيت منك رقة وظـرفا ورعاية ، منـــذ ليلة الحفلة الموسيقية ، وأدركت أن تفاهمنا التام فيما يتعلق بالموسـيقى ونشوتها ، مع توثق الود بيننا ـ نتيجة الحـــديث الذى دار تحت شجرة الارز ـ قد أفضيا الى صداقة وطيدة ، مبهجة .. واننى لاصارحك بأنها كانت ـ بل انها لا تزال ـ اقـوى لدى من أية صداقة أخرى . ولكن هذا كان راجعا الى طباعك أنت يا دال ، فهى تجعل منك أقوى نقطة حية فى المجال الفكرى لاى انسان . **على أننى ظننت ـ فى الحـــق ـ انك اردت ان تلقانى هنا ، لتفضى الى بما فى نفسك نحو « بولين ليستر » ، فان كل امرىء يعتقد أن حسنها قد استولى نهائيا على قلبك .. والحق يا دال .. الحق أن هذا رأيى أنا كذلك ! »**

وأمسكت « جين » عن الكلام ، فانطلق ذلك الصوت الهادىء ذو النبرة الهانئة المنخفضة : « حسنا ، وها انتـذى تعرفين عكس ما كنت تعتقدين » . فقالت : « لقد باغتتنى وأذهلتنى يا دال ، ولا أستطيع أن أعطيك رأيا الليلة ، فدعنى الى الغد .. غدا صباحا ! » . فأجابها « جارث » فى حنـــان ، وهو يقترب قليلا منها : « ولكن ، ان حاجتك ـ يا حبيبتى ـ الى الاجابة ، لا تزيد عما كان بى من حاجة الى السـؤال .. الا تدركين ذلك ؟ أن السؤال والرد قد تبودلا الآن فعلا . أواه يا أعز حبيبة .. عودى ، واجلسى ثانية ! »

غير أن « جين » ظلت جامدة فى وقفتها ، وقالت : « لا .. لن أسمح لك بأن تأخذ الامور على علاتها بهـذه الطريقة .. لقد أخذتنى على غرة ، ففقدت رشادى كليـة ، وهـو امر لا أغتفره لنفسى .. ولكن الزواج ـ يا فتاى العـزيز ـ أمر خطير .. **ليس الزواج مجرد عاطفة ، اذ انه يجب أن يدوم ولا يبلى .. يجب أن يقوم على دعائم قوية واساس متين ، ليحتمـل**

تجارب واعباء الحياة اليومية المشتركة ، وانى لاعرف كثيرا من الازواج والزوجات عن كتب ، اعيش معهم فى دورهم . واقوم بدور العرابة لاطفالهم ، فخرجت من ذلك بأن عاهدت نفسى على أن لا أعرض نفسى لهذه الحياة .. والآن وقد تركتك توجه الى هذا السؤال ، فلا تعجب اذا طلبت منك أن تمهلنى اثنتى عشرة ساعة للتفكير فى الامر ! » .

وصمت « جارث » فلم يحر جوابا ، وجلس على الدرج الحجرى وظهره الى البحيرة ، وقد مال برأسه الى الوراء محاولا رؤية وجهها ، ولكن يدها كانت تحجب وجهها تماما . فعقد ركبتيه ـ أحداهما فوق الاخرى ـ ثم ضمهما براحتيه ، واخذ يهتز وئيدا الى الامام والى الوراء لدقيقة ، محاولا أن يسيطر على نزعة كانت تدفعه لان يتكلم أو ليتصرف بشدة وعنف .. وسعى الى أن يسيطر على فكره بأن يوجهه الى توافه كانت تلوح لناظريه .. كان جورباه الاحمران يظهران بجلاء فى ضوء القمر ، وفوق أرض الشرفة البيضاء ، وقد اتسقا مع حذائيه الاسودين اللامعين .. كان دائم الحرص على أن يرتدى جوارب حمراء مع ملابس السهرة ، فراح يفكر فيما اذا كان له أن يطلب الى « جين » ان تنسج له عددا منها .. ثم أخذ يحصى نوافذ واجهة القصر ، باحثا عن نافذته ونافذة جين ، وكم نافذة تفصل بينهما .. وأخيرا شعر بأن لديه من البواعث ما يكفى لان يثق بنفسه ، فمال الى الوراء ورأسه المكسو بالشعر الاسود الاملس ، يكاد يلمس كمى ثوبها . وبدأ حديثه فى رفق قائلا : « نبئينى ايتها العزيزة .. ألم تشعرى منذ لحظات .. ؟ » .

فصاحت به جين فى شىء من الجفاء : « صه ! اصمت يا دال ! .. لا تتحدث عن المشاعر وهذا الموضوع معلق بيننا .. **أن الزواج واقع وليس شعورا ، فاذا أردت الخير الحقيقى لكلينا ، فأدخل الدار فورا ، ولا تحدثنى الليلة بشىء ! ..**

لقد سمعتك تقول أنك ستجرب أرغن الكنيســـــة فى الساعة الحادية عشرة من صباح باكر ، فليكن .. سأوافيك هناك بعد الحادية عشرة واستمع اليك وأنت تعزف .. وعند الظهر تماما ، سنصرف الغلام الذى ينفخ الارغن ، ثم أعطيك جوابى .. أما الآن ، فبربك دعنى واذهب يا عزيزى ، لاننى ــ فى الواقع ــ لم أعد أحتمل فوق ما احتملت ، ولابد لى من أن أخلو الى نفسى!» .
ففك جارث يديه عن ركبتيه ، ومد اليد القريبة منها ، متسلله



فوق السياج نحو حذاء « جين » . وشعرت الفتاة به يمسك بثوبها بأصابعه الرشيقة ، ثم حنى رأسه بسرعة وهو يهمس ، وقد تجلت عليه مظاهر الخشـــوع المتناهى والحنان البالغ :
« **فلأقبل الصليب !** » . وبحركة لم تقو جين على نسيانها ، انحنى فلثم طرف ثوبهـــا .. وأن هى الا لحظة حتى ألفت نفسها وحيدة !

* * *

• **وانصتت** الى وقع خطواته وهى تبتعد ، وســـمعت باب البهو الخارجى يفتح ثم يغلق . وجلست ــ وهى ساهمة ــ ذات الجلسة التى كانت فيها حينما جثا أمامها . وها هى ذي وحيدة تماما ، وقد بدأ التوتر ــ الذى جثم عليها فى اللحظات

القاسية ـ يخف ويهدأ . وضغطت بكلتا يديها « الدانتلا » التى كانت فوق صدرها ، والتى التصق بها ذلك الوجه الحبيب الجميل .. لقد سألها عما اذا كانت قد شعرت .. اواه ، وما الذى لم تشعر به ؟ .. وكانت دموع « جين » عصية لا تسيل بسهولة .. أما الليلة ، فقد ناداها باسم لم يخطر لها يوما أنها ستنادى به ، وقد حدثها قلبها الصادق الشريف بأنها لن تسمعه أو تنادى به بعد ذلك . ومن ثم فقد انهمرت دموعها الصامتة ، وتساقطت على يديها ، وفوق « الدانتلا » المسدلة على صدرها . **ذلك لان الزوجة والام ـ الكامنتين فى أعماقها ـ استيقظتا وتحركتا الليلة ، وشقت أعماق فطرتها موانع الكبح القاسى وضبط النفس ـ الذى كانت تمارسه بعزيمة الذكور ـ ثم أبت هذه الفطرة أن تعود الى حيث كانت ، دون ضريبة نسوية ، تمثلت فى الدموع !**

وتحت قدميها ، تناثرت أوراق الورد الذابلة وقد تفتتت وأصبحت هباء ! ..

وما لبثت « جين » أن ولجت الدار .. وكان البهو العلوى مكتظا بزمر مرحة من القوم ، وقد أخذ الرجال يلقون تحيات المساء على السيدات وهن يصعدن درجات السلم ، ويتوقفن لماما لرد التحية أو لتأكيد خطة للغد .. وكان « جارث دالمين » يقف فى أسفل السلم ، منصرفا الى حديث مع بولين ليستر وعمتها ، وكانتا قد بلغتا الدرجة الرابعة من السلم . ولمحت جين ـ عند دخولها البهو ـ قامته المعتدلة ، ورأسه اللامع الاسـود .. **وكان موليا ظهره نحوها . ولم يبد منه ما نم عن شـعوره بوجودها ـ رغم اقترابها منه ـ ولكن رنة الطرب فى صوته ، بدت كما لو كانت تؤكد أنه لها دون سـواها ، فقد كانت « جين » هى الوحيـدة التى تدرك السر فى انشراحه ..**

ووضعت يدها فوق صدرها ـ بحركة لا شعورية ـ وهى تنصت الي جارث اذ قال : « آسف جد الاسف يا سيدتي ،

لن أستطيع مرافقتكما صباح باكر ، اننى على موعد هام فى القرية .. أجل ، فى الساعة الحادية عشرة من صباح باكر ! »

وقالت السيدة باركر بانجس : « ان اعتذارك ذو طابع ريفى بديع .. ولم لا تصطحب بولين واياى ؟ .. اننا لم نشاهد بعد مصانع الالبان ، ولا صانعات الالبان ، ولا أى شىء مما ورد فى قصة « آدم بيد » (١) منذ وصولنا . وكم أود أن أذهب الى مطبخ السيدة « بويزر » ، وأرى صورتى منعكسة على الآنية المعدنيــــة المعلقة الى الجدران » ، فغمغمت لهـا الآنسة ليستر فى شمم : « ربما كنا زائدتين عن العدد الذى يتسع له المصنع ! » .. ولاحت بولين رائعة متألقة فى ثوبها الحريرى الابيض ، وقد ارتفع رأسها الصغير فى أنفة ملكية ، وشع منها سناء الانوثة الامريكية . ولم تكن متحلية بأية مجوهرات سوى عقد من اللآلىء الثمينة ، المتناسقة ، زاده بريقا عنق بولين ! .. **كل هذه المحاسن الموجهــــة الى « جارث » لم تلبث أن تجاوزت رأسه ، وترامت الى جين ، حيث كانت تتلكأ فى مؤخرة القوم . فألمت عيناها بكل دقائقها ، وأقرت بأن الآنسة ليستر لم تكن ــ فى أى وقت ــ أحق بالاطراء والاعجاب منها فى تلك الليلة !**

وقال جارث : « ولكن الامر لا يتصل ــ للاسف ــ بمصنع الالبان أو بالآنية المعدنية . ان موعدى مع غلام صغير هزيل ، كل ما فيه رأس يكسوه شعر أحمر مجعد ، ووجه قد زركشه النمش ! » . فقالت الآنسة ليستر فى تساؤل : « أهو عمل خيرى ؟ » . وكان جوابه : « أجل ، بمعدل ثلاثة بنســــات للساعة ! » . فصاحت السيدتان معا : « آه .. غلام طبعا ! » . واردفت مسز باركر بانجس : « يا للعجب ! أى مشكلة نثيرها حول أمر غاية فى البساطة ! .. والآن ، لقد سمعنا ــ يا سيد

---

(١) قدم « كتابى » ملخصا لقصة « آدم بيد » فى العدد (٥٢) .

دالمين ـ بأن مشاهدتك فى لعب التنس تستحق مشقة السير الى الملاعب ، فتوقع أن ترانا قادمتين فى وقت يتيح لنا أن نراك وأنت تبدأ اللعب ! »

وأومضت عينا جارث ، فخيل لجين أنها سمعت للوميض رنينا فى صوته ، وهو يقول : « أنك تغالين فى تقدير لعبى ، يا سيدتى العزيزة ، كما أن رقة قلبك المتناهية تجعلك تغالين فى أشياء كثيرة تتعلق بشخصى .. غير أنى أود أن أذكرك بحلقة الجولف فى الساعة الحادية عشرة من صباح باكر . ولك أن تستقلى عربة الى ملعب الجولف ، وان كنت أرى أن للسير خلال الغابات فتنة . وكل ما عليك هو أن تتذكرى أن عليك أن تجتازى الحديقة ، وأن تخرجى من الباب الشمالى ، وليس من المدخل الرئيسى الذى نسلكه الى محطة السكة الحديدية . لقد كان بودى أن أرافقكما ، لولا أن الواجب يتطلب أن أنطلق ـ فى البكور ـ فى اتجاه آخر . وفوق ذلك ، فان مجرد العلم برغبة الآنسة ليستر فى زيارة الملعب ، ستدفع الكثيرين الى أن يروا فى « الجولف » الشىء الوحيد الذى يؤثرونه بوقتهم فى فترة الصباح غدا ، حتى اننى لن أكون أكثر من فرد وسط الحشد الذى سيتدفق عبر الحديقة الى الباب الشمالى .. وسيكون من المستحيل أن تضلا طريقكما ! »

وهمت السيدة باركر بانجس بأن تجادله لتبين له أنه لايمكن أن يكون « مجرد فرد وسط الحشد » ، ولكن ابنة أخيها تدخلت ، قائلة فى حزم : « كفى يا عمتى ، دعى السخف ، فكلنا مجرد أفراد ، اللهم الا اذا تجمعنا ، كما نفعل الآن فوق هذا السلم .. اذ أن تجمهرنا يحول دون مرور الآنسة شامبيون ، التى تحاول ـ منذ برهة ـ أن تجد لنفسها منفذا ، لتصعد الى حجرتها .. هل ستلعبين الجولف غدا يا آنسة شامبيون ؟ »

وعند ذلك تنحى « جارث » جانبا ، فتقدمت « جين »

صاعدة الدرجات . ولم ينظر اليها ، ولكنها لمحت عينيه تحدقان في ذيل ثوبها ، عندما مرت بجواره . **وتوقفت قليلا بجانب الآنسة ليستر ، موقنة من أنها خليقة بأن تبدو دميمة بجانب حسن الامريكية وبياض بشرتها . ثم استدارت وواجهته ، وتمنت أن ينظر اليهما وقد وقفتا معا . كانت تهفو الى أن تلمح عينا الفنان الفارق القاسى بينهما .. وكانت تبغى أن تتبين روحه الفنانة ذلك !**

وظلت ترتقب . ولكن عينى « جارث » ظلتا متشبثتين بذيل ثوبها ، فى ناحية حذائها الايسر . ثم رفع رأسه ببطء ، ناظرا الى « الدانتلا » المسبغة على صدرها ، حيث كانت يدها . وبقيت عيناه لحظة هناك ، ثم هبطتا دون أن ترتفعا الى أعلى . بينما قالت السيدة باركر بانجس : « هل ستلعبين مع السيد دالمين باكر قبل الظهر يا آنسة شامبيون ؟ »

وتضرج وجه « جين » فجأة ، فسخطت على نفسها لهذا التضرج ، وحنقت على الظروف التى جعلتها تحس و تعمل ما لم يكن فى طباعها من قبل .. وترددت فى هذه اللحظة الطويلة ، البغيضة ، لتسائل نفسها : « كيف جرؤ « جارث » على مثل هذا المسلك ، الذى قد يوحى الى الناس بأن فى ثوبها شيئا غير مألوف ؟ . واستبد بها نزوع الى أن تنحنى لترى بنفسها ما اذا كانت قبلته قد تجسمت فى شكل نجمة علقت بالذيل الحريرى ! .. ولكنها غصبت نفسها على التجلد ، وأجابت فى شىء من الحدة : « لن ألعب الجولف باكر ، ولكنكما لن تجدا أفضل من مشاهدة الحلقات .. سعدت مساء يا سيدة باركر بانجس .. نوما هنيئا يا آنسة ليستر .. عم مساء يا دال ! »

وكان دال واقفا على الدرجة السفلى من السلم — وهو يناول عمة بولين خطابا سقط منها ، فأجاب قائلا : « عمى مساء يا آنسة شامبيون » .. والتقت عيناه بعينيها ، ولكنه

لم يبسط اليها يده ، ولم يبد أنه لمح يدها نصف مبسوطة اليه !

* * *

• **وصعدت** السيدات الثلاث درجات السلم معا ، فذهبت كل الى حجرتها : سارت الآنسة ليستر فى ردهة الى اليمين ، وسارت عمتها متعثرة خلفها ، واذا بها تقول لها : « لقد دب بينهما شقاق الليلة ! » . فقالت الآنسة ليستر فى صوت خافت : « مسكينة! .. اننى أميل اليها ، فان عنصرها طيب ، وأكاد أقتنع بأنها أكثرنا جميعا عقلا واتزانا » . فتجاهلت عمتها الجملة الاخيرة ، وقالت : « انها مثال ناطق للملامح البسيطة .. الخالية من الجمال ! » . فأجابتها الآنسة ليستر فى انصاف : « انها لم تصنع وجهها بيدها ! »

ـ كلا .. وليست تملك أن تدفع أجرا للغير كى يصنعوه لها .. هى كما قال سير والتر سكوت : « الطبيعة فى خشونتها » !

فقالت الآنسة ليستر فى ضجر: « ليتك لا تجهدين نفسك ـ يا عمتى العزيزة ـ بترديد أمثال من الادب الانجليزى القديم عندما نكون معا ، على حدة . ان هذا يستنفذ أنفاسك دون طائل ، لاننى ـ كما ترين ـ أعلم جيدا أنك قرأت الادب القديم .. ها هو ذا باب حجرتى ، تعالى معى واستريحى على ذلك المضجع ، بينما أجلس أنا فى المقعد المريح المقابل له ، وادلى اليك ببعض بيانات تمس اليها الحاجة .. أواه ، كيف تشد هذه المقاعد المرء الى الارض ! لا بأس بهذه القصور العتيقة بحالتها الحاضرة ، غير أن القوم يجهلون كل ما يتعلق بالمقاعد المتأرجحة .. والآن ، لدى كلمة أو كلمتان أريد ذكرهما لك عن الآنسة شامبيون .. انها فى الواقع طيبة ، وانى لاميل اليها .. انها ليست جميلة ، ولكن لها قواما أهيف ، وذوقا حسنا

فى اختيار ملابسها .. ثم أنها تملك ثروة طائلة ، وكان بوسعها أن تمتلك لآلىء أثمن مما أملك ، غير أن ادراكها السليم يمنعها من أن تتحلى بلآلىء على بشرتها السمراء . وانى لاحب المرأة التى تعرف حدودها ، وتحرص على التزامها .. ان الرجال جميعا يعبدون هذه الفتاة ، لا لمظهرها ، وانما لشخصها ، وهذا فى رأيى — يا عمتى — هو الابقى على مر الزمن .. **هذا هو الذى يدوم . فبعد مضى عشر سنوات ، ستكون النبيلة ((جين)) كما هى الآن ، فى حين أننى سأكون منصرفة الى محاولة اكتساب مظهر ليس لى . أما ((جارث دالمين)) ، فان عينيه تنصب علينا جميعا ، ولكن قلبه لا ينصرف الى واحدة منا . ان أحاديثه الطلية ونظراته المعجبة لا تعنى الزواج ، لانه رجل يبحث عن المرأة المثالية ، ولن يرتضى أن يتزوج بمن دونها ..** ولو أن العذراء هبطت من السحب ، وأسلمت الطفل الى الشابة التى تكون الى يسارها ، فانه قد يقبل الزواج منها ، ولكنه — مع ذلك — قد يظل موجسا من أن يرى — فى اليوم التالى — امرأة أخرى تصفف شعرها بشكل أجمل ، أو أن يكتشف أن قدم عروسه لا تبدو على السجاد العجمى بالجمال الذى كانت تبدو به فوق السحب . انه لن يتزوج مالا ، لان لديه منه الكثير .. ولو لم يكن لديه منه شىء فان المال المصنوع فى شموع لا يروق له .. وهو لن يتزوج جمالا ، لانه يفكر فيه أكثر مما ينبغى . وانه ليشغف بوجوه لا حصر لها ، حتى أنه ليظل طيلة الساعات الاربع والعشرين ، عاجزا عن أن يتبين أى هذه الوجوه أحظى باعجابه ، واذكرى أن الفاكهة التى لا سبيل الى بلوغها هى أشهى الفواكه عادة .. ثم أنه لن يتزوج الطيبة أو الفضيلة أو الجدارة — سمها ما شئت ، لان النبيلة ((جين شامبيون)) هى المثل الاعلى — فى كل هذا — لديه .. وهى أعقل من أن تربط مثل هذا الرجل المشتهى بوجهها الخالى من الجمال فضلا عن أنها ، تعتبر نفسها جدته ، ولا تقبل منه أن يضع

نفسه منها موضع المعلم والمربى .. انما محنـة « جارث دالمين » المسكين ، هى فى افتقاره الى الثقة بالنفس ، والى الشـعور السامى الذى يجعله يفطن الى قدرته على الظفر بمثله الاعلى . ولكن ما أقسى الصفعة التى سـيتلقاها يوم تقول له : « لا » ! .. **لقد كان ـ طيلة الايام الثلاثة ـ يعبد الارض التى تسير عليها ، ويعد الساعات التى سيلقاها بعدها ، أثناء تحويمه حولى ، وحولك ، وحول الحمير الحمقى ، التى كانت تتواثب حولنا ، وهى واثقة من أننا قد سقطنا فى الحب .. لقد تلهى وسر كثيرا من ملازمتى ، أكثر من سروره بالفتيات الآخريات ، لاننى كنت أفهمه جيد الفهم ، وقد سـاعدته فى تنسيق الحديث الذى يقوله لها** .. وقد أدرك ذلك عنـد وصولها ، وعرف أن من الممكن أن يعتمـد على فى اثارة ما يشغلك ، أو حملك على تحرير خطابات هامة ، كلما رأيتها مقبلة .. هذا قصارى ما كان بينى وبين « جارث دالمين » . واذا كان لديك أى حرص على عواطفى الشابة ، فما عليك سوى اسقاط طاقم أسنانك الصناعية فوق حوض الغسيل الرخامى ، أو أن تتـذرعى بأية حجـة أخرى لنرحل الى المدينة فى صباح باكر .. أما الآن يا عزيزتى ، فلا تضيعى وقتك فى مناقشتى ، فلقد حدثتك بدقة وأمانة تامة عن كل ما يمكن تبيانه بصدد هذه المسألة ، بل أكثر من ذلك .. فحاولى أن تقفزى الى فراشك دون أن تحدثينى عن أية شـخصية من شخصيات قصص « ديكنز » التى تشبهنى ، لاننى أذكى منهم جميعا ، ولاننى ـ اذا بقيت دقيقة أخرى داخل هـذا الثوب المشدود ـ فلست أدرى ماذا ستكون النتيجة » .. وسمعت طرقات وصيفتها اذ ذاك ، فهتفت : « نعم ، ادخلى يا جوزفين .. وعمى مساء يا عمتى العزيزة .. أتمنى لك أحلاما سعيدة ! »

ولكن بولين أطفأت النور الـكهربائى ـ بعد أن بارحت الوصيفة غرفتها ـ وأزاحت الستار قليلا ، ثم وقفت طويلا



فى النافذة تتأمل الطبيعة الانجليزية الهادئة ، وهى تسبح فى لجين القمر . وأخيرا تمتمت بصوت خافت ، ورأسها مسند على حافة النافذة : ((**لقد شرحت قضيتك شرحا وافيا يا دال، ولو أنك لا تستحق منى ذلك .. لقد كان فى وسعك أن تطلعنى ـ منذ أسابيع ـ على أمرك مع جين . اننى أحمد الله لان ذلك سيوقف تيار الاقاويل عنى وعنك .. أما أنت أيها العزيز ، فستبقى هائما فى تنهداتك تحرقا منك الى بلوغ القمر ، حتى اذا تعــذر عليك بلوغه ، فلن تجد الســلوى فى الاجرام الارضية !**)) .. وبهذا ختمت بولين مناجاتهـــا ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة شاردة . فقد امتازت بولين بأن روح المرح تتألق عليها فى وحدتها ، كما تتألق أمام الناس . وقد يكون ذلك على حسابها ، كما يكون على حساب غيرها !

* * *

• **أما** جين ، فقد سارت فى الردهة اليسرى ، حتى بلغت حجرتها ، وولجتها فى بطء وسكون . ان جارث لم يبسط يده ليتلقى يدها ، ولقد فطنت جيدا الى ما دفعه لذلك ، فما كان ليرتضى ـ بعد اليوم ـ أن يصافحها فى صداقة .. وهى اذا حرمته من اللمسة التى تعنى الامتلاك التام ، فانما تحرم نفسها من عرى الزمالة البسيطة . لقد كان ((جارث)) الليلة

كالنمر الملكى الذى تذوق طعام الدم ، فلا يعود يرتضى عنه بديلا .. وبدا لها الشبه غريبا ، وهى تتمثله فى ملابس السهرة التقليدية ، أنموذجا للاناقة ، والرشاقة ، دون أن يشوبه أدنى عيب .. ولكنها تبينت فيه لاول مرة ــ وهما معا فى الشرفة ــ كل العناصر البدائية التى تجعل منه رجلا .. رجلا قويا ، شديد العزم ، مسيطرا .. العناصر التى تصنع الملوك ! .. ولمست فيه أصداء أدغال العصــور الاولى .. فيها زمجرة الاسد ، وشراسة النمر ، وغريزة التملك التى تصيح : « انها لى أحرزها ، واستبقيها ، وأحارب من أجلها ، واستمتع بها .. لسوف أذبح كل من يقترب منها ! » .. لقد شعرت بذلك ، فاستوعبته روحها القوية الجريئة ، واستجابت اليه غير وجلة .. وكانت على استعداد لان تستلين ، لو .. فقط ! آه ، لو .. !
غير أن عجلة الزمن لا تســتطيع أن تدور الى الوراء ، واذا فكرت فى أن تجيع نحرها فلا بد من أن تقيم بينها وبينـــه قضبانا فولاذيا راسخة .. فلن يرتضى الرجل الذى أسندت رأسه الى صدرها دون أن تعى ــ بشىء من تلك الاقتراحات العاطفية ، التى تهدف الى الابقاء على علاقتهما كمعبر يصل بين الاخت والصديق! .. لقد أدركت جين كل ذلك . أما هو فقد احتفظ بكرامته ، وتملك زمام أعصابه ، بعد أن صدته عنها .. غير أنها كانت تعلم أنه بذلك يعطيها فرصة تسترد فيها أنفاسها ، وهو لا يزال يعتبرها ملكا خاصا له ، وكان يقينه الجازم بالمستقبل ، هو الذى وهبه الصبر الرقيق فى الفترة الراهنة . ولكنه مع ذلك أبى أن يتناول يدها فى مصــافحة الصديق ، وهى بعد لم تفضى اليها بجوابها !

وأوصدت جين بابها بالمزلاج ، اذ رأت لزاما عليها أن تواجه معضلة المستقبل بمعزل عن العالم بأسره .. ألا ليتها تستطيع أن تتناسى العالم كله ، فتقصر تفكيرها على « جارث » وعلى حبه . فقد كانا أجمل وأفخر منحتين طرحتا تحت قدميها ،

ولها أن تلتقطهما فتضمهما بين ذراعيها الخاليتين ، حيث تبقيهما الى الابد . وحلا لها أن ترجح ذلك برهة ، كان من حقها أن تهنأ بهذا الادراك ساعة .. ثم يجب أن تواجه المشكلة : امكانياتها ، وحدودها ، ونفسها ، وعلاقتها بجارث فى المستقبل ، وأثر زواجها منه عليه .. أما ما يعود عليها هى من هذا الزواج ، فلم يكن يخطر ببالها ، أو يدخل فى حسبانها . فقد أوتيت « جين » شعورا زاتيا عارما ، كذلك الشعور الذاتى الذى يكمن فى جميع النفوس التى فطرت على التحفظ ، ولكنها لم تكن محبة لذاتها .

وكانت قد تركت حجرتها فى الظلام — فى بادىء الامر — فتحسست طريقها الى الستائر وأزاحتها ، ثم رفعت الحاجز الخشبى ، ونقلت مقعدا الى النافذة ، حيث جلست ملقية ساعديها على حافتها ، معتمدة ذقنها فى راحتيها ، وراحت تطل على الشرفة التى كانت لا تزال تسبح فى نور القمر .. وكانت نافذتها تقع فى مواجهة المكان الذى تبادلت فيه الحديث مع « جارث » . ورأت الاسد الحجرى وأصيصا مليئا بزهور « الجيرانيم » القرمزية ، ثم استقر بصرها على عين البقعة التى كانت تجلس فيها حينما ... وهنا تيقظت ذاكرتها فى رجفة . واستسلمت جين — اذ ذاك — لاعجب تجربة عقلية مرت بها فى حياتها .. **لقد كانت امرأة ذات هدف وعزيمة ، وقد قالت لنفسها ان لها الحق فى أن تهنأ باستعراض ما جرى ساعة ، وقد نعمت بهذه الساعة كاملة . لقد التقت — فى نفسها — بنمرها وائتلفت معه دون خوف أو وجل ، فلم يسأل عما اذا كانت تحبه أم لا ، ولم تكن هى فى حاجة الى أن توجه لنفسها هذا السؤال . ومن ثم أسلمت قيادها وحريتها الابية فى حنان ، وتواضع ، وشوق .. ووجدت — بجماع ما فى فطرتها من قوة — بأن تحبه وتكرمه وتطيعه** . ولقد تقبلت الاعجاب الذى فاضت به عيناه الجميلتان ، دون أن تهتز فيها

جارحة .. لقد حبست جسمها بعيدا عن فكرها ، وخلت الى روحها .. وكانت روحها كاملة الجمال .. أصلح ما تكون له !

وهنا انزاحت عنها ذكريات سنين الوحدة ، فاذا الحياة أمامها غنية وعامرة بالآمال . فهو فى حاجة دائمة اليها ، وهى باقية دائما رهن اشارته ، وفى وسعها دائما أن تسد حاجته .. وراحت تسأله — فى خيالها الجميل هذا — « هل أنت راض يا حبيبى ! » .. وألقت السؤال تكرارا ، فكان صوت « جارث » المرح الذى يتفجر شبابا وفتوة ، يجيبها : « أتم الرضى ! » .. فابتسمت جين لليل ، وانبثق فى أعماق عينيها الهادئتين نور معرفة كانت حتى هذه اللحظة لا تدرى بها .. ومع ابتسامتها الرقيقة أحست برعشة حلوة لا سبيل الى وصفها ، وقد أدركت أسرار أصدق ما يداخل المرأة من الوان السعادة .. وتمتمت لنفسها : « انه لى وأنا له .. وان حبيبى لفى أمان ، لانه لى .. وانه لسعيد راض ، لاننى له ! » .. **وهكذا أسلمت نفسها تماما لاحلامها ، وقد ضمت « جارث » تحت جناحى حبها ، وامتلأ قلبها الكريم بعظمة هذه المنحة . ثم استيقظت فيها طبيعة الام ، فأدركت مقدار الحب الاموى الذى يتدفق فى فيض حب المرأة الصادقة ، عندما تدرك مدى طغيان طبيعة الطفل على الرجل المحب ، وكيف أن شدة حاجته اليها تهبط بالنفس القوية — التى أصبحت « هى » لازمة لها — الى درجة غير عادية من الضعف !**

وهنا ضغطت صدرها بيدها ، وهى تهمس : « جارث ، جارث ! .. اننى أفهم الآن ! لقد كان شاقا عليك — يا بنى المحبوب — ان أردك عنى اذ ذاك . ولكنك ظفرت فى تلك اللحظات الرائعة بكل شىء .. بكل ما أردت ، وليس هناك ما يسلبك هذا الامر الواقع .. لقد جعلتنى لك ، فلن يضم صدرى وجها آخر ، مهما يحمل المستقبل لك أو لى ! .. أن

صدرى لك ، وانا لك الليلة .. والى الابد ! » .. ثم ألصقت جبينها بحافة النافذة ، فسقط ضوء القمر الفضى على خصلات شعرها الداكن الغزير . وتضوع عبق المانوليا حولها . وتردد — فى غابة قريبة — تغريد كروان ساهر .. وانجابت عن « جين » سنين الوحدة الماضية ، ولحظات الحيرة الحاضرة ، والمستقبل المبهم .. وراحت تمخر مع « جارث » — فى الخيال — عباب محيط ذهبى ، بعيدا عن شواطىء الزمن .. لان الحب أزلى ، ومولد الحب يحرر الروح من كل حدود الجسد !

* * *

• **ودقت** ساعة بعيدة — فى القرية — معلنة انتصاف الليل ، فسرت الدقات الاثنا عشرة عبر الحديقة — التى أنارها القمر — الى نافذة جين .. ها قد عاد الزمن ثانية . وعادت روحها المتحررة الى حمل أثقال الجسد ! .. وبدأ يوم جديد .. اليوم الذى وعدت جارث فيه بردها . فعندما تدق الساعة الثانية عشرة — مرة أخرى — ستكون واقفة بجواره فى الكنيسة ولابد من أن يكون ردها معدا .. وعند ذلك ارتدت عن النافذة دون أن تغلقها ، بل اكتفت بأن أسدلت عليها الستار ، ثم أضاءت النور الكهربائى فوق منضدة الكتابة . وخلعت ثوب السهرة فعلقته فى مشجبة — داخل خزانة الملابس — وارتدت ثوبا أخضر فضفاضا ، ابتاعته حديثا بثمن بخس لان أحدا لم يشأ أن يشتريه .. واتخذت مجلسها امام منضدة الكتابة ، **وأخرجت مفكرتها اليومية ففضت عنها غلافها ، وبدأت تقرأ .. وقلبت صفحاتها فى تؤدة ، متوقفة للحظات هنا وهناك ، حتى عثرت على ما كانت تنشد ، فأطرقت مفكرة ورأسها مسند فوق يديها ، فقد حوت الصفحة حديثها مع جارث فى يوم حفلة (أوفردين)** .. وبدأت تلاوة ما كان مدونا بها — حرفا بحرف — فكانت السطور التى عنيت بها ، تتضمن :

« لقد تبدل منظر وجهه ، فأشرق محياه بشعاع من الطيبة والالهام ، حتى شابه وجه ملاك .. فلم أعد اعتبره دميما بعد ذلك ، لان جمال روحه قد تألق على سطح جسده فكساه سناء . ومع اننى كنت صبيا – اذ ذاك – فقد أمكننى أن أفرق بين الدمامة وتجرد القسمات من الجمال .. ومن ذلك الحين، أصبحت أقرن وجهه بجمال روحه العجيب .. وعندما جلس بعد انتهاء موعظته ، لم أعد أرى فيه شبها بالشمبانزى ، وانما تذكرت ما كان لابتسامته من سنى سماوى . وما كان وجهه بالوجه الذى يود المرء أن يعيش معه أو أن يلقاه يوما بعد يوم على المائدة – فى الواقع – ولكن المرء لم يكن مضطرا الى أن يقبل وضعا كهذا ، يمكن ان يسمى – فى رأيى – استشهادا . وقد انطبعت ذكراه فى مخيلتى من ذلك الوقت كبرهان ناصع على الحقيقة الواقعية .. على أن الطيبة لا يمكن أن تكون دمامة ابدا . وأن الحب العلوى والالهام السماوى اذا انبثقا من أبسط القسمات وأكثرها تجردا من الجمال ، تحولا مؤقتا الى جمال ، ودائما الى شىء يحب الانسان ان يذكره ! »

قرأت جين الصفحة كلها – فى البداية – ثم تركز نظرها وعقلها على جملة واحدة هى : « وما كان وجهه بالوجه الذى يود المرء أن يعيش معه أو أن يلقاه يوما بعد يوم على المائدة ، فى الواقع .. يمكن ان يسمى – فى رأيى – استشهادا » ! .. وما لبثت أن نهضت – أخيرا – فأضاءت جميع مصابيح منضدة الزينة ، والمصباحين الباهرين القائمين على جانبى المرآة – بوجه خاص – ثم جلست أمام المرآة ، وأخذت تفحص وجهها بكل نزاهة وصدق !

* * *

• **وعندما** دقت ساعة القرية معلنة الواحدة صباحا ، وقف « جارث دالمين » فى نافذته ليلقى نظرة اخيرة على الليل

الذى كان له أكبر الاثر عليه . وذكر — والابتسامة تعلو شفتيه — ما حدث وهو جالس فى الشرفة ، وكيف أنه استعان لتهدئة نفسه بالتفكير فى جوربيه الاحمرين واحصاء النوافذ الواقعة بين نافذته ونافذة جين .. كانت خمس نوافذ ، وقد تعرف على نافذتها بشجرة المانوليا ، وبالمقعد المثبت تحتها ، والذى تصادف أن جلس فيه دون ان يفطن الى وقوعه تحت نافذتها .. وعند ذلك مال بجسمه خارج النافذة ليشهد نافذتها ، فرأى الستار مسدلة ، ولكن بصيصا من النور كان ينفذ اليه من بين شقيها .. وفيما هو يحملق ، انطفأ النور !

وعاد بنظره الى الشرفة ، فرأى الاسد الحجرى وحوض « الجيرانيم » القرمزى ، واستطاع ان يحدد البقعة التى كانت جين تجلس فيها عندما ...

واذ ذاك جثا على ركبتيه بجوار النافذة ، وتطلع الى السماء المرصعة بالنجوم .. لقد عاشت أم جارث من العمر ما مكنها من أن تلقنه السر المقدس .. سر صبرها الجميل وقوة احتمالها . ففى لحظات الجيشان العاطفى ، كانت كلمات من « التوراة » — التى ورثها عن أمه — تتبادر على لسانه ، اسرع من العبارات التى تعبر عن أفكاره . لذلك راح يردد — فى خفوت وخشوع — وهو يتطلع الى السماء : « كل عطية صالحة وكل منحة تامة ، هى من فوق نازلة ، من عند ابى الانوار الذى لا يتغير ، ولا يعتوره ظل من تقلب » . ثم أضاف مبتهلا :

« يا أبانا ، احفظنا فى النور .. هى وانا ! ولنكن مثلك ، لا نتغير ، ولا يعتورنا ظل من تقلب ! »

وعند فراغه من هذا الابتهال ، نهض على قدميه ، فألقى نظرة ثانية على الاسد الحجرى ، وعلى السياج العريض .. وغردت روحه فى أعماقه ، وعقد ذراعيه فوق صدره وهو

يهتف : « يا زوجتى .. يا زوجتى ! »

. . . .

أما جين ، فكانت قد اهتدت الى قرارها ، عندما دقت ساعة القرية مؤذنة بالواحدة ، ونهضت فى تراخ فأطفأت جميع الانوار ، وتلمست طريقها الى فراشها ، ثم جثت على ركبتيها بجوار السرير واجهشت ، باكية فى يأس عميق صامت !

الفصل الحادى عشر



• **كانت** كنيسة القرية المحاطة بالخضرة تسبح فى ضوء الشمس ، عندما برزت جين من ظلال الحديقة الرطيبة .. وكانت الساعة قد اعلنت الحادية عشرة والنصف ، فلم تر ما يستدعى العجلة ، لعلمها بأن موعدها لم تكن مرتقبة قبل الثانية عشرة . وكانت نوافذ الكنيسة مفتوحة وكذا ابوابها البلوطية الثقيلة .. ووقفت جين تحت مظلة المدخل المغطاة بأغصان اللبلاب ، ترهف السمع ، فتناهت نغمات الارغن الى مسمعيها ، وكأنها منبعثة من مسافة بعيدة ، ولكنها - مع ذلك - توحى بالقرب .. كانت الانغام تنفذ متسللة خلال اليدين والقدمين . وبدا الارغن كأنه يتنفس ، وان أنفاسه

كانت موسيقى ! .. وما لبثت جين أن دفعت الباب الثقيل ليزداد انفراجه .. وجال بذهنها – اذ ذاك – ان الغلام الصغير – ذا الشعر الاحمر المجعد – وجارث ، بقامته الفارعة ، قد مرقا بسهولة خلال فرجة أبت ان تتسع لجسمها الكبير ، فدفعت الباب مرة أخرى ، ودخلت .

وتغلغلت فى روحها سكينة شاملة ، فى الحال . وكثيرا ما يساور الانسان شعور «غريب» عند دخوله منفرداً انى كنيسة خالية ، فيخال أن فى المكان أشخاصا غير منظورين .. وكأن الاثر الذى تركته السنون على الجدران العتيقة والمقاعد الخشبية – من بقايا افكار المصلين على مدى الاجيال – قد اسكت الحيرة الملحاحة التى استولت على جين ، فنسيت – لبضع لحظات – المهمة التى أقبلت من أجلها ، وأحنت رأسها فى خشوع ، منساقة للعبادة التى عمرت بها الكنيسة أجيالا . وكان «جارث» يعزف ترنيمة : « هلمى ايتها الروح الخالقة » ، متبعا لحن « آتوود » بدقة . فلما سارت جين بخطى صامتة نحو الهيكل ، شرع يترنم بكلمات المقطع الثانى .. وكان يترنم بصوت خافت ، ولكن نبراته الممتلئة المتسقة ، حملت كل حرف :

« اللهم امح بنورك الدائم الازلى اعتام بصائرنا العمياء
« وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة ، وانرها بفيض مجدك ..
« وابعد عنا أعداءنا ، هب السلام لاوطاننا ..
« فحيث تكون مرشدنا ، لن ينالنا سوء ! »

ثم انطلق الارغن بكل قوته ، مدويا بأنغام البيت الاخير ، دون كلماته ، فأخذت الكلمات التى أنشدها « جارث » تتردد فى ذهن جين مرارا : « فحيث تكون مرشدنا ، لن ينالنا سوء ! » .. أفلم تدع الله طالبة الهداية ؟ .. اذن فلا بد ان تسير كل الامور على خير حال ! .. ووقفت عند عتبة الهيكل . وكان « جارث » قد عاد الى المقطع الثانى ، وأخذ ينشده على

أنغام ناى عال : « اللهم امح بنورك الدائم .. »
وجلست جين على أحد المقاعد الخشبية ، وتلفتت حولها .. كانت أشعة الشمس تنفذ من الخارج ، خلال زجاج النوافذ غير النظيف ، ثم تتحول الى خيوط ذهبية كهرمانية تتخللها اسهم قرمزية .. الا ما أجمل التعبير : **« نورك الدائم »** ! .. وأخذت كل جملة تشق السكون ـ بينما كان « جارث » ينشدها ـ وكأنها أشعة الشمس الصافية .. واذ قال **« أعتام .. »** ، لمحت « جين » قمة شعر رأسه الاسود ، من فوق ستار الارغن المسرف الوشى .. وأوجست من اللحظة التى يرفع فيها رأسه ، فتقع عيناه الوضاءتان عليها .. **« بصائرنا العمياء »** .. ترى كيف يتلقى ما سوف تصارحه به ؟ وهل ستجد القوة التى تمكنها من اجتياز هذا الموقف الطويل القاسى ؟ وهل سيتحطم قلبه بشكل مؤلم ؟ .. **« وأمسح بالزيت وجوهنا الملوثة »** .. وهل سيحاججها ، ويصر ، ويتغلب على قرارها ؟ .. **« وانرها بفيض مجدك »** .. وهل تستطيع أن تقاوم قوته الضارية اذا آثر أن يمارسها ؟ وهل سيتمكن كل منهما من اجتياز فترة عصيبة كهذه ، دون أن يصيب الآخر بجرح بالغ ؟ .. **« وابعد عنا اعداءنا ، وهب السلام لاوطاننا »** .. أواه ، ماذا تملك أن تقول ، وما الذى سيقوله ؟ كيف تراه سيجيب ؟ .. وأى سبب تعلل به رفضها النهائى ويقبله « جارث » ؟ .. **« فحيث تكون مرشدنا ، فلن ينالنا سوء »** .. وبعد أن عزف « جارث » بعض مقتطفات متناثرة ، انتقل الى لحن آخر .

عند ذلك كف قلب جين عن الوجيب ، فلقد بدأ جارث يعزف **« المسبحة »** . ومع أنه لم ينشدها ، الا ان قوة الانغام المنبعثة من أنابيب الارغن ، لاحت ككلمات أشد وقعا مما لو رددها أى صوت ، وبدا كأن لآلىء الذكرى ـ فى صفاء نورها الباهر الثمين ـ كانت تحصى واحدة واحدة ، خلال نغمات الناى الحزينة ،

الى أن أعلنت أنغام ناى الارغن العثور على الصليب ، فسكنت كلها فى قلب جين بمعان جديدة .. ثم أخذت تجيل النظر حولها فى حيرة بالغة وارتباك ظاهر ، وكأنها تتلمس سبيلا للهرب من النغم العذب الحزين الذى تردد فى أرجاء الكنيسة الصغيرة ..

* * *

• **وفجأة** توقف الارغن ، ونهض « جارث » واستدار .. ورآها ، واذا بوجهه يشرق بنور فرح عظيم ، وقال مخاطبا الغلام نافخ الارغن : « حسبنا ياجيمى ، حسبنا هذا فى الصباح ، وهاك قطعة فضية لأنك أبديت نشاطا فى نفخ الارغن .. انه شلن . لا بأس ، خذه فهو منى لك اليوم ، لان اليوم يوم مجيد ، لم يمر بحياتى يوم على شاكلته يا جيمى ، واريدك أن تكون فرحا مثلى ! .. هيا أركض ! .. أسرع وأغلق باب الكنيسة خلفك يا بنى ! » .. **يا لصوته ، ويا لرنة الابتهاج التى تطفر فيه ، والتى هزت روحها !** .. اما الغلام ذو الشعر الاحمر المجعد والوجه المنثور بالنمش ، فقد تهلل سرورا ، وخرج من خلف الارغن ، فأفلتت من يده القطعة الفضية . وأخذ فى البحث عنها حتى عثر عليها ، ثم خرج أخيرا ، وأغلق خلفه الباب الثقيل ، بصوت شديد مدو .

وبقى جارث واقفا بجانب الارغن دون حراك ، ودون ان يرفع نظره نحو جين .. فلقد اجتاحته - اذ أصبحا وحيدين فى الكنيسة - رهبة الموقف . وتمهل بضع لحظات لاحت لجين وكأنها أيام ، بل أسابيع ، بل اعوام ، بل دهر . ثم خرج من وراء الارغن الى وسط الهيكل ، ووقف مرفوع الرأس وعيناه تومضان ببريق خاطف ، وبدا وكأنه فاتح واثق من النصر !..
ثم مشى الى الحاجز ذى النقوش العجيبة ، المصنوع من خشب البلوط فعبره ثم وقف على الدرجات المؤدية الى الهيكل ،

وأشار الى « جين » لتتقدم وتقف بجانبه ، وهو يقـول لها : « هنا يا عزيزتى .. ليكن هنا ! »

وتقدمت جين نحوه وبقيا معا لحظات يحدقان بالهيكل فقد كان أشد عتمة من باقى الكنيسة ، اذ لم تكن تضيئه سوى ثلاث نوافذ ضيقة ذات زجاج ملون ومزركش ، يمثل صورا ووقائع دينية معروفة .. وكانت النافذة الوسـطى تقع تماما فوق « مائدة المناولة » ، وقد رسمت عليها صورة المسيح مصلوبا .. فنظر كلاهما الى الصورة فى صمت وخشـوع ، ثم التفت جارث الى جين وقال : « يا حبيبتى .. اننا هنـا فى حضرة قدسية ، ومكان مقدس ولكن قدسـية المكان لن تقف حائلا دون الافضاء بما لدينا من حديث . وان الروح القدسية التى يؤمن به كلانا ، لقادرة على أن تحل فى وسطنا فى هذا المكان ، لتبارك حديثنا وتصادق عليه .. اننى فى انتظار ردك ! »

واذ ذاك جاهدت جين لتجلو حنجرتها ، ووضعت يديهـا المرتعشتين فى جيوب سترة ردائهـا ، ثم قالت : « دال ، ان ردى يتمثل فى سؤال .. ما عمـرك ؟ » . وأحست بعنف الدهشة التى ألمت به .. واذا سناء الرجاء البهيج الذى كان يكسو وجهه قد خبا .. غير أنه أجاب بعد تردد قصير : « ظننتك تعلمين أيتها العزيزة .. ان عمرى سبع وعشرون سـنة » . فقالت له جين بكل تمهل وتفكير : **« حسـنا ان عمرى ثلاثون سنة ، ويلوح على أننى فى الخامسة والثلاثين ، بل اننى اشعر فى نفسى بأننى فى الاربعين .. وانت فى السابعة والعشرين يا دال ، ويظهر عليك أنك فى التاسعة عشرة ، وكثيرا ما تشـعر بأنك فى التاسعة . لقد فكرت فى الامر كثـيرا وانت تعلم .. ليس بوسعى أن أتزوج مجرد .. غلام ! »**

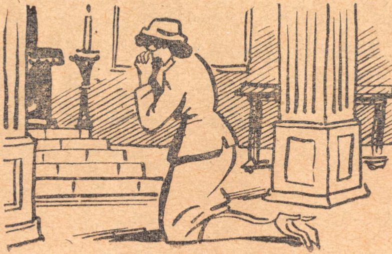
وسادهما صمت شامل ....

وفى فزع شديد ، رفعت « جين » عينيها ونظـرت اليه ، فاذا بالشحوب قد سرى فى وجهه حتى شـفتيه ، وتوترت

عضلاته وقد دهمه سكون جامد .. سكون حجرى عجيب ، ولم يعد فيه شيء من سمات الشباب .. ولاح كأنما كانت أرجاء الكنيسة كلها تولول مرددة فى عذاب وحشرجة : « وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة » !

وأخيرا تكلم جارث فى بطء تام : « ما فكرت قط فى نفسى .. ولست أدرى كيف أفسر ذلك ، ولكننى لم أفكر قط فى نفسى منذ امتلأ عقلى بك ، لذلك لم أفطن الى ضآلة ما بى من ميزات تستحق رضاك . لقد اعتقدت بأنك شعرت بمثل ما شعرت أنا به ، وان كلا منا أصبح للآخر ! » .. ثم بسط يده لحظة ، وكأنه يهم بأن يلمسها ، ولكن يده لم تلبث ان هوت الى جانبه . ثم قال : **« انت محقة فيما تقولين ، فليس بوسعك أن تتزوجى شخصا تعتبرينه مجرد .. غلام ! »** . وأشاح عنها فواجه الهيكل ، ونظر الى النافذة القائمة فوق « مائدة المناولة » المقدسة ، حيث كانت صورة المسيح مصلوبا . وجمد فى صمت بالغ لمدة دقيقة ، ثم احنى رأسه قائلا : « فلأقبل الصليب » ! .. وسار فى هدوء فى ردهة الكنيسة ، ثم فتح بابها وأغلقه بعنف .

وبقيت جين وحيدة .. وما لبثت ان تعثرت فى سيرها الى المقعد الذى كانت تجلس فيه من قبل ، وسقطت على ركبتيها



هاتفة : ((أواه ! .. يا الهى أعده ثانية الى .. أواه ، أعده الى ! آه ، يا جارث ! .. انما انا المجردة من الجمال ، الخلو من الجاذبية ، العاطل من كل ما يشتهى ، فلست أليق بك .. أواه ، يا جارث ! .. أرجع الى ! أرجع الى ! أرجع الى ! .. اننى اركن اليك ، ولن يساورنى الخوف .. أواه يا عزيزى .. ارجع الى !))

وأصاخت السمع مرهفة أذنيها .. وانتظرت حتى أرهق الانتظار كل عصب فى جسمها . وراحت تنسق فى ذهنها ما تقول من الكلمات حينما يفتح الباب الثقيل ثانية ، ويلوح جارث واقفا فى ضوء الشمس .. وحاولت ان تذكر ترنيمه : ((هلمى أيتها الروح الخالقة)) ، ولكن الصوت الاجوف الذى أحدثه اغلاق الباب كان قد أسكت كل شىء ، حتى أصداء الموسيقى الهائمة .. وانتظرت صامتة ، والسكون يزداد وطأة كلما طال الانتظار ، حتى لاح كأنه يوشك أن يحتويها بين جدران منيعة ، قاسية ، لا تنفرج الا لتكشف لها عن رؤى سنوات الوحدة المرتقبة فى المستقبل . وللمرة الاخيرة ، مزقت الصمت وهى تصرخ : ((أواه ، يا حبيبى ، أرجع الى ! .. لسوف أجازف !)) .. غير أنها لم تسمع وقع خطوات ، فركعت وقد دفنت وجهها فى راحتيها ، وقد أدركت فجأة أن ((جارث دالمين)) قد تقبل جوابها كقرار نهائى ، لا نقض فيه ، ولا رجوع عنه !

ولم تدر كم مضى عليها وهى جاثية على ركبتيها ، بعد ان تحققت من مصيرها . ولكن السكينة لم تلبث أن تسربت الى نفسها ، فشعرت بأنها قد أحسنت صنعا ، وان ساعات من الالم ــ فى الحاضر ــ خير من سنوات متوالية من الخيبة والقنوط ، فى المستقبل .. **ان حياتها قد تصبح خواء محزنا ، ولقد كبدها فقدان هذا الفرح ــ الذى اكتشفته حديثا ــ أكثر مما كانت تنتظر ، ولكنها أيقنت ــ عن صدق ــ بأنها**

قد أحسنت فيوما فعلت من أجـــل ((جارث)) .. فما قيمة آلامها الشخصية ؟ ! .. وبذلك استردت جين هدوء نفسها ، فنهضت وغادرت الكنيسة وسكونها ، الى الشمس المشرقة والنسيم العليل .. وما أن بلغت أبواب الحديقة ، حتى وجدت بعض الصبية يلهون فى مرح بطائرة من الورق . وكان ((جيمى)) هو بطل الساعة ، ومحط أنظار الجميع ، اذ كان صـــاحب هذه الطائرة الجديدة .. لقد كان جيمى سعيدا ، اذ تبين أن ((اليوم سعيد)) حقا ، كما قال له ((جارث)) .. فاغرورقت عينا جين بالدموع عندما ذكرت كلمـــاته لجيمى ، واللهجة التى خاطبه بها . ثم قالت فى حسرة وهى ترى الطائرة ترتفع فوق رؤوس الصبية : ((هذا أثر شلن فتاى العزيز ، ولكن .. اين لفتاى نفسه بالفرح ، واحسرتاه !)) ..

* * *

• **وفيوما** كانت تجتاز الطريق المحفوفة بالاشجار ، مرقت من الالم – فى الحاضر – خير من سنوات متوالية من الخيبة خادم وحقيبة ملابس . حتى اذا حاذتها المركبة ، رفع قبعته تحية لها ، دون أن ينظر اليها .. وان هى الا لحظـــة حتى اختفى عن بصرها ، فلو أنها ارادت ان تستوقفه لما استطاعت .. ولكنها لم تفكر فى ذلك ، اذ استولى عليها ارتياح تام ، لانها فعلت ما رأته صوابا ، ولانهـــا فعلتـــه وهى تدرك ان غرمهـــا سيفوق غرمه بكثير . فان جارث لن يلبث ان يجد – وربمـــا قبل مضى وقت طويل – انثى غيرها تكون له بكل كيانها ، بل وبأكثر مما كان يعتقد أن ((جين)) ستكون له . أما هى ، فقد كان الالم الممض الذى أحست به فى صدرها ، يذكرها بالكلمات التى خرجت من فمها – فى الليلة الماضية – وهى فى حجرتها تناجيه على غير مسمع منه : ((مهما يكن فى المســـتقبل من أحداث لك أو لى ، فلن يحتضن صدرى وجها غير وجهك !))

.. وفى هذه الساعة الاولى من سنين الوحدة المقبلة عليها ، ادركت « جين » ان هذا كان صوابا !

وعندما بلغت البهو ، التقت ببولين ليستر التى بادرتها بقولها : « أهذه أنت يا آنسة شامبيون ؟ .. هل سمعت ما حدث مع السيد دالمين ؟ لقد اضطر الى التعجيل بالسفر الى لندن ، فى قطار الساعة الواحدة والربع .. كما أن عمتى مضطرة الى المبادرة بالسفر هى الاخرى ، اذ سقط طاقم أسنانها الصناعية ، ولا بد لها من زيارة طبيب الاسنان ، ومن ثم فستسافر بقطار الساعة الثانية والنصف .. ان العالم ملىء بالمفاجآت والتقلبات ! .. لكم ترتبك خطط المرء ، اذا كانت تتصل بأسنان صناعية لاى شخص آخر ! .. على اننى أفضل أن أحطم أسنانا صناعية ، على أن احطم قلوبا صادقة ، لان فى الامكان اصلاح الاولى ، ولكنى لا احسب احدا يستطيع اصلاح الثانية ! .. والآن ، سنتناول طعام الغذاء بسرعة فى حجرتنا ، فاستودعك الله يا آنسة شامبيون » .

الفصل الثانى عشر



• **وقفت** النبيلة « جين شامبيون » فوق قمة الهرم الاكبر ، وأجالت النظر فيما حولها .. كان الاعراب الاربعة منهوكى القوى ، بعد أن استطاعوا بجهودهم ــ مقترنة بنشاطها

هى - أن يرفعوها الى حيث كانت ، ثم تهالكوا جالسين تلك الجلسة الطريفة التى لا يجيدها سوى الاعراب ! .. لقد استطاعوا أن يرفعوا النبيلة جين - وهى تزن نحو خمسة وسبعين كيلو جراما - من أسفل الهرم الى قمته فى أقصر مدة ممكنة ، ومن ثم اضطجعوا حولها فخورين بما قاموا به ، مطمئنين الى جزائهم . فلقد تم كل شىء فى نظام دقيق . اذ أخذ اثنان منهم - فى لون خشب الموجنى ، وقد أوتيا قامتين ممشوقتين ، فى غلالتين بيضاوين بسيطتين - يثبان وثب الغزلان فوق الاحجار العالية ، ثم يبسطان أيديهما ليمسكا بيدى النبيلة « جين » - الممدودتين اليهما - بينما بقى رجل ثالث خلفها ليساعد فى رفعها . **وهنا كان دورها يحين للقيام بما بدا لها مهمة شاقة ، فكانت ترفع نعلها الى حافة الحجر الكبير الذى يعلوها بأربع أقدام ، فكأنها تخطو الى ما فوق حافة المدفأة فى قاعة الاستقبال!..** وكان لما بثوه فيها من حماس - بصياحهم المتوالى « أيوه ! أيوه ! » - فضل فى تمكنها من القيام بهذه المهمة القاسية .. وما أن كان أحدهم يصيح من خلفها قائلا : « طيب ! » ، حتى يجيبه الآخران من أعلى قائلين : « كثيرا ! » ، فاذا القبضتان اللتان شدتا على يديها تزدادان تشبثا ، بينما يرفعها الاعرابى - الذى فى الخلف - فتصعد بسهولة أذهلتها . والواقع أنه كان من المستحيل - فى تلك الظروف - أن لا تتمكن من الصعود ! .. أما الاعرابى الرابع فكان يحمل الماء ، يقدم منه لزملائه فى فترات ، حتى اذا ما نادت « جين » طالبة بضع دقائق تستريح فيها وتسترد أنفاسها ، انتهز الفرصة رئيسهم ، واسمه « شحاته » - وهو أجملهم شكلا - ليتلو عليها بضعة أبيات زعم أنها من شعر شكسبير الانجليزى :

« جاك وجيل ، صعدا الى أعلى التل ، ليأتيا بدلو الماء ..

فسقط جاك ، وشق جبينه ، وهوت جيل خلفه متخبطة » !

ولقد ضحكت جين ، فشــجع « شحاته » ما أحرزه من نجاح فى تثقيفها وتسليتها ، وراح يردد أبياتا من أناشـيد الاطفال ، كاشارات للتحفيز على توحيد الجهود ، أثناء تسلق الاحجار الباقية .. وهكذا صعدت جين حجرا واحدا عند ذكر سقوط جاك ، وتسلقت الحجر التالى عند ذكر الضرر الذى أصابه . وعند الحجر الثالث مال ، « شحاته » ليسر اليها : « وهوت جيل خلفه متخبطة » ، بينما كان « على » يرفعها من الوراء ! .. واتخذت الكلمات المألوفة معانى جديدة ، فى ظروف كهذه ، فراحت « جين » تفكر فيما اذا كان سقوط جاك خليقا بأن يؤدى حتما الى أن تفقد « جيل » توازنها تماما ، فتهوى .. أما كان فى وسعها اظهار وقائها بشكل أكمل ، فتأتى بالدلو الى أسفل التل ــ فى أمان ــ وتعنى بجروح زميلها ؟ .. لقد رأت « جين » فى حياتها حوادث سـقوط كثيرين من أمثال جاك ، فعنيت هى بجباههم الجريحة ، لان « جيل » كانت تظل ــ فى كل الحالات ــ فوق قمة التل ، تعازل « هورنر » ، ذلك الشخص المحوط بالشبهات ، والذى كان يعمل فى هدوء ، ويرسم الخطط فى دهاء ، على العكس من « جاك » الذى كان يؤثر الخط المستقيم فى خططه .. ومع ذلك فقد استطاع « هورنر » بحرصه وهدوئه ، أن ينال أغراضه ، وأن يهتف : « يا لى من فتى ! » . فقد كان الناس يقدرونه بمدى اعتداده بنفسه .. ولقد اعتادت « جين » أن تتجه بكل عطفها ــ فى مثل هذه الظروف ــ نحو العاشـــق المهزوم .. **وكم من « جاك » نهض بعد سقوط ، واستعد مركزه ، وواجه الحياة ، لان يدها الحانية قد امتدت اليه وأعانته حيث كان مسـتلقيا فى ذلة وهوان ، ولان عطفها**

– المشوب بالفهم والادراك – كان علاجا الجبهة الجريحة ! (١)

ثم أخذ « شحاته » – يردد نشيدا من أناشيد الاطفال : « ديكرى ، ديكرى ، دوك .. جرى موسى فوق الساعة .. فدقت الساعة دقة واحدة ! » .. **دقت الساعة دقة واحدة ! .. أواه ، لقد مضت سنوات ثلاث على تلك الليلة التى دقت الساعة فيها الواحدة – فى (شنستون) – فاذا جين تصل الى قرارها الذى طوح بجاك – فى أنشودة حياتها – من فوق تل المستقبل ! (٢)** .. ولكن لا ، انه لم يسقط من شدة الصدمة ، بل أنه تلقاها برجولة ، وسار منتصب القامة .. وكانت خطواته الخفيفة أكثر ثباتا من المعتاد ، حين تركها وغادر الكنيسة فى هدوء واتزان ، بعد أن أبلغته قرارها ! .. انما كانت هى – جين – التى سقطت مترديه فوق الدلو ، عندما انفردت بنفسها .

★★★

• **وشعرت** – رغم الزمن الذى انقضى – بقشعريرة من الماء الذى سال عليها من الدلو فبلل قلبها .. **أواه ، ترى ماذا كان يحدث لو أن « جارث » عاد مستجيبا لندائها وبكائها فى تلك اللحظات الاولى من الوحدة والاوجاع التى لا تطاق ؟ !**

ولكن جارث لم يكن من الرجال الذين يجلسون على الاعتاب –

---

(١) الواضح هنا أن « جين » تمثلت فى « جاك » اى عاشق شريف صريح ، و « جيل » أية فتاة معتدة بجمالها ، تدرك أنها هدف المعجبين ، و « هورنر » أى شاب خبيث ، واثق من براعته فى اجتذاب الحبيبة بدهائه ، فهو يترك غريمه يشقى فى ملاحقتها ثم يرتد خائبا ، كسير القلب ، بينما يبقى هو فى نهاية الطريق ، ليستقبلها ويحظى بها دون عناء !

(٢) « جاك » الذى فى انشودة حياة جين ، هو « جارث دالمين » . وهنا وفى السطور التالية ، آثرت المؤلفة ان تصور « جين » وهى تستعرض مأساة قلبها ، واحداث الاعوام الثلاثة التى انقضت – منذ فراقها لجارث – على هدى كلمات الانشودة . ولذا نجد الحديث مليئا بالكفايات والتوريات .

اذا أوصد باب فى وجوههم — مترقبين أن يدعوا ثانية . فلما صدته ، وأيقن أنها جادة ، خرج من حياتها خروجا تاما .. وكان يتأهب لان يستقل القطار ، عندما بلغت هى قصر (شينستون) . ومنذ ذلك اليوم لم يتقابلا ! .. وكان من الجلى أن جارث قد اعتبر تفادى اللقاء مهمة يتحمل هو مسئوليتها ، فلم يخفق قط فى أدائها . ولقد ذهبت — مرة أو مرتين — لزيارة بعض الاصدقاء ، وهى تعلم بوجوده هناك ، فكان — فى كل مرة — يبارح الدار صباحا ، اذا كان مقدرا أن تصل هى ظهرا ، أو بعد الظهر اذا كانت ستصل فى موعد الشاى ، ولم يخطىء مرة فى حسبان المواعيد بحيث يلتقيان فى محطة السكة الحديدية ، فيتألم كل منهما ، ويمر بصاحبه عابسا ، أو يبادله تحية متكلفة ، مما يوقظ الشجون الهاجعة ، ويتيح للناس مجالا للظنون .. **وذكرت جين — والخجل يملأها — ان هذه هى المأساة الكريمة الرقيقة التى ترتقب من ((جارث دالمين)) . ولكن الرجل الذى أدهشها بارتضائه — فى اباء كريم — قرارها ظل يدهشها بالجلد الذى أبداه فى تقبل هذا القرار — صامتا — على أنه نهائى ، فحرص على أن يبتعد عن طريقها . وما قدر لجين قط أن تدرك عمق الجرح الذى ألحقته به !**

ولقد سارت أمورهما على هذا المنوال ، دون أن يتبادر الى ذهن أحد وجود علاقة ما بين رحيله ووصولها ، فقد كانت ثمة أسباب طبيعية وجيهة تفسر سر اضطراره الى الرحيل ، فكان القوم دائما يبدون أسفهم ، ويتحدثون عنه فى غير حرج ، وبذلك قدر لجين أن تسمع أحدث ((قصص دال)) ، وأن تجد نفسها محاطة بجو طبيعته المبتكرة المحبة للجمال . وكانت ثمة فتاة فى كل قصة .. وهى — دائما — أجمل فتاة فى المجتمع ، فكان القوم يشيرون لجين نحوها — خلسة — ويهمسون بأنها كانت صاحبة الحظوة — بالتأكيد — لو أن اقامة ((جارث)) فى المكان ، امتدت أربعا وعشرين ساعة أخرى . ولكن الفتاة

المقصودة بالحديث تكون عادة خالية الذهن من كل ما يفكرون، فلا يتعدى شعورها الغبطة البالغة بالصداقة اللطيفة التى توطدت بينها وبين « دال » ، ومن ثم تروح تشرح آراء « دال » فى الفن والالوان ، وهى سعيدة — فى أعماقها — بثقتها الوطيدة فيما أوتيت من حسن وفتنة ومقدرة على الظفر بالاعجاب . على أن « جارث » لم يكن يخلف وراءه قط أى أثر يبعث فى المرأة التى أحبته أى ندم أو حسرة . بل كان يفارقها دائما الى غير رجعــة . فما كان « جارث دالمين » من الرجال الذين يفترشون أعتاب امرأة مترددة !

كذلك لم يهشم « جاك قصيدة حياتها » جبينه ، فان الصورة التى رسمها للآنسة بولين ليستر — بعد سنة من زيارة (شيبنستون) . كانت أبدع تحفة أخرجها حتى ذلك الوقت .. فلقد رسم الامريكية الحسناء فى ثوب حريرى أبيض ، وقد وقفت على درجات سلم من البلوط الداكن ، معتمدة باحدى يديها على سياج السلم ، وحاملة — بالاخرى — باقة من الورد الاصفر ، تهم بتقديمها الى صديق غير ظاهر ، عند أسفل السلم . وكان ثمة ضوء ينساب خلفها وفوقها من نافذة يرجع عهدها الى أجيال مضت ، وقد رسمت على زجاجها أسلحة ، وخوذة ، وشعار الاسرة العريقة التى تمتلك الدار ، فبدت متألقة بالالوان الوردية وقطع الزجاج الذهبية . ولقد صور — بمهارة رائعة — حيوية الفتاة وسحرها ، فظهرت فى مرح الفتاة الحديثة ، وصراحة الفتاة الامريكية ، من قمة رأسها الملكى الصغير ، الى طرف حذائها الحريرى .. وكان اقدامه على اظهارها فى محيط تسود جوه خير تقاليد البيوت الانجليزية العريقة فى القدم ، ومزجه — فى غير خوف — العالم الجديد بالعالم القديم ، ووضعه هذه الجوهرة المتألقة — التى تنتمى الى العالم الجديد — وسط اطار جميل مكتمل من العالم القديم ، مبديا ذلك فى أروع ما استطاع .. كل هذه كانت

العناصر التى كونت اللوحة . ولقد ابتسم الناس ، قائلين ان المصور قد أودع اللوحة ما كان ينتوى تحقيقه — عما قريب — فى الواقع ، **ولكن الرابطة بين الفنان والفتاة صاحبة الصورة لم تتجاوز — اطلاقا — الصداقة الجميلة ، وكان النبيل صاحب القصر — الذى ضم ذلك السلم وتلك النافذة — هو الذى لم يلبث أن أن أغرى الآنسة ليستر بأن تبقى معه فى هذا الوسط الذى لاءمها تلك الملاءمة الرائعة ، التى نطقت بها اللوحة !**

ولقد سمعت « جين » قصة أخرى — عن اللوحة — دار حولها الحديث أمامها ، أكثر من مرة ، فى أوساط كان كل من « دال » و « جين » من نجومها . فعندما جلست الآنسة ليستر أمام الفنان — المرة الاولى — كانت تحيط عنقها بعقدها اللؤلؤى الثمين فأجاد جارث رسم اللآلىء وأبدع ، وقضى ساعات طويلة فى كل لؤلؤة ، حتى أظهرها فى أكمل صورة متألقة . وفجأة ، أقبل فى أحد الايام — على العقد اللؤلؤى يكشطه من اللوحة ، وطلب الى « بولين ليستر » أن تضع بدله عقدا من الياقوت الاحمر ، ليتناسق مع بقية الالوان التى كان يريدها للوحة . وكان العقد الياقوتى الاحمر هو الظاهر فى اللوحة حين شاهدتها فى معرض « الاكاديمية » ، فما أبدع ما بدت اليواقيت الحمراء على عنق بولين الناصع الرقيق .. غير أن كثيرين ممن رأوا الصورة — قبل قشط العقد اللؤلؤى — أكدوا بأن الكشط قد أفسد عملا رائعا ، كان خليقا بأن يشغل الناس به ، عاما بعد عرضه .. أما بولين ليستر ، فقد قيل أنها هزت كتفيها الجميلتين — بعد هذا التعديل — وقالت : « ان تنسيق الالوان أمر بديع ، ولكنه كشط اللآلىء من اللوحة ، لان شخصا ما أقبل وهو يرسم العقد وأخذ يغمغم بلحن وهو يتأمل الصورة .. وكم أكون شاكرة لو تجنب زائرو المرسم الغمغمة بالالحان ، أثناء رسم صورتى ، فلست أود أن يسارع الرسام الى كشط يواقيتى الحمراء طالبا أن استبدلها بعقد

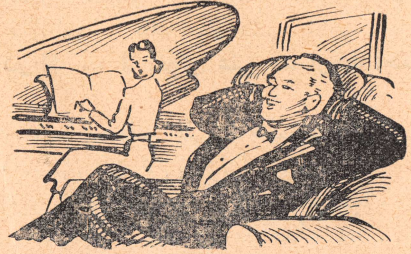
من الزمرد .. كما أننى على استعداد لان أقدم جائزة لمن يدلنى على هذا اللحن ، اذ أحب أن أعرف العلاقة بينه وبين تنسيق الالوان فى لوحتى ! »

* * *

• **ولقد** سمعت جين القصة فى حديث جرى أثناء تناول الشاى فى مخدع الليدى براند — أثناء زيارتها لاسرة براند بشارع ويمبول — وكانت الحفلة الموسيقية التى أقيمت بدار عمتها الدوقة ، والتى سمعها فيها « جارث » وهى تغنى « المسبحة » ، قد أصبحت فى عداد الماضى . كما كان قد انقضى على فراقهما حوالى العام ، وكانت هذه أول مناسبة تعترضها فيها ذكراه سواء بالفكر ، أو القول أو الاشارة .. مباشرة أو غير مباشرة . ولم يخامرها ريب فى أن اللحن الذى غمغم به الزائر ، **هو « المسبحة »** :

ان الساعات التى قضيتها معك يا قلبى الحبيب ..
« هى — عندى — كعقد من اللآلىء ..
« أعدها مرارا ، واحدة فواحدة ، كل على حده »

وخيل لجين أنها تسمع صوت « جارث » فى الشرفة ، كما سمعته فى تلك اللحظات المذهولة ، التى فطنت فيها الى النعمة التى كانت مطروحة تحت قدميها : **« لقد تعلمت عد اللآلىء يا محبوبتى .. »** ! وكان قلب جين قد غدا — باردا ، بل أنه تجمد كالثلج — فى غمرة الفراغ الوحشى ، فاذا بقصة ما حدث فى المرسم تعيد الدفء الى قلبها ، فانتفض فى صدرها لحظة . ومع اليقظة داهمها ألم حاد .. فلما انصرفت ضيفات ليدى براند ، وذهبت هذه الى حجرة أطفالها ، نهضت « جين » الى البيانو ، وأخذت تعزف فى رفق مقدمة « المسبحة » . وبدا ان رنين الاوتار الخافتة بغتة ، والنشاز الذى خالطها فى البداية



لينسـاب بعد ذلك الى تناسق ، كان يتلاءم مع مزاجها وذكرياتها . وفجأة سمعت خلفها صـوتا يقول : « غنيها يا جين ! » . فالتفتت واذا بالدكتور دريك قد تسـلل الى الحجرة ، واستلقى فى رشاقة على أريكة بجوارها ، وقد عقد يديه وراء رأسه وردد رجاءه : « غنيها يا جين ! » .. فأجابته وهى مستمرة فى دق الاوتار : « ليس فى استطاعتى يا دريك .. فاننى لم أغن منذ شهور ! »

ـ وماذا دهاك طوال هذه الشهور ؟

فرفعت جين يديها عن مفاتيح البيانو ، والتفتت اليه قائلة : **« آه يا صديقى ، لقد أشعت الارتباك فى كل حياتى ، ومع ذلك فاننى أوقن من اننى احسنت صنعا .. ولسوف أسلك نفس المسلك .. على الاقل .. عـلى الاقل ، آمل أن اسلك نفس المسلك ! »**

فجلس الطبيب برهة صامتا ، وهو ينظر اليها متـدبرا هـذه الجمل القصيرة ، السريعة .. وظل مترقبا ان تردفها بغيرها ، مدركا بأن صمته سيبعثها على الاسـترسال .. وصدق حدسه ، اذ لم تلبث ان قالت : « لقد رفضت شيئا ـ يا فتاى ـ كان أثمن لدى من حيـاتى كلها .. نظير خير لشخص آخر ، ولست أملك أن أتغلب على الذكرى .. اننى أوقن من اننى قد احسنت صنعا ، ومع ذلك فى استطاعتى أن

أنسى ! » . فمال الطبيب الى الامام وتناول يديها المضمومتين بين يديه ، وقال لها : « هلا صارحتني بالامر ، يا جانيت ؟ »

ـ كلا يا دريك .. لا أقوى على مصارحة أحد أيا كان .. حتى أنت !

ـ اذا ما جد ما يحملك على الافضاء بالامر لدى شخصي يا جين .. فعديني بأن تأتي الى !

واذ قالت جين : « بكل سرور » ، رد معقبا : « حسنا ! .. والآن يا بنيتي العزيزة ، هاك علاجا أصفه لك .. واعلمي أنني لا أقصد بذلك أن تذهبي الى باريس ثم تعودي ، او الى ان تقضي الصيف في سويسرا ، والخريف في الرفييرا ، وانما بل سافري الى أمريكا لتشاهدي بعض المعالم الكبرى : شاهدي مساقط (نياجرا) ، حتى اذا ضايقتك التوافه في حياتك ـ بعد ذلك ـ وجدت راحة في أن تعودي بذاكرتك الى تلك الكتلة الضخمة الخضراء من الماء المتدفق على المساقط ، والى هديرها الصاخب ، والى الرشاش المتصاعد منها ، والى اندفاعها الزاحف الذي لا ينقطع .. سيحلو لك ان تذكري كل ذلك ، وانت تعنين بسكب الماء في أقداح الشاي ومنهـا ، فتقولين لنفسك : « ان نياجرا لا تزال تتدفق ! » .. أقيمي في فندق بجوار المساقط ، لتسمعي خريرها الجبار يهدر ـ ليلا ونهارا ـ كأنه رمز للقوة وللتقدم . واقضي ساعات طويلة متجولة حولها ، واستجلي معالمها من كل جانب ، واذهبي الى (كهف الرياح) ـ عبر الجسور المهتزة ـ حيث يصيح بكم الدليل قائلا : « استوثقوا من خواتمكم وأقراطكن وثبتوها جيدا ! » ، واعرفي ـ أثناء مرورك بصخرة الدهور ـ المغزى الحقيقي لوجودها .. **استوعبي نياجرا في حياتك وروحك كما لو كانت ملكا لك ، واحمدي الله لوجودها ! .. ثم زوري المعالم الهامة الاخرى في أمريكا .. جربي المسائل الروحية والانسانية .. الحب والحياة ..** ابحثي عن السبب « يا لينجتون بوث »

العظيمة - التى يدعونها « الام الصغيرة » لجميع مسجونى أمريكا ! . انى أعرفها جيد المعرفة ، وافخر بذلك ، وبوسعى أن أعطيك خطاب توصية لها .. سليها ان تصحبك لزيارة سجن (سنج سنج) ، أو سجن (كولومبوس) ، وان تمكنك من الاستماع اليها وهى تخطب فى ألفين من المذنبين ، حاملة اليهم رسالة الامل والحب .. عقيدتها الملهمة التى توحى بامكانيات جديدة حتى لمن تقطعت بهم سبل الامل ! . ثم اذهبى الى مدينة (نيويورك) ، وانظرى الى ما يعملون حين يريد انسان اقامة مبنى كبير ، وهو لايملك سوى رقعة صغيرة من الارض ، فيستغل هذه الرقعة الصغيرة - الى أقصى حد - بأن يرتفع بالمبنى الى عنان السماء .. فتعلمى أن تحذى حذوهم . وبعد أن يوقظ فيك شعب أمريكا - صاحب النفوس الكبيرة والعقول الجبارة السريعة الابتكار - كامن الحماسة والحمية ، اذهبى الى اليابان لتشاهدى شعبا صغيرا ، يبذل قصارى جهده - فى عزيمة نبيلة - ليصبح عظيما . ثم اذهبى الى فلسطين ، واقضى أشهرا مقتفية آثار أعظم شخصية بشرية عاشت منذ الخليقة . **ثم عرجى على مصر فى طريق عودتك ، لتذكرى نفسك بأنه لا يزال - فى عصرنا الحديث - بعض أشياء أثرية عتيقة تستحق المشاهدة (١) . ومنها رجل خشبى محفوظ بعناية ، وله عينان من الصوان الشفاف تتوسط كل منهما بلورة صخرية . بمثابة انسان العين .. وقد بقيت هاتان العينان البراقتان ، تطلان على العالم من تحت جفونها البرونزيين منذ عهد النبى ابراهيم ..** لسوف تجدين ذلك فى متحف القاهرة . ثم امتطى حمارا لتزورى (الموسكى)، اذا كانت بك رغبة فى رياضة بدنية حقة .. أما اذا شعرت

---

(١) من الواضح ان القصة كتبت فى زمن كان الغرب يحرص فيه على أن تقتصر سمعة مصر على آثار الماضى ، وكأنما قدر عليها ان تعيش فى القدم، ولا يكون لها مستقبل ! فلقد نشرت القصة - للمرة الاولى - فى سنة ١٩٠٩

بشيء من الخمول ، فستلقى الهرم الاكبر .. سلى عن اعرابى يسمى « شحاته » ، وابلغيه رغبتك فى تسلق الهرم فى مدة تنقص دقيقة عن أسرع سيدة تسلقته قبلك ! .. وعودى — بعد ذلك — الى وطنك يا بنيتى العزيزة ، واتصلى بى تليفونيا لنتفق على موعد للمقابلة ، او غامرى ودعى « سنودارت » معاونى فى العيادة ، يدخلك — خلسة من المرضى — الى حجرة الكشف .. وارفعى لى تقريرا عما فعلته بك الوصيفة . وأصدقك القول اننى لم أعط أحدا خيرا منها من قبل . ولن تكون بك حاجة لان تدفعى لى اتعابا ، لاننى لا اتقاضى أتعابا من الاصدقاء الحميمين ! »

فضحكت جين وأمسكت بيده ، وهى تقول : « آه ياصديقى .. أعتقد أنك مصيب فيما تراه ، فلقد تركزت معلوماتى عن الحياة فى نفسى ، وفى أرباحى وخسائرى الشخصية . سأفعل كل ما أشرت على به ، وليباركك الله جزاء أن قلتها لى .. ها هى ذى فلاور قادمة » .. وأقبلت زوجة الطبيب فى ثوب خفيف ، أعد لمناسبة تناول الشاى ، فأضاءت المصابيح الكهربائية أثناء مرورها . وصاحت بها جين : « ألن يقدر لفتانا هذا أن يكبر يا فلاور ؟ .. انه ينصح جادا لامرأة ثقيلة الوزن ، متوسطة العمر ، بأن تتسلق الهرم الاكبر كعلاج للانقباض ، على أن تضرب الرقم القياسي فى سرعة التسلق ! » . فجلست زوجة الطبيب فوق ذراع مقعد زوجها وقالت : « ومن هى المرأة الثقيلة الوزن ، المنقبضة المزاج ، المتوسطة العمر ، يا حبيبى .. اذا كنت تقصد السيدة باركر بانجس فهى ليست فى أوسط العمر ، لانها امريكية .. وما من أمريكية تقربانها فى أوسط العمر .. **أما انقباضها فيرجع الى أن جارث دالمين لم يتقدم طالبا الزواج من ابنة أخيها الحسناء ، حتى بعد ان رسم صورتها !** ولا جدوى من نصحها بأن تتسلق الهرم الاكبر — مع أنها ستقضي هذا الشتاء فى مصر — اذ اننى

سمعتها بالامس تبدى استنكارا لذلك قائلة أنها لن تفكر فى الصعود الى قمة الهرم قبل أن يؤتى أبناء اسرائيل ـ او ايا يكون الشعب الذى يقيم فى تلك الاصقاع ـ ادراكا يجعلهم يقيمون مصعدا فى جوف الهرم ذاته ! »

فانفجرت جين والطبيب ضاحكين ، بينما سوت « فلاور » من اضطجاعها لتمكن ذراع زوجها من الالتفاف حولها ، ثم استأنفت حديثها قائلة : « جين ، لقد سمعت من لحظات نغمات البيانو وانت تعزفين قطعة « المسبحة » ، وهى أغنية أحبها كل الحب ، وقد مضت شهور لم أسمعها خلالها . فهل لك أن تغنيها يا عزيزتى ؟ » . فالتقت عينا جين بعينى الطبيب ، وابتسمت مطمئنة له ، ثم استدارت على مقعد البيانو ـ دون تردد ـ ملبية رغبة فلاور ، اذ كانت وصفة الطبيب قد بدأت تؤتى أثرها !

وعند نهاية اللحن ، وبينما كانت « جين » تغنى كلمات المقطع الاخير ، مالت « فلاور » على زوجها ، وطبعت قبلة خفيفة رقيقة عند فوده ، حيث بدأ المشيب يخط شعره الاسود الغزير بخيوط فضية . ولكن ذهن الطبيب كان متجها الى جين ، فتأكد ـ قبل أن تأتى على نهاية المعزوفة ـ من صحة تشخيصه لحالها . وقال لنفسه : « بل يجب أن تسافر الى الخارج ، حتى يتحول تفكيرها عن نفسها قطعيا ، ويتيح لها نظرة واسعة الى جميع الامور العامة ، ونظرة أكثر اتزانا للامور الخاصة .. أما ذلك الشاب فلن يتغير ، واذا تغير فسيثبت هذا ان رأى جين فيه كان صحيحا ، ويكون هذا مدعاة لراحة نفسها ! .. **ولكن اذا كان هذا حال جين ، فما حاله هو يا الهى ؟ ! .. لقد كنت فى عجب من تضاؤل حيوية شبابه الغض .. أن تقدير « جين » والاهتمام بها دراسة وعلم ، أما جعلها تهتم بشاب مثله ، فأمر لا أفهمه ! .. وفقدانها ـ بعد ذلك ـ أمر أرانى أشد عجزا عن فهمه ! .. لا بد أن له**

أعصـــابا من فولاذ أمكنه بها ان يواجه الحيـاة بعد ذلك .. فما هذا الصليب الذى يتعلمان كيف يقبلانه ، وهما ممسكان به فيما بينهما .. لعل شلالات نياجرا تقوى على غسل كل ذلك ، فتبرق اليه جين من هناك ! »

وتناول الطبيب ــ اذ ذاك ــ يد زوجته المحبوبة ــ وكانت ملقاة على كتفه ــ فلثمها لثما خفيفا ، فى حين ظلت جين مولية اياهما ظهرها .. لقد خبر الطبيب الصليب والتضحية فى الماضى ، فأصبحت حبات المسبحة اللؤلؤية عظيمة القيمة لديه !

* * *

• **وهكذا** اتبعت جين وصفة الطبيب ، وانقضت سنتان وهى ماضية فى العلاج .. وها هى ذى فوق قمة الهرم الاكبر ، وقد ضربت رقما قياسيا فى سرعة تسلقه . وأخذت تضحك وهى تستعرض فى فكرها التقرير الذى ستقدمه الى دريك عن كل هذه الواقعة ! .. وكان الاعراب مضطجعين حولها وقد دبت الحرارة فى أجسادهم ، وتفصد عرقهم ، ولكنهم كانوا مغتبطين ، اذ اطمأنوا الى « بقشيش » كبير ، فراحوا يتطلعون الى «جين» بأعين يلمع فيهـا السرور والاعتداد ، وكان العمـــل قد تم كله بمجهودهم فقط ، وغاب عن فطنتهم الدور الكبـير الذى قامت به قواها الرياضية البديعة التكوين ، وأطرافها المرنة ، مما ساعد على سرعة التسلق . وهكذا وقفت جين سليمة العزيمة والاطراف ، وقد تملكها ذلك الشعور الطروب الذى يكون دائما عونا للعقل ، والذى ينبعث أثر عمل بدنى خارق !

وتألقت فى أجلى مظهر بمعطفها الصوفى و « جونيلا » من التويد البنى اللون المزركش بنقط خضراء وبرتقالية ، بها كثير من الجيوب المحوطة باطارات أنبوبية من الجلد ، كما كانت لها أزرار جلدية وثنية عريضة من الجلد فى الذيل . وكان فى وسع أى خبير ان يذكر ــ لفوره ــ الشركة الوحيدة التى لا يمكن لغيرها ان ينتج هذا الزى ، واسم صانع القبعات الذى

صنع لها قبعتها ((التيردلية)) الخضراء ، التى كانت تلائمها تمام الملاءمة . ولكن ((شحاته)) لم يكن خبيرا فى الازياء ، وان كان ذا فطنة وتفهم لاساليب وقواعد اللياقة ، فأجمل رأيه فيها بقوله : ((**انها انثى - سيد مهذبة راقية ، تمنح ((البقشيش)) بوجه بشوش ، ولا تقعد فى منتصف الطريق ، وترفض الصعود الى قمة الهرم .. أنها حقاً سيدة مهذبة راقية ، تمنح ((البقشيش)) بوجه سمح ، ولا تكبد الدليل الاعرابى المسكين عناء الجرى - فى خدمتها - الى أسوان !))**

وكانت شمس الشرق قد لوحت بشرة ((جين)) بلون قمحى داكن جميل سرت هى به فلم تجد بنفسها حاجة الى نقاب أو مظلة .. وكانت عيناها القويتان تصمدان للقاء الصحراء الذهبية دون حاجة الى عوينات قاتمة ، لانها سمعت جارث يقول - مرة - بأنه يشعر بغثيان لمنظر ظهر امرأة ترتدى قناعا لقيادة السيارات ، وقد أقرت ((جين)) رأيه ضاحكة ، اذ ان الاقنعة تبدو لها دائما كشىء متكلف مصطنع . وكانت خصلات شعرها البنى الغزيرة لا تطير قط وتتناثر فى خصلات ، وانما تبقى دائما حيث تكون قد ثبتتها بدبابيس الشعر التى تحكم وضعها فى كل صباح .

ولم تبد ((جين)) - فى أى وقت - أحسن حالا مما بدت فى هذا اليوم من أيام شهر مارس ، وهى تقف على قمة الهرم الاكبر ، قوية ، سمراء ، بديعة التكوين ، ذات عقل سليم فى جسم سليم ، وقد طفت امارات الانبساط والابتهاج على افتقار وجهها الى الجمال .. وكانت ابتسامتها العريضة المرحة ، قد تكشفت عن أسنان بيضاء ناصعة .. كل هذه كانت شهودا على سلامة صحتها وتكوينها ، ظاهرا وباطنا !

وغمغم شحاته من جديد قائلا : ((انها أنثى وسيدة مهذبة ، راقية ، لطيفة)) .. ولو أن جين سمعت ما قاله لما استاءت ، مع أن انجليزيته المهشمة أبدت حديثه بصيغة المذكر .. ذلك

لانها وان كانت تعتقد أن المرأة المسترجلة أقل بشاعة من الرجل المخنث درجة ، الا انها كانت خليقة بأن تأخذ الاسم المركب الذي وصفها به شحاته على أنه تحية لها لما كانت عليه من رزانة واستقلال وتفكير واضح ، فهى اذا شرعت فى المضى الى مكان ما ، سعت الى بلوغه فى أقصر وقت ، دون تبرم ، او تململ ، أو هياج .. فان هذه الخلال النسوية الثلاث كانت دائما موضع ازدراء من جين ، التى كانت تعرف فى نفسها أنوثة عميقة ، يمكنها اعتدادها بها من أن تتخذ فى الامور التافهة اتجاها صريحا يتنافى مع طبيعة النساء !

وكانت وصفة الطبيب قد أثمرت بدرجة مدهشة ، فان مظهر التهالك والشيخوخة السابقة للاوان ، والانهيار الذهنى والبدنى التام .. هذا المظهر الذى أحزن الطبيب وأفزعه — يوم رآها تجلس الى البيانو — قد تلاشى تماما ، **فأصبحت تبدو كابنة الثلاثين عاما ، ذات النفس الراضية المنشرحة . وأصبحت على أهبة ان تسير على أسعد حال ، عاما بعد عام ، حتى تبلغ الاربعين .. بل أنها لم تعد تخشى بلوغ الخمسين ، اذا امتد بها العمر لهذه السن ..** كانت عيناها الصافيتان تطلان على الدنيا فى صراحة ، وعقلها السليم ينتج اراء سليمة ، وينطق بأحكام صحيحة ، تتجلى فيها رحمة قلب كبير كريم !

وراحت تتملى المنظر الذى امتد امامها باعجاب بالغ ، وقد فتنها ما كان فيه من تناقض : ففى ناحية منه ، كانت «الدلتا» الخصبة ، بما فيها من أحراش النخيل المتمايل ، واشجار البرتقال والزيتون التى تنمو فى سخاء على ضفتى النيل المنساب كشريط عريض من اللجين اللامع .. وفى الناحية الاخرى كانت الصحراء بأفقها المتناهى البعد ، وقد امتدت فى تموجات من الرمال الذهبية .. فلا شجرة ، ولا غصن ، ولا عود أخضر ، وانما انطلاق وحرية بلا حدود .. محيط من البهاء الذهبى الجامد ، اذ كانت الشمس تجنح للمغيب ، والسماء

مصطبغة بلون اللهب .

وقالت جين تحـــدث نفسها : ((**هذا هو مفترق الطرق ، ومكان الاختيار .. وما أصعب الاهتداء الى قرار فى الاختيار بين الحرية والاثمار .. وجدير بالمرء أن يستـــتشير أبا الهول فى ذلك .. حارس الاجيال الكهل الحكيم ، والامين الصـامت على أسرار الزمن ، المتطلع الى المستقبل كما اعتاد أن يتطلع دائما ، بينما يصـــبح المستقبل حاضرا ، وينزلق الحاضر الى الماضى !** .. هيا يا شـــحاتة ، فلنهبط ! .. آه ، أجـــل ، سأجلس يقينا على الحجر الذى جلس عليه الملك عندما جاء هنا وهو ولى للعهد .. أشكرك اذ ذكرتنى بذلك ، فســـيكون مادة طلية الحديث فى أول مرة أحظى فيها بشرف المثول بين يدى جلالته لبضع دقائق ، مما ينقذنى من التلعثم بعبـارات ممجوجة عن الطقس .. هيا وقدنى الى أبى الهول ياشحاتة ، فلى سؤال أريد ان اوجهه اليه ، فى اللحظة التى تنزلق فيهـا الشمس وراء الافق ! »

الفصل الثالث عشر



• **القمر** ينشر ضياءه عـلى الصحراء ! .. وطلبت جـين ــ بعد ان تناولت عشـــاءها ــ ان تقدم لها القهوة فى شرفة

الفندق ، حتى لا تفقد الا أقل ما يمكن من جمال هذا الليل الغامض .. ولاحت الاهرام ــ تحت الضوء الناصع الصافى ــ أكبر حجما وأشد رسوخا مما هى ، كما جمع ابو الهول حول نفسه مزيدا من الغموض ! .. ومنت جين نفسها بجولة على القدمين ، على ضوء القمر . واضطجعت ــ ريثما يحين الوقت للجولة ــ فى مقعد من القش منخفض مزود بوسائد وثيرة ، وراحت ترشف قهوتها ، وقد أسلمت نفسها الى تلك الهناءة الحالمة ، التى تعقب الجهد الشاق ، لدى أصحاب الاجسام السليمة القوية . وغشيت ذُهنها ــ فى هذه الليلة ــ افكار رقيقة هادئة ، دارت حول « جارث » ، ولعل نور القمر هو الذى أوحى بها . فراحت جين تردد :

« والقمر يضىء باهرا .. فى ليلة كهذه

« والهواء العليل يلثم الاشجار بلطف .. فلا تثير الاشجار ضجة ! »

آه ! لقد كان الشاعر الكبير على بينة بما للعوامل التى تمس الحواس فتثير الذكريات ، من أثر على القلب. ولقد استسلمت جين للذكريات التى بعثها ضوء القمر ، فخيل اليها ــ فى بادىء الامر ــ ان صوت « جارث » ينبعث حولها من كل مكان ، مرددا :

« اللهم امح بنورك الدائم الازلى اعتام بصائرنا العمياء ! »

ثم خيل اليها أن عينى « جارث » الحبيبتين الوالتهين ، ترقبانها من أعماق السناء الفضى الذى امتزج بزرقة السماء العميقة . فأسرعت جين تغمض عينيها لتستمتع بالعينين الاخريين وتستوعبان نظراتهما .. وتجلى لها ــ حينذاك ــ مقدار التغيير البين الذى طرأ عليها ، فهى لم تشعر الليلة بما يدفعها الى صد نظراته وتحويل عينيها عن عينيه اللتين تفيضان حبا .. ولم يكن يعتورهما أى ظل من اللوم او العتاب ، أواه ، أتراها قد أساءت اليه حين سمحت للمخاوف ان تساورها

بصدد المستقبل ! .. انها لتحس الليلة - فى أعماق قلبها - بثقة كاملة فيه وفى نفسها .. وخيل اليها انه لو كان معها الليلة ، لخرجا معا ليسبحا فى بحر هذا القمر الزاهى ، ولجلست على احدى الاحجار الاثرية المتناثرة ، وتركته يجثو أمامها ويحملق فيها .. يحملق بنظراته الملحاحة ، كما يشاء وكما يحلو له .. لم تشعر الليلة فى نفسها بأى صد أو نفور من عينيه الحبيبتين اللتين تمثلتهما فى الخيال ، بل أنها استعذبت أن تناجيه قائلة : **« كل شىء لك يا جارث ، فانظر كما تشاء وتشتهى .. اذا كنت اتمنى لو كان وجهى جميلا ، فلأجلك فقط . ولكن ، لماذا أخفيه اذا كنت تراه وفق هواك يا حبيبى ؟ ! »**

ما الذى أحدث كل هذا التغير فى تفكيرها ؟ .. فهل فعلت وصفة الدكتور دريك مفعولها كاملا ؟ وهل رأيى الحالى أسلم وأصوب من ذلك الرأى الذى وجدت نفسها مضطرة اليه ، والذى دفعها - خلال آلام الحرمان - الى اتخاذ القرار الذى فرق بينها وبين « جارث » ؟ .. وهل يجدر بها أن تستقل الباخرة التى كان مقررا أن تبارح الاسكندرية فى اليوم التالى - بدلا من ان تستكمل رحلتها الى أعالى النيل ، ثم الى استانبول وأثينا - لتصل الى لندن بعد أسبوع ، ثم تستدعى جارث وتفضى اليه بكل سريرتها ، وتطرح بين يديه مستقبلهما ؟

أما انه ظل مقيما على حبها ، فأمر لم يخامرها فيه أقل ريب . بل لقد لاح لها - بمجرد التفكير فى استدعائه والافضاء اليه بالحقيقة - أنه قريب منها ، وانها تشعر بذراعيه يضمانها ، ورأسه مسندا فوق قلبها .. وعيناه ، العينان المحبوبتان البراقتان .. اواه يا جارث ، يا جارث ! .. وهنا قالت حين لنفسها : **« هناك أمر واحد يبدو لى - الليلة - واضحا جليا ، ذلك هو اننى لن استطيع أن أعيش بعيدة عنه بعد الآن ، اذا كان لا يزال فى حاجة الى .. اذا كان لا يزال راغبا فى ..**

فيجب أن أذهب اليه ! » .. وفتحت عينيها ، ونظرت الى ابى الهول .. واذا سلسلة الحجج والآراء التى جالت بخاطرها فى (شنستون) ، تومض فى ذهنها ، ومضة سريعة لم تستغرق سوى عشرين ثانية . ثم أغمضت عينيها من جديد ، وعقدت يديها فوق صدرها ، وقالت : « لسوف أجازف ! » . واذ ذاك ، استيقظ فى قلبها فرح عميق !

★ ★ ★

• **وفيما** كانت جالسة ، أقبل على الشرفة — من قاعة الطعام — جماعة من الانجليز كانوا قد وصلوا فى تلك الليلة ، وتناولوا عشاءهم متأخرين فلم يتسنى لجين أن تراهم .. كانوا سيدة حسناء ، وابنتها ، وشابين ، ورجلا كبير السن ، ذا مظهر عسكرى . وما كانت جين لتحفل بهم ، لولا انهم قطعوا عليها تأملاتها ، اذ جلسوا الى مائدة قريبة منها ، واستأنفوا حديثهم بصوت مرتفع — كما هى طبيعة الانجليز — وكأنما لم يكن فى المكان سواهم .. ونهض أجنبى أو اثنان — كانا يفكران فى هدوء وهما يرتشفان القهوة ويدخنان — فانتقلا الى مقعدين فى بقعة ساكنة ، تحت أشجار النخيل .. وأرادت « جين » أن تحذو حذوها ، لولا انها شعرت براحة فى مقعدها ، وخشيت أن تفقد لذة شعورها بقرب « جارث منها » ، فبقيت فى مكانها ..

وكان الرجل المسن يمسك فى يده خطابا ونسخة من صحيفة « المورننج بوست » تلقاهما لتوه من انجلترا ، وكانت الجماعة تتبادل الحديث حول نبأ تضمنه الخطاب ، وفقرة كان الرجل يقرأها فى الصحيفة بصوت عال . وقالت السيدة الحسناء : « يا للشاب المسكين ! يا له من حادث جد محزن ! » . فصاحت الفتاة : « **أعتقد أن كان من الافضل له — فى رأيى — أن يموت فور ساعته .. أجل هذا ما كنت اتمناه !** » .. فهتف احد الشابين وهو يميل نحوها : « كلا ، فان الحياة حلوة .. مهما

تكن الظروف » .. وصاحت الفتاة ، وهى ترتعد : « أجل ، ولكن .. أعمى ؟ ! .. أعمى طوال حياته .. يا للفظاعة ! » .
فتساءلت السيدة : « هل كانت بندقيته ؟ .. وكيف تقام حفلات صيد فى شهر مارس ؟ »

وحملقت جين فى القمر ، وهى تبتسم فى غيظ ، فان حبها المشغوف لحياة الحيوان ــ واعتزازها البالغ لكل حياة ، ولو كانت لاتفه حشرة ــ كان عقيدة تتشبث بها بقدر ما كان « جارث » يتشبث بعبادة الجمال . لذلك لم تكن تأسى لوقوع مثل هذه الحوادث فى حفلات الصيد ، فاذا ما قدر للساعين بالاذى أن يصابوا هم بأذى » واذا ما قدر للتواقين الى ازهاق أرواح حية نابضة أن يلقوا الموت فان ذلك كان يبدو لجين جزاء وفاقا ، ومن ثم فانها لم تكن تأسف ، أو تتظاهر بالاسف .. وهكذا ابتسمت فى غيظ جين سمعت النبأ ، وقالت لنفسها : « لقد نقصت عينان من العيون التى تتبين مرمى الطلقات نحو أهدافها من صغار الارانب المرتاعة ، التى تندفع نحو جحورها لتلوذ بامهاتها الخائفة .. ونقصت يد لن ترتفع ثانية لتحول طائرا حرا محلقا الى كومة من الريش تختلج بآلام الاحتضار .. انها فرصة جديدة لخير الوعل النبيل ، وهو يهرع مستبسلا ليلحق برفاقه فى الوادى ! »

وفى هذه الاثناء ، كان الرجل العسكرى المظهر قد وضع منظاره على عينيه ، ونشر الخطاب المكتوب بحروف صغيرة تحت أضواء النور ، ثم قال بعد برهة : « كلا .. فان حفلات الصيد قد انتهت ، وليس هناك من يصطاد فى البرك الآن .. ولكن بعض الفتية كانوا يصطادون الارانب المتبقية فى أعقاب الموسم » . فاستفسرت الفتاة : « وهل كان يطلق بندقيته معهم ؟ » . وأجابها الرجل : « كلا .. وهذا ماضاعف سوء الحظ ، اذ أن المسكين كان قد امتنع عن الصيد منذ سنة أو سنتين . بل أنه لم يكن يهواه ــ فى الواقع ــ لما طبع عليه

من حب شديد لجمال الحياة ومن كراهية للموت بكل أنواعه .. ولكنه كان فى دار بديعة - يمتلكها فى الشمال - حيث انصرف الى الرسم . وتصادف ان رأى - أثناء سيره - بعض الفتية يصطادون الارانب ، ولمح أرنبا جريحا يعانى ما اعتبره قسوة ، فانحنى فوق باب كبير ، وتدلى لينتشل الحيـوان المسكين وينقذه من العذاب . وعند ذلك وقع الحادث . **فالظاهر أن الفزع استولى على أحد الفتية لرؤياه ، فأطلق بندقيته وأصابت الطلقة شجرة على بعد ياردات منه ، ثم انحرفت ، فلم تصب منه مقتلا ، وانما تناثر الرش فى وجهه ، ولم يمس المخ بسوء .. على أن رشتين اخترقتا شبكتى العينين ، وضاع البصر ، دون ما أمل فى عودته ! »**

وهتف الشاب : « يا له من حظ سيء بشع ! » . فقـال الشاب الآخر ، الذى لم يكن قد تكلم من قبل : « لست أدرى كيف لا يولع انسان بالصيد ! » . فرد الرجـل المسن قائلا : « لو أنك عرفته لمـا قلت ذلك .. لقد كان شابا مرحا مفعما بالحياة والفتوة ، حتى ان المرء لا يستطيع أن يتصوره ميتا ، أو على أى اتصال بالموت ! .. ثم أن حبه للجمال كان أشـبه بدين وعبادة . ليس فى مقدورى أن أشرح ذلك ، ولكنه اوتى موهبة تمكنه من ان يجعلك ترى الجمال فى أشياء لم تكن تحفل بها من قبل .. اما الآن ، فان المسكين لم يعد يرى شيئا ! »

وسألته السيدة : « هل له أم ؟ » . فأجاب : « كلا ، ما من أحد له مطلقا ، فهو وحيد تمـاما .. ولـكن له عشرات من الاصدقاء ، فقد كان من أحب الرجال فى لندن وكان بوسـعه أن ينزل فى أية دار فى المملكة بأسرها ، اذا أرسل بطاقة ليعلن مقدمه . ولكنه لو لم يؤت أى أقارب ، وأعتقد انه لم يفـكر البتة فى الزواج . **يا للشاب المسكين ! لكم يتمنى الآن لو أنه لم يكن متعنتا ، فلقد كانت الصفوة المختارة من أجمل الفتيات رهن اشارته فى معظم المواسم ، ولكنه كان يكتفى بالصـداقة**

الجميلة ، ويقنع بالزواج من فنه فقط . وها هو ذا - كما ذكرت الليدى انجلبى فى خطابها - يرقد فى الظلام ، وحيداً ، لا حول له ولا قوة ! »

وهنا صاحت الفتاة : « أواه ! لنتحدث فى شىء آخر ! » . ثم دفعت مقعدها الى الوراء ونهضت قائلة : « أريد نسيان هذه الفاجعة ، فهى مروعة .. تصوروا كيف يستيقظ المرء فلا يعرف أفى نهار هو أم فى ليل ، أو أن يضطر الى ان يستلقى فى ظلمة دائمة ، ويفكر .. أواه ، هيا بنا ولنتحدث فى أمور مبهجة ! » . ونهضوا جميعا ، فتأبط أكبر الشابين ذراع الفتاة ، وقد سره أن أتاح له انفعالها هذه الفرصة . وقال لها بصوت خفيض : « انسى الامر يا عزيزتى ، وتعالى نشهد أبا الهول تحت ضوء القمر ! » وغادرا الشرفة ، فتبعهما الباقون ولكن الرجل المسن - صاحب الصحيفة - تريث ليلقى صحيفته على المائدة ويشعل سيجارا . واذ ذاك نهضت « جين » عن مقعدها ، وسارت اليه قائلة فى اقتضاب : « أتسمح بأن ألقى نظرة على صحيفتك ؟ » . فأجابها الرجل فى أدب جم : « بكل تأكيد ! » . ثم حملق فيها عن كثب وقال : « آه ، طبعا يا آنسة شامبيون .. كيف حالك ؟ ما كنت أعلم أنك هنا فى هذه البقاع ! »

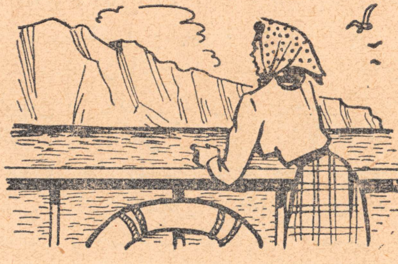
- آه ، جنرال لورين ؟ ! .. لقد خيل الى - لاول وهلة - أن وجهك مألوف لدى ، ومع ذلك فاننى لم أعرفك ! شكرا .. سأستعير صحيفتك قليلا اذا سمحت ، ولا تدعنى أعوقك عن اللحاق ، بأصدقائك ، فسوف نتقابل هنا ، بين وقت وآخر

وانتظرت جين حتى غابوا جميعا عنها ، وتلاشت ضحكاتهم وصوتهم ثم عادت الى مقعدها .. المقعد الذى كانت تشعر فيه بقربها من « جارث » ، وألقت نظرة أخيرة على أبى الهول وعلى الهرم الاكبر وهما مغرقان فى ضوء القمر ، ثم أمسكت بالصحيفة وبدأت تلاوتها ..

« امح بنورك الدائم الازلى أعتام بصائرنا آعمياء » !

نعم .. كان جارث دالبن ـ حبيبها جارث . صاحب العينين البراقتين الوالهتين ـ هو الذى يرقد فى داره فى الشمال ، أعمى ، وحيدا ، لا حول له ولا قوة !

الفصل الرابع عشر



• **بانت** قمم (دوفر) البيضاء تدريجيا ، وأخذت تتجسم للعين راسخة واضحة ، حتى برزت أخيرا صاعدة من البحر كجدار أبيض قوى ... وقالت جين لنفسها ، وهى تذرع سطح الباخرة : « البياض ، والقوة ! » . وهفا قلبها الى مسقط رأسها بعد غياب امتد سنتين . ثم اجتذبت بصرها قلعة (دوفر) ، وقد بدت جميلة فى النور اللؤلؤى الذى اتسم به هذا الاصيل من أصائل الربيع .. وطفر قلبها غبطة ، ثم ارتد متهالكا اذ طعنته الذاكرة بسرعة ، فأغمضت الفتاة عينيها !

كانت كل المشاهد الجميلة التى تطعن قلبها بهذه القسوة ، منذ أن قرأت تلك الفقرة بالصحيفة الانجليزية ، وهى جالسة فى شرفة فندق (مينا هاوس) . ولم يمض ساعات على تلاوتها

الخبر ، حتى كانت منطلقة فى ذلك الطريق الطويل المفضى الى (القاهرة) ، بسرعة فائقة .. وفى اليوم التالى ، صـــعدت الى الباخرة بالاســـكندرية ، ثم بارحتها فى (برنديزى) ، فاستقلت القطار ، وقضت تلك الليلة والنهار التالى فى سفر مستمر ، حتى قدر لها – أخيرا – أن تشهد شاطىء انجلترا .. وان هى الا دقائـــق حتى تطأ قدماها أرض الوطن ولا يبقى أمامها غير مرحلتين لتبلغ مقصدها . **ذلك لان جين لم تتردد – منذ الدقيقة الاولى التى سارعت فيها بالســـفر – فى تعرف وجهتها ومقصدها .. لسوف تســــارع – فور وصولها – الى الحجرة التى كان الالم والظلام والقنوط تثيران فيها – ولابد – حربا شعواء ضد الروح المعنوية وسلامة العقل والتشبث الغريزى بالحياة .. فى الرجل الذى كانت تحبه ! ..** كانت جين تعلم أنها ذاهبة اليه ، غير أنها أحست بعجز مطلق عن تدبير الاسلوب والطريقة اللذين يمكنانها من ذلك . فقد أنبأها ادراكها السليم بأنها ازاء معضلة معقدة ، بالرغم من أن ذراعيها الملهوفتين ، وصدرها النابض بالالم ، كانت تصرخ قائلة : « يا الهى ، أليس الامر بسيطا ؟ .. انه أعمى ووحيد ! .. أواه ، يا جارث ! »

بيد أنها عرفت أين تجد رأيا منزها عن الشوائب ، وأجدر من رأيها بأن تركن اليه .. وأيقنت أن أضمن طريق لها ، انما يبدأ فى حجرة الاستشارة بعيادة الدكتور « دريك براند » . ولذلك أبرقت اليه من باريس .. وها هى ذى لا تنشد سوى شارع (ويمبول) .

وعند بلوغها (دوفر) ، ابتاعت احدى الصحف وبادرت الى تقليب صفحاتها فى عجلة ، وهى تسير على رصيف الميناء خلف الحمال القوى الذى تسلم أمتعتها . وفى عامود الاخبار الشخصية ، عثرت على الفقرة التى كانت تنشدها ، فقرأت :

« يؤسفنا أن نذكر أن السيد جارث دالمين لا يزال طريح فراشه ، فى حالة أشد ما تكون بعدا عن الاستقرار ، بداره فى (ديسايد) — بمقاطعة (ابردينشاير) — عقب الحادث الذى وقع له من أسبوعين .. ولقد ضاع بصره تماما ولا أمل فى شفائه ، ولكن مواطن الاصابات الاخرى فى تحسن يبعث على الطمأنينة . ويبدو ان كل ما كان يخشى من مضاعفات فى المخ قد زال. **على أنه تعرض — خلال الايام القلائل الاخيرة — لرد فعل خطير من جراء الصدمة ، دعا الى ضرورة استدعاء السير« دريك براند » — إخصائى الاعصاب الذائع الصيت — ليتبادل الرأى والمشورة — مع اخصائى العيون والطبيب المحلى الموكل بالعلاج** . وقد عم الاسى والحسرة كل الاوساط الفنية والاجتماعية التى كان السيد دالمين معروفا فيها ، ويستمتع — عن جدارة — بمكانة عالية لدى أهلها

* * *

• **شكرا** لك ياسيدتى ! » .. نطق الحمال الكفء بهذه العبارة، عندما تحقق — بنظرة سريعة الى ما فى يده — من أن جنيه منحته شلنين ونصف ، بدلا من بنس واحد .. اذ كان قد ترك فى منزله زوجة شابة مريضة ، أشار عليها المعالجون بنظام خاص للتغذية . وكان — عندما تدافع الحمالون الى السفينة — قد وجه دعاء بسيطا الى الاب الذى فى السماء : « الذى يعرف جيدا ما أنت فى حاجة اليه » ، سائلا اياه أن يلفت اليه نظر مسافر سخى .. ومن ثم أحس بأن السماء هى التى قادته فعلا الى هذه السيدة ذات الوجه الاسمر الخالى من الجمال ، والكتفين العريضتين . مما زاده يقينا من ذلك ، أنه عندما استجاب لاشارتها عن بعد ، كان قد أوشك أن يرتبط بدعوة سيدة صغيرة، ثرثارة، ذات متاع يفوق فى العدد متاع السيدة الاخرى : من حقائب ، وأبسطة ، وقفص به ببغاء ،

وغير ذلك .. وقد رأى تلك السيدة تمن على زميلة – فيما بعد – بقطع نحاسية من عملة فرنسية ، وسمع زميله يدمدم قائلا : « ما أظن أن سبعة بنسات – بهذه العملة – أجر كبير عن حمل هذا المتاع ! » . ومن ثم أحس حمال أمتعة جين بسرور مزدوج : سرور بالايمان الذى تدعم ، وسرور بالدعاء الذى استجيب بسخاء !

وفى تلك الاثناء ، أقبل على الرصيف الذى استقر عنده القطار ، غلام راح ينادى : « النبيلة جين شامبيون » .. وأخذ يردد النداء عدة مرات ، حتى سمعته جين فمدت ذراعها من النافذة وهى تقول : « هنا يا بنى .. انها لى » . وفضت البرقية ، فاذا بها من الطبيب : **« مرحبا بك فى الوطن . عدت الآن من سكتلندا . سأنتظرك بمحطة « شيرنج كروس » ، واهبك كل الوقت الذى تطلبين – تناولى قهوتك فى دوفر – دريك »**

وبكت جين بغير دموع ، شكرا لله وارتياحا ، فقد كانت من قبل فى وحدة قاسية .. ثم أطلت من نافذة القطار ، ونادت طالبة قدحا من القهوة .. وكانت القهوة آخر ما تشتهى ، ولكنها ما كانت لتفكر فى أن تعصى نصيحة الطبيب ، ولو كان بعيدا عنها ! .. وكان الحمال لا يزال عند باب مقصورتها ، فلم يكد يسمع نداءها حتى اندفع الى مقصف المحطة وفى اللحظة التى بدأ القطار يتحرك فيها ، أسلمها – خلال النافذة – قدحا من القهوة الساخنة وطبقا به خبز وزبد . فقالت له : « شـــكرا أيها الرجل الطيب ! » .. ثم وضعت قدح القهوة والطبق على المقعد ، ودست يدها فى جيبها فأخرجت قطعة نقدية كبيرة ، وهى تقول : « هاك ، فأنت قد بالغت فى العناية بى .. كلا ، احتفظ بالباقى ، فان احضار القهوة فى لحظة قصيرة يستحق أجرا مضاعفا .. استودعك الله ! »

وتحرك القطار وعينا الحمال تحملقان فيها ، وقد اغرورقتا

بالدموع .. لقد قال لنفسه عندما تلقى عطاءها الأول : « حسنا ، هذا لمشترى اللبن والبيض الطازج ! » . فلما تلقى العطاء الثانى ، أضاف حساب الشيئين الباقيين من النظام الغذائى الذى أوصى به الطبيب لزوجته ، فقال : « وهذا للحساء والجيلاتين ! » .. وانشرح صدره فهال قائلا : « ان أباك الذى فى السماء ، يعرف ما أنت فى حاجة اليه ! »

* * *

• **أما** جين ، فقد جلست فى ركن مريح من المقصورة ، وكبحت دموع الشكر والابتهاج التى كادت تسيل من عينيها . ثم شربت قدح القهوة فشعرت بانتعاش فاق ما كانت تتوقع .. كانت هى الاخرى – كزوجة الحمال – بحاجة الى أشياء كثيرة .. لم تكن بحاجة الى نقود ، اذ كان لديها منها الكثير ، ولكن ما كانت تمس بها الحاجة اليه قبل سواه – فى هذه الآونة – هو صديق عاقل ، وقادر ، وجواد بعونه . وهاهو ذا « دريك » قد خف الى مساعدتها .. وهنا أعادت تلاوة البرقية ، وابتسمت وهى تلمح أن طابعه قد تجلى فى برقيته ، اذ أنه عنى بتوصيتها بتناول القهوة .. وكم كان كريما منه أن يعتزم استقبالها بنفسه فى المحطة ! .. وخلعت قبعتها ، واضطجعت على الوسائد . **كانت قد قضت يوما وليلة فى عجلة عاصفة محمومة ، وها هى ذى قد جعلت نفسها – أخيرا – فى متناول يد « دريك » وتحت اشرافه المأمون ، فهدأ اضطراب نفسها ، وغشيتها سكينة هادئة ، فاستسلمت الى نوم عميق**

أجل « ان أباك الذى فى السماء ، يعرف ما أنت فى حاجة اليه ! »

• • • • • • • • • •

اغتسلت جين واصلحت من هندامها وزينتها ، وهى تشعر

بانتعاش كامل ، ثم أطلت من نافذة مقصورتها ، بينما كان القطار ينساب الى محطة (شيرنج كروس) .. وكان الدكتور دريك واقفا على الرصيف ، أمام البقعة التى استقرت عندها مقصورتها تماما ، عند وقوف القطار .. وكان ذلك مجرد مصادفة ، ومع ذلك فانه بدا - لعينى جين - شيئا يتسق وسجايا الطبيب ، فكأنما كان من الدقة بحيث حدد موقفه من الرصيف الطويل ، حيث كان ينبغى تماما ! .. ولقد قالت عنه يوما - احدى المريضات المتحمسات له ، مهتمة بابراز المعنى الذى كانت تقصده ، دون احتفال بقواعد اللغة : « انه دائما ، كما تعلمين .. هناك تماما ! » . كانت تعنى أنه يوجد فى المكان والزمان اللذين تمس الحاجة اليه فيهما . وقد ساعدت هذه الخصلة - التى امتاز بها - على جعله عونا كبيرا للكثيرين فى الضائقات !

كان واقفا بين الحمالين ، فسرعان ما كانت يده على مقبض باب « جين » .. وكانت هى مطلة من نافذتها ، تتأمل وجهه النحيل الصامت ، الذى أشرق ترحيبا بها . وقرأت فى عينى صديق صباها شعورا دافقا من العطف والادراك الكامل .

ثم رأت خلفه خادم عمتها الخاص ، ووصيفتها التى كانت قد الحقتها مؤقتا بخدمة الدوقة .. ولم تمض لحظة ، حتى كانت جين على الرصيف ، ويدها فى يد الدكتور دريك ، وهو يقول لها : « هذا بديع يا عزيزتى .. ان صحتك جيدة جدا كما يتراءى لى . والآن هات مفاتيح حقائبك ، وما أظنك قد أحضرت أشياء ممنوعة . ولقد اتصلت بالدوقة لترسل بعض أتباعها ليتولوا أمر أمتعتك ، ولكى لا تتوقع وصولك قبل موعد العشاء ، لانك ستتناولين الشاى معنا .. أتوافقين على ذلك ؟ .. تفضلى من هنا ! اجتازى هذا الحاجز ! يا للفوضى ! كل شخص يريد مخالفة القوانين والنظم ، وكل واحد يريد أن يكون فى المقدمة متخطيا الآخرين ! .. الواقع أن صبر

رجال السكك الحديدية وطباعهم جديرة بأن تكون قدوة للبشر ! »

كان الدكتور يتكلم طيلة الوقت ، وهو يقود جين بين زحام الجماهير ، ثم فتح باب مركبة كهربائية أنيقة ، وساعدها فى الصعود ، ثم اتخذ مجلسا بجانبها . وسارت بهم المركبة مسرعة الى شارع (ستراند) ، ثم عرجت الى ميدان (ترافلجار) .

وقال الدكتور دريك : « والآن ، ألم تكن نياجرا شيئا رائعا ؟ .. اننى حين أسمع بعض الناس يقولون : « ألم تشعر بخيبة أمل فى نياجرا ؟ .. لقد شعرنا نحن بذلك » ، أميل الى أن أتمنى — للحظة قاتلة — أن تنشق الارض فتبتلعهم .. ان الناس الذين يشعرون بخيبة أمل فى (نياجرا) ويتحدثون عن ذلك ، لا يحق لهم أن يدبوا على وجه البسيطة .. وما رأيك فى « الام الصغيرة » ؟ . أليست جديرة بأن يعرفها المرء ؟ أرجو أن تكون قد بعثت لى بتحية معك .. وميناء نيويورك ؟ هل رأيت شيئا فى يماثلها حين تكون الباخرة مقبلة عليها عند غروب الشمس ؟ »

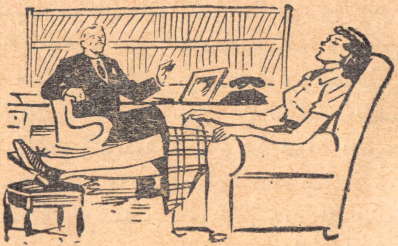
وأرسلت «جين » فجأة زفرة باكية ، ثم التفتت اليه وقد جف دمعها ، وقالت : « أما هناك من أمل يا دريك ؟ » .. فوضع الدكتور يده فوق يدها ، وأجاب : « **لسوف يعيش كل حياته أعمى يا عزيزتى .. غير أن فى الحياة أشياء كثيرة غير البصر ، فلا يحق لنا والامر كذلك أن نقول : لا أمل ! »**

وعادت تسأله : « وهل سيعيش ؟ » . فهتف : « ليس من سبب يمنعه من أن يعيش ، ولكن الى متى ستكون لحياته قيمة لديه .. هذا يتوقف على ما يمكن عمله لذلك المسكين . فى بضعة الاشهر المقبلة ، اذ أنه تحطم نفسيا أكثر منه جسمانيا

فخلعت جين قفازها وابتلعت لعابها فجأة ثم شدت على

ركبة الدكتور قائلة : « **دريك ، اننى ..أحبه !** » .. فصمت الدكتور برهة ـ وكأنه يقلب هذا الاعتراف الخطير على كل وجوهه ـ ثم رفع اليد القوية اللطيفة التى كانت فوق ركبته ، وقبلها فى احترام جميل .. وهى حركة نمت عن اجلال الرجل لما أبدته المرأة من صدق جرىء . ثم قال لها : « ان المستقبل يدخر كثيرا من الخير لجارث دالمين ـ فى هذه الحالة ـ حتى أننى أظن أنه سيستطيع الاستعاضة عن فقد بصره .. وحتى يحين ذلك الوقت ، فأنا أعلم أن لديك الكثير مما ترغبين الافضاء به الى ، كما أنه من حقك ولا ريب أن تسمعى منى كل تفصيلات حالته وما يمكننى شرحه لك .. وها قد بلغنا شارع (ويمبول) فتعالى معى الى حجرة الاستشارة .. ولقد أصدرت الاوامر لستووارت بعدم ازعاجنا مهما تكن الاسباب ! » .

الفصل الخامس عشر



• **كانت** حجرة الدكتور هادئة جدا .. واضطجعت جين فى المقعد الكبير المكسو بالجلد الاخضر ، وأسندت قدميها على مسند الاقدام ، بينما تشبثت قبضتاها بذراعى المقعد .. وجلس الدكتور الى مكتبه فى مقعده المتحرك المستدير الذى يستعمله دائما .. وهو مقعد كان يمكنه من أن يستدير فجأة

فيواجه المريض ، بسرعة أو يستدير فى هدوء لينحنى على مكتبه . ولكنه لم يكن ينظر الى جين ــ اذ ذاك ــ بل كان يدلى اليها بوصف مفصل لزيارته لقصر (جلينيشش) الذى لم يبرجه الا فى الليلة الماضية .. لقد قضى خمس ساعات مع جارث .. ولاح للطبيب أن من الارحم أن يسرد لجين كل شيء ، وعيناه محدقتان أمامه ، لانه كان واثقا من أن دموعها ستسيل ــ ولا بد ــ على وجنتيها ، فرغب فى أن تظن أنه لم يفطن اليها !

ومضى فى كلامه قائلا : « أنك تعلمين يا عزيزتى ان الجروح الاصلية تسير سيرا حسنا . والغريب حقا أنه بالرغم من أن شبكة كل من العينين قد خرقت ، وذهب الابصار الى غير عودة ، فان الاجزاء المحيطة بالعينين لم تصب بأضرار تذكر ، كما أن المخ سليم ، لم يلحقه أى أذى . أما الخطر ــ فى الوقت الراهن ــ فينبعث عن صدمة الجهاز العصبى ، وعن الالم النفسى الهائل الناشيء عن تبين فقد الابصار ! .. ولقد كانت الآلام الجسدية فظيعة ــ بلا ريب ــ فى الليالى والايام الاولى . يا للمسكين ، انه يلوح وكأن الحادث هدمه ، ولكن بنيته رائعة ، وقد كانت حياته نظيفة ، وصحية ، ومعتدلة ، فكانت لديه كل فرصة لابلال طيب ، لولا أن عذابه النفسى كان فظيعا حين خفت آلامه الجسدية ، وبدأ عماه يصبح حقيقة يزداد شعورا بها يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . فقد كان للابصار عنده قيمة لا توصف .. كان وسيلة لتبين جمال التكوين ، وجمال الالوان .. كانت طبيعة الفنان فيه تسود كل كيانه . وقد قيل لى أنه ــ بعد المصاب ــ لم يتكلم الا لماما ، فهو رجل شجاع وقوى .. ولكن درجة حرارته أخذت تتذبذب بشكل مخيف ، وظهرت عليه أعراض اضطراب عقلى ، لا داعى لان أشرح تفصيلاتها الفنية لك . وبدا أنه أكثر احتياجا الى اخصائى الاعصاب منه الى طبيب العيون ..

ومن ثم فهو الآن تحت عنايتى ! »

وصمت الدكتور ، وأخذ يسوى بعض كتب كانت ملقاة فوق مكتبه ، ثم قرب اليه اناء صغيرا به بعض زهور البنفسج ، وراح ينعم النظر فيها لبضع لحظات ، ثم أعادها الى حيث كانت .. زوجته قد وضعتها ، واستأنف حديثه قائلا : « وبوجه عام فأنا راض الآن عن الحالة . لقد كان فى حاجة الى صوت صديق يخترق حجب الظلام .. كان بحاجة الى يد تشد على يده فى ادراك مخلص .. لم يكن راغبا فى أى اشفاق ، فكان الذين يتحدثون عن خسارته الفادحة دون فهم لحاله أو مقدرته على ادراك استفحالها ، يوشكون أن يدفعوا به الى الجنون ! كان فى حاجة الى صديق يقول له : « **انها معركة .. معركة شديدة ، مستيئسة .. ولكنك بعون الله ستكسبها وتنتصر .. قد يكون الموت أسهل ، ولكن الموت معناه الخسارة والفشل ، فيجب أن تعيش لتنتصر .. أنه أمر يفوق كل طاقة بشرية ، ولكن ـ بمعونة الله ـ ستخرج منتصرا !** » .. كل هذه الكلمات ، وكثير غيرها ، قلتها له يا جانيت . وقد حدث بعد ذلك شىء غاية فى الغرابة والجمال . وبوسعى أن أخبرك به ، وأن أخبر به « فلاور » طبعا ، ولكنى لن أعيد ذكره لأى مخلوق غيركما .. لقد كانت المعضلة أن نحصل منه على أى تجاوب أو رد ، ولكنه لم يبد قادرا على أن ينبه حواسه الى درجة تمكنه من ملاحظة ما يجرى حوله .. على أنه بدا ان كلمتى « بمعونة الله » قد تغلغلتا فى نفسه ، ووجدتا صدى سريعا فى عقله الباطن فسمعته يرددها مرة أو مرتين ، ثم أدخل تعديلا اذ قال : « بفيض من مجدك يا الهى » .. ثم أدار رأسه على الوسادة ، فى بطء ، وقد تبدل شكل وجهه ، وقال : « اننى أذكرها الآن ، وهذه هى موسيقاها ! » .. وأخذت أصابعه تتحرك على أغطية الفراش ، وكأنه يلمس أوتارا موسيقية ، ثم اخذ يردد فى صوت منخفض جدا ولكنه

واضح ، الفقرة الثانية من ترنيمة : «تعالى أيتها الروح الخالقة» .. وكنت أعرفها ، لاننى كنت أنشـدها مع فرقة المرنمين فى كنيسة ابى ، فى بلدتنا .. أتذكرين ؟

« اللهم امح بنورك الدائم الازلى أعتام بصائرنا العمياء
« وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة .. واملأها بشرا ، بفيض من مجدك
« وابعد عنا أعداءنا وامنح اوطاننا السلام
« وحيث تكون أنت مرشدنا فلن يكون ثمة سوء ! »

وأردف الطبيب قائلا : « وكان صوته أشد ما سمعت تأثيرا فى النفس ! » . ثم صمت اذ رأى جين قد أخفت وجهها فى يديها ، وأجهشت ببكاء حار ، وانتابتها خلجات عصبية كانت تهز جسمها هزا عنيفا .. فلما هدأت ثائرتها ، عاود الطبيب حديثه قائلا :

— وبذلك اهتديت الى الاساس السليم الذى أسير عليه . فعندما تداهم الانسان فاجعة مروعة كهذه ، لا يبقى لديه من سند أو ملجأ سوى الدين .. وبقدر ما يكون عليه الشخص من نمو — فى الناحية الروحية — تكون مقدرته الجسدية على المقاومة والصمود .. ولدى دالمين من الايمان الحقيقى أكثر مما يظن جميع من يعرفونه معرفة سطحية . وما لبثنا أن تحدثنا — بعد ذلك — حديثا تركز فى حدود معينة ، فأقنعته بالموافقة على اجراء أو اثنين . فأنت تعلمين أنه بلا أقارب يمكن الركون اليهم ، اللهم الا بعض أبناء العمومة الذين لم يكونوا على ود به فى أى وقت من الاوقات .. وهاهو ذا وحيد تماما ، فبالرغم من أنه أوتى عشرات من أصدقاء ، الا أنه يجتاز فترة ينبغى الا يحف به فيها غير الاصدقاء الحميمين جدا ، ومع أنه يبدو كالفتى الساذج الذى يسهل التغلغل الى أعماقه ، الا اننى بدأت أرتاب فى ان اى فرد منا قد عرف « جارث »

على حقيقته ، فان روح هذا الرجل أعمق وابعد ما تكون عن مظهره السطحى !

ورفعت جين راسها ، وقالت فى بساطة : ((**بل اننى عرفته تمام المعرفة !**)) . فقال الطبيب : ((آه ، فليكن ! .. انما يجب أن لا يسمح للاصدقاء العاديين بالاقتراب منه ، كما قلت . لقد ذهبت ليدى أنجلبى بأسلوبها المتهور اللطيف ، دون ان تنبىء أحدا باعتزامها الحضور ، وقطعت الرحلة من (شنستون) الى داره ، دون ان تصطحب معها خادمة أو متاعا ، اللهم الا حقيبة يد .. **واندفعت مهرولة نحو باب الدار ، فالقيها ((روبرت ماكنزى)) — وهو الطبيب المقيم الذى يتولى علاجه وقد عرف بعزوفه عن النساء — فخشى لدى رؤياها أن تكون زوجة لدال ، لم يدر أحد بزواجه منها . اذ خيل له أن السيدات اللائى لا يعلن عن حضورهن ، ويصلن فى عربات مستأجرة ، لا بد ان يكن زوجات لا يرغب أزواجهن فيهن .. وعلمت بأن شجارا مضحكا جرى بينهما** . ولكن الليدى أنجلبى احتالت بأساليبها على ((روبى)) المسكين ، وأوشكت أن تخلب لبه . ومنذا الذى يقوى على مغالبة سحرها ؟ ! على أن احدا لم يجرؤ على السماح لها بدخول حجرة ((دال)) — بطبيعة الحال — فاقتصرت مواساتها على أنها سمحت للعجوز التى تدبر شؤون مسكن ((دال)) ، بأن ترتمى على كتفها الجميلة وتذرف الدموع مدرارا ، وتجهش بالبكاء .. ولقد كانت مهزلة تتجلى للسامع الذى يعرف هؤلاء الاصدقاء جميعا ، أكثر من معرفتهم لانفسهم . ولكن ، لنعد الى التفصيلات الواقعية .. أن ثمة ممرضا مدربا خير تدريب ، يعنى بدال مع خادمه الخاص ، بعد أن رفض رفضا باتا قبول أية ممرضة من مستشفانا فى لندن ، كان فى وسعها أن تشيع فى حجرة المرض شيئا من

الترفيه اللطيف والعطف النسوى . وقال أنه لا يقوى على احتمال أن تلمسه أية امرأة ، فانتهى الامر عند ذلك ، وعهد بتمريضه الى رجل كفء ولكن بوسعنا الآن أن نستغنى عن هذا المرض ، فقد أصررت على أن أبعث اليه بممرضة أختارها له بنفسى ، لا لمجرد أن تقوم بواجبات التمريض - فان خادمه الخاص يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ، وقد ظهر أنه كفء قدير - وانما سينحصر عملها فى أن تجالسه ، وتقرأ له ، وتتولى بريده .. فان هناك أكداسا من الرسائل لم تفض بعد ، ويجب أن تتلى عليه .. أى أن مهمتها - فى الواقع - هى أن تساعده على استئناف الحياة من جديد ، بعد فقدانه الابصار . وهى مهمة تحتاج الى كثير من المران ، وتتطلب لباقة وحسن تصرف .
وقد عثرت - بعد ظهر اليوم - على خير من تصلح لهذه المهمة . فهى امرأة سامية الخصال ، راقية الاصل ، وقد تولت التمريض تحت اشرافى قبل الآن كما أنها على دراية تامة بالمسائل النفسية التى تتطلبها حال المريض .. ثم أنها رشيقة ، ظريفة ، من ذلك النوع من الشابات ، الذى كان دال المسكين يحب أن يكون بجواره دائما ، قبل أن يفقد بصره .. وقد كان جارث - كما تعلمين - ممن يصعب ارضاؤهم بالمظاهر ، كما أنه كان خبيرا بالحسن ! .. ولقد كتبت الى الدكتور ماكنزى وصفا تفصيليا لها ، حتى يهيىء مريضه قبل وصولها . فان عليها أن تذهب بعد باكر . ولقد كان من حسن الحظ أن عثرنا عليها ، لانها خير من كنا نبغى ، وقد انتهت أخيرا من تمريض حالة سل طال بها العهد ، فأصبحت تسير نحو الشفاء ، ورؤى أن تسافر الى الخارج للنقاهة . وبذلك ترين يا جانيت ان الامور تسير الى الاستقرار .. والآن يابنيتى العزيزة ، ان لديك قصة خاصة ترغبين أن تدلى بها الي ، فهأنذا مصغ لك .. على أننى سأطلب

الشاى — قبل ذلك — وسنتناوله معا هنا.. واسمحي لى ببضع دقائق أصعد فيها الى « فلاور » لازجي اليها بضع كلمات!

* * *

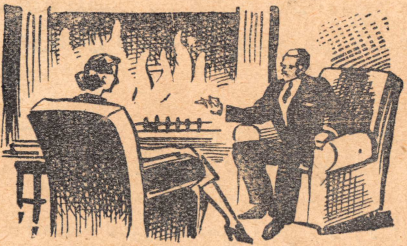
• بدا من الطبيعي فيه أن تسكب الشـــاى للطبيب، ثم تراقبه وهو يضيف كثيرا من الملح فوق الخبز والزبد، يطبق الشطيرة بالدقة والعناية اللتين اتسم بهما كل عمل من أعماله، مهما يكن بسيطا. ولم يكن قد تغـير — فى جـوهره — تغيرا يذكر، عما كان عليه فى العشرين من عمره، حين كان يقضي عطلاته المدرسية فى الابروشية، وحين اعتاد أن يتيح للفتـاة — التى كانت تعيش وحيدة فى الضيعة — سرورا عظيما بتناول الشاى معها فى حجرة دراستها. فاذا قدر لهما التخلص من رفقة مربية الفتاة، والبقاء معا وحيدين، فما كان أبهجها من أويقات يقضيانها جالسين على بساط المدفأة، يشـويان ثمار الكستناء، ويتناقشان فى الموضوعات العديدة التى كانا يهتمان بها معا!.. ولقد ظلت حين تذكر تلك المتعة الممتزجة بالالم، التى كانت تلقاها عند تقليب الكستناء الساخنة بأصابعها على الموقد، حتى لا تعرض أصابعه هو للاحتراق!.. فقد اعتادت أن تعجب دائما — فى سريرتها — بيديه، وبالاصابع السـمراء النحيلة التى كانت رغم رقة ملمسها مليئة بقوة رفيقـة!.. وكانت تحب أن تراقب هذه الاصابع وهي تبرى لها أقلامها، أو ترسم لها اشكالا هندسية بديعة، فى كراسـاتها.. وكان يحلو لها أن تتصور كيف أن حياة الناس ستتوقف على ما لهذه الاصابع من مهارة وحذق، عندما يقدر للفتى — فى السنوات المقبلة — أن يقوم باجراء عمليات جراحية هامة. وكان فى تلك السنين الماضية، يبدو أكبر منها سنا. ثم حان الوقت الذى تطورت فيه بسرعة ونمت، وأصبحت امرأة شـابة، عيناها

فى مستوى عينيه .. واذ ذاك بدا انهما متعادلان فى السن .
ثم بدأت جين تشعر — مع انقضاء السنين — وكأنها تكبره سنا ، واعتادت أن تدعوه بـ «الفتى» ، تأييدا لهذا الشعور.. ثم حادث بعد ذلك « فلاور » ، وازدياد المسئوليات ، فرأت جين وجهه يزداد نحولا ، وقد علته امارات الارهاق ، وشاب شعر فوديه .. واشفقت جين عليه — اذ ذاك — ولكنها لم تجرؤ على أن توليه العطف . وما لبثت أمور الطبيب ان تحسنت ، وبدا أن الحظ قد آثره بخيراته ، سواء فى مهنته ، أو فى مكانته بين الناس ، أو — فوق كل شىء — فى حياته العاطفة ، التى كانت « فلاور » تحتويها بين يديها اللطيفتين . **وارتاح قلب جين ، وان شعرت بمزيد من الوحدة ، بعد أن أصبحت بلا رفيق . على أن صداقتهما ظلت وثيقة ، وقد ضما اليها «فلاور» طرفا ثالثا .. طرف ودود ، يحدوه العرفان بالجميل والشوق الى أن تتعلم — من المرأة التى كانت صداقتها ازوجها ركنا هاما فى حياته — كيف تنجح فيما كانت قد فشلت هى فيه من قبل . وظل قلب جين الامين كريما وفيا لهما معا ، وان كان شعورها بالوحشة قد أخذ يستفحل وهى تشهد سعادتهما الشاملة !**

أما الآن — فى ساعة الضيق والحاجة — فلم يكن لها من معين سوى « دريك » وحده . وقد أدرك الطبيب ذلك ، ورتب الامور على ضوء هذه الحقيقة ، اذ شعر بأن الفرصة قد واتته ليرد لها ما أولته اياه من وفاء طوال عمره . وكان خليقا بالحديث الذى دار بينهما — فى أصيل ذلك اليوم — ان يكون محكا دقيقا لصداقتهما .. ومن ثم فقد أمر الطبيب — بما أملته عليه خبرة الاخصائى بتقدير التأثير النفسانى لاتفه المظاهر الخارجية — ببعض الفطائر ، وبغلاية ماء ، وطلب الى « جين » أن تعد الشاى . وما ان فار الماء فى المرجل ، حتى كانا قد استعادا ذكرى عهد الصبا وشعراء أبى درده الكستناء ،

وضحكا كثيرا لما كانت تبديه مربية جين من جهد لتردهما الى اتباع النظام ، ولما كانا يبذلانه لمحاولة التهرب من رقابتها . ورجعت بهما الذكرى سنوات عديدة ، حتى أحست جين بأنها فى دارها مع رفيق صباها .

ومع ذلك ، فقد دهمتهما لحظة وجوم ، عندما أزاح الطبيب مائدة الشاى ، وحدق كل منهما فى وجه الآخر ، وهما فى مقعديهما المريحين حول المدفأة . ولاحظ كل منهما كيف كان صاحبه يسلك مسلكه المألوف معه .. فقد جلست جين



معتدلة فى مقعدها ، وثبتت قدميها بقوة فوق بساط المدفأة ، وذراعاها مستندان الى ركبتيها ، يداها معقودتان أمامها .. بينما اضطجع الطبيب فى مقعده ، وعقد ساقيه - احداهما فوق الاخرى - واسند مرفقيه الى ذراعى المقعد ، والتقت أصابعه بعضها ببعض ، وقد سكن جسمه تماما ، بينما اشتدت يقظة ذهنه .

* * *

• وكان الصمت الذى ساد بينهما ، اشبه ببركة ماء عميقة ، ساكنة . ثم كانت جين السباقة الى الغوص فى هذه البركة ، اذ قالت : « سأخبرك بكل شىء ، يا دريك .. سأحدثك عن

قلبى ، وعن عقلى ، وعن مشاعرى كمـا لو أنها كانت عظاما وعضلات ورئات .. وأحب منك أن تجمع بين مهمتى الطبيب والقس الذى يتلقى الاعتراف ! »

وكان الطبيب وقتئذ يتأمل أطراف أصابعه ، فما أن سمع قولها ، حتى التفت اليها بسرعة وأومأ براسه ، ثم حول نظره الى نار الموقدة . فعادت تقول : « لقد كانت حياتى مشـوبة بوحدة موحشة — الى حد ما — يا دريك . فمـا كنت يوما عنصرا لازما لحياة شخص آخر ، كما أن أحدا لم يصل الى الاعماق الحقيقية لنفسى .. وكنت أعلم بوجود هذه الاعماق ، ولكنى كنت أدرك أن احـدا لم يقـو على استقصائها وسبر أغـوارها ! »

ففغر الطبيب فمه وكأنه يهم بالكلام ثم أطبق شفتيه أشد من ذى قبل ، واكتفى بأن هز رأسه صامتا . واسـتطردت جين قائلة : « لم ألق قط من أخذ ذلك الحب الذى يجعـل للمرء الاولوية المطلقة لدى شخص آخر ، لا ولا أنا أحببت أحدا هذا الحب . كنت أحفل كثيرا واهتم .. ولـكن الاحتفـال والاهتمام ليسا حبا ! .. أواه يا فتاى ، اننى أدرك هـذا الآن ! » . وبدا الجانب المواجه لها من وجه الطبيب ، اشـد بياضا من ذى قبل ، بالنسبة للخضرة القاتمة التى كان عليها لون المقعد . غير أنه ابتسم وهو يجيبها : « هذا حق يا عزيزتى .. هناك فارق كبير ! »

— لقد كان لى اصدقاء لا يحصى عددهم ، بينهم كثير من أظرف الرجال ، ويكاد معظمهم يكونون اصغر منى سنا ، وقد اعتادوا أن يدعوننى : « الآنسة شامبيون » فى حضـورى ، و « جين العجوز الطيبة » خلف ظهرى !

وابتسم الطبيب ، اذ كثيرا ما طرق مسامعه هذا التعبير .. وكان يشتم فى صوت قائله — فى كل مرة — روح العطف القلبى

والاعجاب .. بينما استأنفت جين حديثها قائلة : « والرجال أكثر انسجاما معى ــ عادة ــ النساء .. ولما كنت كبيرة الجسم ، قوية البنيان ، ومن عادتى ان اسمى المعول «معولا»، ولا أدعوه « أداة من أدوات الحديقة » ، فقد اعتبرتنى النساء « كبيرة العقل » ، واعتدن أن يخفننى .. **اما الفتيان ، فكانوا يركنون الى ، ويودعوننى ثقتهم واسرارهم ، ناظرين الى أخت كبرى لا تسبب لهم متاعبا ، وتعلم عن أمورهم اقل مما تحرص الأخت الكبرى على معرفته ، بل هى أكثر استعدادا للاهتمام بالامور التى يؤثرون أن يفضوا بها اليها ، منهـا بالامور التى يكتمونها ..وبين اصدقائى الرجال يادريك، كان«جارت دالمين!»**

وصمتت جين .. وانتظر الطبيب حتى تكمل حديثها .ولم يطل انتظاره ، اذ عادت تقول : « لقد كنت دواما شـديدة الاهتمام بأمره ، لما له من أسلوب مبتكر طلى ، ولاننى .. » . وهنا زحفت على وجنتيها السمراوين ــ فجأة ــ لمرة داكنة. ثم استأنفت حديثها قائلة : « أجل ، اننى أعتقد ــ وان لم أكن قد تأكدت من ذلك ، من قبل ــ اننى وجدت جمـاله الفائق خلابا ! .. وكنا اذ ذاك فى ظروف متماثلة ، فكل منا محـروم من والديه ، وكلانا على جانب كبير من الثراء وغـير مسئولين عن تصرفاتنا أمام احد ما ، ولنا كثير من الاصدقاء المشتركين، وغالبا ما نكون ضيفين فى مكان واحد ! .. **وانسقنا الى ألفة مستعذبة ، فكان هو الوحيد من أصدقائى الذى اشعرنى بأنه « رجل وأخ » .. وكنا نناقش امورالنساء بالعشرات ، لاسيما اولئك اللائى كن موضع اعجابه تباعا ، فنستعرض أثر جمالهن عليه ، وكنت ارقب الموقف باهتمـــام ، لارى من منهن التى سيقتصر عليها هواه المتقلب الهائم ، فى آخر الامر ..** ولكن هذا كله تبدل فى نصف ساعة ، فى احـد الايام الحافلة . اذ كنا نقيم مع آخرين فى (أوفردين) ، وأقيمت بالدار حفلةكبيرة .. كانت العمة « جورجينا » قد أعدت حفلة موسيقية دعت

لحضورها نصف جيرتها . وفى آخر لحظة ، تخلفت السيدة « فيلما » عن الحضور . واشتدت الحيرة والارتباك بالعمة جينا ، حتى أنها أخذت تستلهم ببغاءها الرأى ! . وانت تعلم كيف تفعل ذلك ، فهى تقول دائما انها انما تردد كلمات « الطائر العزيز » .. يجب أن يعمل شىء وكان لابد من مخرج ، فتطوعت لان أحل محل « فيلما » وقمت بالغناء فى الحفلة »

فشهق الطبيب دهشة . ولكنها واصلت الحديث قائلة : « وغنيت قطعة « المسبحة » ، وهى الاغنية التى طلبتها منى « فلاور » فى آخر مرة كنت هنا . هل تذكر ؟ » . فهز الطبيب رأسه قائلا : « نعم اذكر » ، بينما استطردت هى تقول : « وبعد ذلك تغير كل شىء بين جارث وبينى .. ولم أدرك كنه هذا التغيير فى بدايته .. كنت أعلم أن الموسيقى قد حركت عواطفه الى أعمق حد ، فان لجمال النغم عليه ذات الاثر الذى لجمال الالوان .. غير أننى ظننت بأن هذا العارض قد ينقضى بانقضاء الليل . ولكن الايام مرت وهذا التبدل الغريب ، المستعذب ، الذى طرأ عليه ، باق على حاله . وماكان لاحد غيرنا أن يلاحظ ذلك . أما أنا ، فقد احسست فجأة بأننى فى حياتى كلها أصبحت لازمة لشخص ما ، لاول مرة فى عمرى بأسره . فلم أكن أدخل حجرة الا وأنا واثقة بأنه يحس بوجودى ، وما كنت أبارح مكانا دون ان اوقن من انه يحس فورا بالفراغ ويتألم لغيابى .. وكانت الحال الاولى تملأ جوانح كلينا ، فى حين أن الحال الثانية كانت تخلف فراغا لا سبيل الى التخلص منه .. عرفت ذلك ولكننى — مع ما فى الامر من غرابة لا تصدق — لم أحدس قط أن هذا هو .. للحب ، بل ظننت أنها رابطة وتقارب قويان غير عاديان ، قوامهما العطف والتفاهم المتبادل الذى كان مبعثه الرئيسى استعذاب كل منا

الموسيقى الآخر ، فأصبحنا نقضى الساعات فى قاعة الموسيقى . هكذا رأيت الامر ، ولكنه كان كلما نظر الى ، بدا وكأن عينيه تلمسانني لمسات رقيقة ، وعجيبة جدا .. كل هذا ، ولم أفكر مطلقا فى الحب ! ذلك لاننى خلو من الجمال ، وقد أشرفت على أوسط العمر ، فى حين أنه شاب يتألق جمالا وشبابا .. كان أشبه بشاب من آلهة الشمس ، فكنت أحس دفئا وحيوية فى قربه ، وكان دائما قريبا منى .. هذه الحقيقة ، وهذا ما عشت فيه طوال الايام التى تلت الحفلة الموسيقية .. اما هو من ناحيته فقد أخبرنى يا دريك — فيما بعد — بأن سماعه أغنية « المسبحة » كان الهاما مفاجئا .. الهاما لم ينبثق من الموسيقى ، وانما منى أنا .. وقال انه لم يفكر فى — مرة — الا كصاحب طيب ! ثم كأنما كان ثمة قناعا أزيح ، فرآنى ، وعرفنى ، وأحس بى .. كامرأة ! .. والامر يبدو لك غريبا — ولا ريب — كما بدا لى .. ولكنه قال أن المرأة التى وجدها فى شخصى — فى تلك الليلة — كانت مثله الاعلى للمرأة ، وانه منذ تلك اللحظة رغب فى أن أكون له وحده ، كما لم يرغب فى اى انسان من قبل ! »

وصمتت جين وعيناها محدقتان فى النار الملتهبة ، فاستدار الطبيب بكل بطء ، ونظر اليها .. لقد أحس — هو الآخر — فى الماضى بشدة جاذبيتها كامرأة . وكان ذلك الشعور يشتد ويطفى كلما بان واتضح ، لانه لم يكن ظاهرا سطحيا .. ولقد لمس قوة الحنان الاموى الهاجع فى أعماقها ، وعرف ان ذراعيها قادران على ان يصبحا ملاذا أمينا ، وصدرها وسادة ناعمة ، وحبها عزاء صامتا .. ولقد كان الطبيب — فى أيام وحدته ووحشته — يرى لزاما عليه أن يهرب من هذه الصفات فى جين .. فقد كانت نعمة ثمينة يسهل الاستيلاء اليها — لان جين كانت شديدة الجهل بها — ولكنها كانت نعمة ليس له فى نيلها اى حق . وبذا تسنى للطبيب أن يفهم تماما مدى سلطان تلك

النعمة على رجل قدر له أن يكتشفها ، وكانت له الحرية فى أن يظفر بها لنفسه !

* * *

• **جال** كل هذا بذهن الطبيب ، ولكنه اكتفى بأن قال : « ان هذا لا يبدو لى غريبا يا عزيزتى ! » . وكانت جين قد نسيت وجود الطبيب ، فتنبهت اليه ، وتحولت عن التحديق فى جوف نار المدفأة المتأججة ، وقالت : « يسعدنى ان لا تراه غريبا ، أما انا فقد بدا لى غريبا .. حسنا ، لقد بارحنا (أوفردين) فى ذات اليوم ، فقدمت أنا لزيارتكما ، وذهب هو الى (شنستون) .. كان ذلك فى يوم الثلاثاء ، وفى يوم الجمعة سافرت الى (شنستون) حيث تلاقينا ثانية .. **وبدا ان افتراقنا تلك الفترة القصيرة ، قد أذكى ذلك الشعور الغريب الذى كان يدفعنا الى أن نكون معا ، وزاده عمقا ولذة .** وكان بين الضيوف النازلين فى قصر (شنستون) ، تلك الامريكية الحسناء « بولين ليستر » . وقد كان جارث مشغوفا بجمالها مصمما أن يرسمها ، فأيقن كل امرىء من انه لن يلبث أن يطلب يدها . ولقد ظننت ذلك ــ أنا ايضا ــ يا دريك ، بل اننى نصحته بذلك ، فى الواقع . وكنت مسرورة ومهتمة بالامر ، بالرغم من ان عينيه كانتا تلمسانى لمسا بنظراتهما ، ومن اننى كنت أدرك ان ايوم لم يكن يبتدىء ــ فى نظره ــ الا حين نلتقى ، ولم يكن ينتهى الا عندما نتبادل التحية قبل النوم .. ان هذه التجربة ــ التى وضعتنى فى المقدمة ، وجعلتنى المفضلة لديه ــ أحالت كل شىء أمامى ذهبيا ، وأغدقت على الحياة ازدهارا ، ومع كل هذا فقد ظللت أراها مجرد صداقة بهيجة ، غير عادية .. وفى مساء يوم وصولى الى (شنستون) ، طلب منى أن نخرج معا الى الشرفة بعد العشاء ، ليفضى الى بحديث أسراره ــ كعادته ــ واننى سأسمع منه تفصيلا عن نواياه ازاء

خاص . فظننت بادريك انه يسعى الى أن يفضى الى بسر من الآنسة ليستر . وتحت تأثير هذا الظن سرت هادئة مطمئنة بجانبه ، وجلست على جدار الشرفة ــ تحت ضــوء القمر الزاهى ــ ولبثت صامتة فى ارتقاب أن يبدأ حديثه . واذ ذاك .. أواه ، يا دريك ! »

وأســـندت جين مرفقيها الى ركبتيها ، وأخفت وجهها فى راحتيها ، ثم استأنفت حديثها قائلة : « لست أقوى على أن أسرد لك التفصيلات .. **لقد كان حبــه الذى تدفق على ، أشبه بالذهب المصهور ، فأذاب أصداف تحفظى ، وتفجر فى ثلوج الآراء التى اعتنقتها ، واقتلعنى من مكانى فاكتسحنى فوق طوفان من نار عجيبة .. ولم أعد أدرى شيئاً فى السماء أو فى الارض ، اللهم الا أن هذا الحب كان خالصا لى ، ولى وحدى !..**

ثم ، أواه يا دريك ! .. لست أملك ان أوضح لك .. بل اننى لا أدرى كيف حدث ذلك . ولــكن تلك الدوامة من العواطف انصبت ــ آخر الامر ــ على قلبى ، فقد جثا « جارث » على ركبتيه ، وأحاطنى بذراعيه ، وتشبث كل بالآخر وقد سادنا سكون فجائى عظيم .. كنت ــ فى تلك اللحظة ــ له بكل كيانى ، وكان يعلم ذلك .. وكان من الممكن أن يبقى فى هــذا الوضع ساعات طويلة ، او انه لم يتحرك ويتكلم .. ولكنه رفع وجهه وتطلع الى ، ثم قال كلمتين لا أستطيع ترديدهما ، لانهما ردتا الى صوابى فجأة ، وجعلتانى ادرك ما وراء كل هذا .. لقــد كان جارث دالمين يبتغينى زوجة له ! »

وصمتت « جين » فى انتظار ان يبدى الطبيب أية دهشة . ولكن دريك براند أجابها بكل هدوء : « وأى شىء آخــر كان يمكن أن يبتغيه ؟ » .. ووضع يده فوق شفتيه ، اذ شــعر فيهما برعشة مباغتة .. كانت اعترافات جين أعنف وقعا مما توقع ! .. وما لبث أن قال : « حسنا يا عزيزتى . وعــلى ذلك .. ؟ » . فقالت جين : « **اذ ذاك هممت واقفة ، لانه كان**

ـ طيلة بقائه جاثيا امامى ـ السيد المتسلط على ، عقلا وجسما. وهتفت بى غريزة فى اعماقى ، بأن العقل يجب أن يسبق أى شىء آخر فى كيانى الى قول « نعم » ، اذا شئت أن اقاد الى حظيرة الزوجية . فان التعبير الذى ورد فى الكتاب المقدس هو : « العقل ، والروح ، والجسد » ، وليس « الجسد ، والروح والعقل » ، كما يقال خطأ . واعتقد بأن النتيجة التى تترتب على هذا الالهام هى أصح النتائج » .

وصدرت عن الطبيب حركة سريعة نمت عن بالغ الاهتمام ، وهتف : « يا للسماء ، يا جين ! .. انك بهـذا قد صورت الحقيقة أدق تصوير ، وعبرت عنها التعبير الذى كثيرا ما كنت أنشده دون ان اهتدى الى الكلمات الصحيحة .. أما انت يا جانيت ، فقد وجدتها ! » .. فنظرت الى عينيه المتألقتين ، وابتسمت فى أسى ، وقالت : « أحقا يا فتاى ؟ .. ولكنهـا كلفتنى ثمنا باهظا .. فقد دفعت حبيبى عنى ، واخبرته بأننى فى حاجة الى اثنتى عشرة ساعة أفكر فيها بهدوء . وكان واثقا تمام الثقة .. فى ، وفى نفسه . فقبـل دون ما احتجاج ، واستجاب لطلبى ففارقنى لتوه . وليس بوسعى أن اذكـر طريقة انصرافه ، ولا لك انت يا « ديكى » . ووعدته بأن ألقاه فى كنيسة القرية ـ فى اليوم التالى ـ لاطلعه على جوابى ، فقد كان يعتزم اختبار الارغن الجديد فى الساعة الحادية عشرة ، وكنا ندرك اننا سنكون وحيدين . فلمـا ذهبت صرف نافخ الارغن ، ودعانى الى عتبة الهيكل .. **كان الوضـع بديعا ، فأخذت روح الفنان فيه ، تغنى فرحا ، وهى ترفرف انفعالا .. وتجلى فى عينيه بريق اليقين التام ، وان ظل مسـيطرا على نفسه ، فتحاشى ان يلمسنى وهو يسـألنى عن جوابى** .. وعند ذاك أجبته بالرفض الصريح ، مبدية سببا لا يدع له سبيلا الى الجدال ! »

وفى الحال ادار ظهره ، وخرج من الكنيسة ، فلم اكلمه منذ تلك اللحظة ، حتى الآن !

* * *

• وساد حجرة الطبيب صمت طويل ، اذ استطاع قلب الرجل ان يصل الى أعمق آلام رجل آخر ، ولكنه ــ مع ذلك ــ ظل يحاول كتمان استنكاره ، الى ان يعرف الحقيقة كاملة .. وأخذت روح « جين » ترزح تحت وطأة الانفعال الذى جثم عليها فى تلك الساعة القاسية .. ساعة أن أزجت جوابها لجارث . ورأت ــ مرة اخرى ــ انها كانت على صواب .. واخيرا تكلم الطبيب ، وقد وجه اليها نظرة فاحصة ، وكأنه كان يغوص ــ خلال عينيها ــ الى أعماقها . وبدا صوته صارما رغم ترفقه: « ولماذا رفضته يا جين ؟ »

فمدت جين له يديها مستعطفة ، وقالت : « آه ، يا فتاى؟ .. هل لا بد من أن أزيدك ايضاحا ؟ .. أى شيء آخر كنت أملك ان افعل ، بالرغم من اننى كنت ــ بذلك ــ ارفض اسمى حياة يمكن ان تتاح لى ؟ .. انك لتعرف جارث تمام المعرفة يا دريك ، وتدرك مدى تعلقه بالجمال ، فلا بد له ان يبقى محاطا به على الدوام .. وقبل أن تهبط علينا هذه الحاجة العجيبة المتبادلة وكان قد حدثنى فى صراحة متناهية عن هذا الامر ، قبل أن يشعر كل منا بهذا الاحتياج الغريب الى الآخر ، اذ روى لى قصة رجل عادى المنظر ، وهبه الله خصالا ومواهب كانت موضع اعجاب شديد من جارث ، جعله يرى وجه الرجل على ضوء هذا الاعجاب . ثم أردف قائلا : « على انه ليس بالوجه الذى يود المرء أن يعيش معه أو ان يلقاه يوميا على المائدة .. ثم ان المرء غير مضطر الى أن يخضع لوضع كهذا ، يعتبر ــ بالنسبة الى ــ استشهادا » .. أواه يا دريك ! .. أكان فى وسعى ان أربط جارث الى وجهى العادى،

المجرد من الجمال ؟ .. أكان بوسعى أن أسمح لنفسى بأن أكون نظاما مفروضا ــ فى كل يوم ، وكل ساعة ــ على تلك النفس المتألقة ، العاشقة للجمال ؟ .. انني اعلم انهم يقــولون أن « الحب أعمى » ، ولكن هذا يصح قبل أن يتــربع « الحب » على عرشه .. **فالحب التواق ، المشتهى ، لا يرى فى محبوبه سوى الشيء الذى أيقظ اشتهاءه . أما الحب القنــوع ، فانه لا يلبث أن يسترد كل بصره ، ولا تلبث قواه الابصارية هذه ان تتضاعف ــ على مر الزمن ــ وتصبح مع الاستعمال اليومى ذات قدرة على تكبير المرئيات وتقريبها ..** ان حب الزواج ليس بالاعمى ، وفى وسع أى شخص يقيم مع زوجين أن يســمع ما يراه الحب ــ من كل من الطرفين ــ فاذا بوهم الحب الاعمى يتبدد الى الابد .. وأنا اعلم أن « جارث » كان أعمى خــلال الايام الذهبية ، فلم يرى افتقارى التام الى الجمال ، لانه كان يريدنى برغبة قوية . ولو انه قدر له ان ينالنى ، وأن يشبع نفسه من كل ما أملك أن أمنحه من جمال الروح والعقل .. لو حدث ذلك ، وبدأت الحياة اليومية تتخــذ المجرى الرتيب الذى لابد لكل زوجين من أن يرتقياه .. فتصور ما يكون اذا ما جلسنا لتناول الفطور ، ورأيته ينظر الى ثم يشيح بوجهه .. أو اذا فطنت الى نفسى وقد جلست الى أناء القهوة ، وأنا فى أبسط مظهر عادى لى ، وتبينت أن زوجى قد بدا يحتمل منظرى كشيء مفروض عليه .. فهل كنت أحتمل ذلك ؟ .. **أفما كنت ازداد قبحا على قبح ــ تحت شقوة الشعور يوما بعد يوم ، بأننى لم أعد أروق له .. لغيرما ذنب منى ــ الى أن يقدر للحسرة ، وخيبة الامل ــ وربما الغيرة ــ أن تعمل مجتمعة على جعلى دميمة بالفعل ؟ ..** اننى أسألك يا دريك ، أترانى كنت أحتمل ذلك ؟ »

وكان الطبيب ينظر الى جين باهتمام دقيق ، وكأنه يفحصها على ضوء علمه ، ثم قال : « كم كنت مصيبا الى أقصى حد

عندما قدرت حالتك ، ونصحت لك بالسفر الى الخارج . ومع كل المدلولات الصغيرة .. » . فقاطعته جين صائحة فى ضجر بالغ : « أواه يا فتاى ! .. لا تحدثنى كما لو كنت مريضة ، بل عاملنى كانسان على الاقل ، وصارحنى – كما يصارح الرجل رجلا مثله – هل كان بوسعى أن أربط حياة جارث دالمين الى وجهى البسيط ؟ .. انك تعلم أن وجهى مجرد من الجمال الصارخ ! »

وضحك الطبيب وقد سره أن يستفز جين وقال : « لو كنا نتكلم كما يتكلم رجل الى رجل ، يا فتاتى العزيزة ، لوجدت بنفسى بعض أمور قاسية أود أن أقولها .. ولكننا نتكلم رجل الى امرأة .. رجل ظل – زمنا طويلا جدا – يخدم تلك المرأة العزيزة النبيلة ، ويكرمها ، ويعجب بها ! .. سأجيبك بصراحة عن سؤالك : **« انك لست جميلة بالمعنى العادى المألوف .. وما من رجل يحبك حقا – يجيبك بغير ذلك** . لانه ما من شخص يعرفك ويحبك ، يفكر فى أن يكذب عليك . ومع ذلك ، فلنسلم جدلا – اذا شئت – بأنك مجردة من الجمال ، وان كنت أعرف أن ثمة شبانا كانوا خليقين بأن يهموا بأن يركلونى الى عرض الطريق – لو أنهم كانوا هنا – لمجرد هذا القول ، ما لم أبادر – دفاعا عن نفسى – الى القول بأن سمعهم قد خانهم ، وبأنك « جين ، فحسب ! » ، وهذا كل ما يهمهم فى الامر . ومادمت أنت جين ، فان أصدقاءك يكونون راضين . وفى الوقت ذاته ، أحب أن أضف – بمناسبة الحديث عن هذا الوجه العزيز المحبوب – أن بوسعى أن أتذكر فترات فى الماضى ، كنت أشعر فيها بأننى على استعداد لان أسير راضيا عشرين ميلا ، لالقى نظرة عليه .. وقد اعتدت دائما أن أتوق – فى غاية – الى حضوره ، وفى حضوره الى أن لا يغيب عنى ! »

– ولكنك لم تكن مضطرا الى أن تراه دائما أمامك على المائدة ، فى كل وجبة !

ـ هذا لسوء الحظ .. ولكننى كنت أزداد اســتمراء للغذاء ، فى المناسبات السعيدة التى كنت أراه فيها أمامى !

ـ ثم أنك يا دريك ، لم تكن مضطرا الى تقبيل هذا الوجه !

فطوح الطبيب رأسه الى الوراء ، وانفجر مقهقها بصوت مرتفع ، حتى أن زوجته « فلاور » دهشت اذ سمعته ـ وهى تمر بالحجرة ، صاعدة الى الطابق الثانى ـ فتســاءلت عما يكون قد اتجه اليه حديثهما . ولكن جين ظلت جادة ، أو لم تجد فى الامر ما يستوجب الضحك .. وعندما تملك الطبيب نفسه ، قال : « كلا يا عزيزتى .. فليسجل فى عداد فضائلى ـ التى لا نهاية لها ـ اننى لم أقبل هذا الوجه مرة واحدة، فى كل السنوات التى عرفته فيها ! » . فصاحت جين : « لا تغظنى يا ديكى ! .. أواه يا فتاى ، ان هذه هى أهم مسألة فى حياتى بأسرها ، فاذا لم تمحضنى النصح الآن ـ عن حكمة وامعان تفكير ، فلن تكون لهذا الاعتراف القاسى أية جدوى! »

والآن .. ترى بماذا ينصح الطبيب « جين » ؟ .. هل تكفر عن قسوتها فى رفض الرجل الذى أحبها ، بأن تسهر الى جوار فراشه ؟ .. وهل يقبل منها ذلك ، أو يرى فيه اشفاقا ـ وليس حبا ـ تأباه رجولته ؟ .. أيفلح وحى « أبى الهول » والهام (الدلتا) ، أم يقــدر لجين أن تعيش فى عذاب ، والجارث أن يعيش فى ظلامين .. ظلام البصر ، وظلام القلب ؟ !

هــذا ما ستطالعه فى الجزء الثانى والاخير من هذه القصة الممتعة ، توافيك به « مطبوعات كتابى » بعد أيام .. فارتقبه ، واحجز نسختك !

١٩٥٨/١٠/١

محتويات الكتاب

القصة التى طبعت عشرات المرات
.. وترجمت إلى جميع اللغات !

كانت تعترض حبهما عقبة رأت فيها "هى" حائلا يفصل بينهما، ويهدد سعادتهما فى المستقبل.. فقدمت قلبها قربانا على مذبح الحب.. وخدعته كى تنقذه من هواها!
.. ولكن التضحية التى أقدمت عليها بطلة

المسحة

والتى تفوق فى النبل - والفجيعة - تضحية "غادة الكاميليا" ، كان مقدرا لها مصير آخر!.. وفى شرفة فندق (مينا هاوس) ، المطلة على سفح الهرم، فوجئت "هى" بما كان بمثابة "نقطة التحول" الخطيرة فى حياتها، فعادت فورا إلى وطنها كى تواجه المهمة التى كان يتوقف عليها مصير أحب إنسان إليها فى الوجود..
وبالتالى مصيرها هى !

إن فى القصة مواقف خالدة سوف تنهمر لها عبراتك.. مواقف يذكرها الذين قرأوا القصة منذ عشرين وثلاثين سنة، ويستعيدون عبارتها عن ظهر قلب، فتهطل لها دموعهم فى كل مرة، كما هطلت حين قرأوها لأول مرة



شركة مصر للطباعة ٥٨١٤٩

يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية